297.09
G42mA
c.1
LIBRARY

محاسن السلوك

فى

تاريخ الخلفاء والملوك

تأليف

محمد بك غنيم

مدرس التاريخ بالازهر الشريف

وبالمدارس الاميرية سابقا

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

Cat. 25 Nov. 53

مكتبة لسان العرب
www.lisanarb.com

القاهـــرة

مطبعة العلوم بشارع الخليج بجنينة لاظ

١٩٣٨ م

مكتبة لسان العرب
أ. علاء الدين شوقي
www.lisanarb.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله مالك الملك ، ومعز البررة العادلين ، ومذل الفجار الطاغين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وخير قدوة للملوك والخلفاء ، وعلى آله وصحبه زينة الحكام والأمراء . وبعد فطالما تاقت نفسى لأن أتمم بحوثى فى علم التاريخ «مهذب السلف والخلف ، ومعلم الأوائل والأواخر ، وعبرة الشيب والشبان » ، وتمنيت على الله أن أوفق لتهذيب مسائله وحوادثه ، وجمع البارع الفائق من أبوابه ، ثم نشرها على مراحل متتابعة ، وقد أسعدنى الله ، وواتانى الحظ ، وأدركت بعض ماتمنيت من الأمانى . ومنذ أشهر تعد على الأصابع أخرجت فى عالم المطبوعات السيرة النبوية ، فى أفخم ثوب ، وأجمل رواء ، والآن كانت لله على اليد الثانية ، وها هو ذا كتاب « محاسن السلوك فى تاريخ الخلفاء والملوك » يظهر كسابقه فى عالم المطبوعات وأرجو أن يحوز مثله رضا القراء ، وينال إعجابهم ، والله المسئول أن ينفع به وبغيره مما ألفت ، إنه سميع مجيب.

الخلفاء الراشدون

الخلفاء الراشدون هم الذين قاموا بأمر الخلافة الاسلامية بعد وفاة النبي ﷺ ومدتهم من السنة الحادية عشرة الى الحادية والأربعين وهم : أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب — وخلفهم الإمام الحسن بن على رضى الله عنهم أجمعين . وكانت مدته متممة للخلافة الإسلامية التى أخبر عنها النبي ﷺ بقوله « الخلافة بعدى ثلاثون سنة ثم تكون ملكا عضوضا » وكانت سياستهم الرفق واللين والعدل بين الناس اقتداء برسول الله ﷺ .

وفى عهدهم دانت لهم بقاع بلاد العرب وفتحت بلاد فارس والشام ومصر والعراق وافريقية والأندلس والجزائر المجاورة لها وجزيرة قبرص وحاولوا الاستيلاء على بلاد النوبة وبعد فتحهم هذه الفتوحات العظيمة وبذلهم الهمم الجسيمة وقيامهم بأمر الخلافة ثلاثين سنة لم يأخذهم فيها نوم ولا سنة انتقل أمر الخلافة بعد الحسن بن على رضى الله عنهما الى بنى أمية كما سيأتى .

خلافة أبى بكر الصديق رضى الله عنه

أبو بكر الصديق رضى الله عنه هو الخليفة الأول بعد وفاة النبى ﷺ واسمه عبد الله بن أبى قحافة يلتقى نسبه مع نسب النبى ﷺ فى مرة بن كعب بويع بالخلافة فى السنة الحادية عشرة من الهجرة بعد وفاة النبى ﷺ وذلك أنه لما توفى النبى ﷺ اندهش الناس اندهاشا عظيما حتى قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه من قال إن محمدا قد مات علوت رأسه بسيفى هذا، ولما حضر أبو بكر الصديق وتحقق من موته قال: ألا إن من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فان الله حى لا يموت ثم تلا قوله تعالى (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين) فرجع القوم إلى قوله ولم يعين ﷺ خليفة بعده ولذلك لما توفى النبى حصل خلاف بين المهاجرين والأنصار فقال الأنصار للمهاجرين منا أمير ومنكم أمير، وتهيئوا لانتخاب سعد بن عبادة الخزرجى وقال المهاجرون للأنصار منا الأمراء ومنكم الوزراء، وكثر الجدال بين الفريقين حتى كاد يستفحل الأمر ثم اجتمعوا فى سقيفة بنى ساعدة وبايع عمر أبا بكر ثم توالى الناس عليه يبايعونه فى الشهر الذى توفى فيه رسول الله ﷺ ولم يتأخر عن بيعته إلا قليل من الناس وبايعوه بعد قليل من الزمن ولما تم له الأمر صعد المنبر وحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أيها الناس إنى قد وليت عليكم ولست بخيركم فان رأيتمونى على حق فأعينونى وان رأيتمونى على باطل فسددونى أطيعونى ما أطعت الله فيكم فان عصيت فلا طاعة لى عليكم ألا إن أقواكم عندى ضعيف حتى آخذ الحق منه وأضعفكم عندى قوى حتى آخذ له الحق أقول هذا واستغفر الله لى ولكم

أعماله رضى الله عنه

إن أول عمل بدأ به أنه أنفذ جيش أسامة بن زيد الذى كان قد جهزه رسول الله ﷺ قبل وفاته إلى أبنى وخرج رضى الله عنه بنفسه يودعهم وأوصاهم بقوله لاتخونوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلا ولا شيخا كبيراً ولا امرأة ولا تعزقوا نخلا ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا إلا للأكل وإذا مررتم بقوم فرغوا أنفسهم إلى الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له وإن لقيتم قوما فحصوا أواسط رءوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاضربوا بالسيف ما فحصوا عنه وإذا قدم لكم الطعام فاذكروا اسم الله عليه يا أسامة اسمع ما أمرك رسول الله ببلاد قضاعة ولا تترك من أمره شيئا وعند رجوعه قال لأسامة إن أردت أن تعينى بعمر فافعل فاذن له فيه فرجع ثم سار أسامة لما أمر به وبعث الجنود إلى بلاد قضاعة وأغار على ابنى وسبا وغنم وبعد ذلك رجع إلى المدينة وكانت غيبته عنها أربعين ليلة

فى مبدأ خلافته رضى الله عنه ارتد كثيرون من قبائل العرب ومنع آخرون الزكاة وظهر قوم بادعاء النبوة وعظم الخطب على المسلمين وظهر النفاق فى قلوب البعض من الناس واشرأبت أعناق المشركين لولا أن تدارك هذا الخطب الجسيم بحزمه وهمته وثباته وقوته فإنه رضى الله تعالى عنه أسرع فى تلافى الأمر وامر بتجهيز الجيوش لقتال اهل الردة حتى رجعوا إلى الإسلام وقاتل مانعى الزكاة حتى ادوها وحارب المتنبئين حتى قتل من قتل وهرب من هرب وخرج رضى الله تعالى عنه فى مبدأ الأمر بنفسه يريد المقاتلة ومضى حتى وصل إلى الربذة فخرج اليه الأبطال وأرجعوه الى المدينة فرجع وعقد

أحد عشر لواء لعظماء المسلمين وأبطالهم فغزوا وانتصروا على اعدائهم ونالوا مرادهم من اعدائهم وقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين وعاد الأمر كما كان فى عهد النبى ﷺ

وكان ممن ادعى النبوة أبو الأسود العنسى باليمن وطليحة بن خويلد الأسدى بنجد ومسيلمة بن حبيب الحنفى باليمامة وسجاح بنت الحارث التميمية

أما أبو الأسود العنسى فإن الله قد سلط عليه من قتله وكان النبى ﷺ أخبر بذلك قبل موته فوردت الأخبار الى أبى بكر بأنه قد قتل فى الوقت الذى أخبر ﷺ بأنه يقتل فيه .

وأما طليحة الأسدى فبعد أن عظم أمره واجتمعت عليه قبائل طىء وأسد وغطفان وغيرهم من القبائل أرسل له جيشا تحت امرة خالد بن الوليد فأخضع قبائل طىء وبنى أسد وغطفان وهوازن وسليم وهزم طليحة فى واقعة بزاخة ولجأ الى الفرار ففر هاربا الى الشام .

وأما مسيلمة الكذاب فإنه قد اجتمعت عليه سجاح ومن تبعها من بنى تميم وتغلب وبنى ربيعة وغيرهم من اتباع طليحة الذين انضموا اليها فوافقها مسيلمة على دعواها . ولم يكترث الخليفة أبو بكر بهذه الجموع الكثيرة وأرسل خالد بن الوليد لغزو مسيلمه وسجاح وأتباعهما فقتل مسيلمه الكذاب والذى قتله هو وحشى قاتل حمزة فى جاهليته بالحربة التى قتل حمزة بها وطلب من الله تعالى أن يغفر له تلك بهذه والله غفور رحيم .

وأما سجاح فإنها لما اشتد بها الضيق فرت من الحرب وهربت الى الشام وبقيت بها حتى أسلمت وطال أجلها الى زمن معاوية رضى الله تعالى عنه .

ولكن هذه الحروب قد استشهد فيها نحو سبعمائة رجل أكثرهم من القراء منهم زيد بن الخطاب أخو عمر بن الخطاب رضى الله عنهما وهو أكبر منه سنا

وأقدم اسلاما ومنهم البراء بن مالك أخو أنس بن مالك وقتل من أتباع مسيلمة نحو سبعة عشر ألفاً من بنى حنيفة وأعطى أبو بكر من سبى بنى حنيفة على بن أبى طالب جارية فاستولدها محمد بن الحنفية .

وخاف أبو بكر على ضياع القرآن فجمعه وكتبه فى مصحف واحد وحفظه عند حفصه بنت عمر زوج النبى ﷺ وبقى عندها الى أن رأى عثمان رضى الله عنه اختلاف الناس فى القرآن فأمر بأن تكتب من هذا المصحف عدة مصاحف فكتبت وسيرها للانصار للسير على مقتضاها كما سيأتى ذلك فى فى خلافته ولما هدأ الوقت وانقطعت القلاقل وخضع الكل لأمر الخليفة ورجع الناس لاتباع الدين الحنق والشرع القويم تفرغ الخليفه أبو بكر رضى الله عنه للفتوحات الخارجية لتعميم عدل الإسلام فى سائر الأنام ففتح الفتوحات الآتية :—

فتوحاته رضى الله تعالى عنه

جهز خالد بن الوليد فى جيش جرار الى بلاد العراق وكانت تابعة للفرس وكان ذلك فى شهر المحرم من السنة الثانية عشرة من الهجرة وفى الثالثة عشرة منها جهز أبا عبيدة بجيش جرار الى بلاد الشام وكانت تابعة للروم وصار يسير اليها الجيش بعد الجيش وقال لهم اذا اجتمعتم فأمير الناس أبو عبيدة ولما وصل خالد الى العراق أخذ يفتح بلاده ففتح الحيرة والأنبار وغيرهما من المدائن ولم يزل مجتهداً فى الفتح منصوراً فى غزواته حتى كتب اليه أبو بكر يأمره بالانصراف عنها وأن يستخلف عليها المثنى بن حارثة ويتوجه ومن معه الى الشام لمساعدة الجند هناك وجعله أميراً على جيوش الشام بدل أبى عبيدة فانصرف عنها الى الشام .

واقعة اليرموك

توجه خالد رضى الله عنه مسرعا الى الشام اجابة لأمر الخليفة ومر بأروكه وتدمر وحوران وفتحها وصالح أهلها على الجزية ولم يزل سائراً محفوفا بالنصر العظيم والفتح المبين حتى اجتمعت عساكره بعساكر أبى عبيدة باليرموك والتحم القتال بينهما وبين الروم فانهزمت الروم شر هزيمة وكان هرقل بمدينة حمص فلما بلغه انتصار المسلمين رحل عنها وجعلها بينه وبين المسلمين ثم حاصر خالد وأبو عبيدة مدينه دمشق فدافع أهلها عن أنفسهم دفاعاً شديداً وأتى بجيش أثناء الحصار من الروم لمساعدة المحاصرين نحو سبعين ألف مقاتل فهزمهم المسلمون شر هزيمة عند مدينة أجنادين وكان جيش المسلمين عشرين ألف مقاتل فهزموا الروم وغنموا منهم مغانم كثيرة وافتتحوا بصرى واجنادين من بلاد فلسطين وحصلت بينهم وبين الروم عدة وقائع كان النصر فيها للمسلمين وبينما هم على حصار دمشق اذ جاءهم الخبر بوفاة أبى بكر فأخروه ومضوا فى القتال ولم يشعروا أحداً به مخافة أن يحصل اضطراب أو وهن فى العزيمة وقيل ان الخبر قد جاءهم وهم فى واقعة اليرموك قبل حصار دمشق

﴿ فصل ﴾

فى شجاعته رضى الله عنه

وإنه أشجع الصحابة رضى الله عنه أخرج البزاز فى مسنده عن على أنه قال أخبرونى من أشجع الناس فقالوا أنت قال أما أنى ما بارزت أحداً إلا انتصفت منه ولكن أخبرونى بأشجع الناس قالوا لانعلم فمن قال أبو بكر إنه لما كان يوم بدر جعلنا لرسول الله ﷺ عريشا فقلنا من يكون مع رسول الله ﷺ لئلا يهوى إليه أحد المشركين فوالله مادنا منا أحد إلا أبا بكر شاهراً بالسيف على

رأس رسول الله ﷺ لايهوى إليه أحد فهو أشجع الناس قال على رضى الله عنه ولقد رأيت رسول الله ﷺ وأخذته قريش فهذا يجؤه وهذا يتلتله وهم يقولون أنت الذى جعلت الآلهة إلها واحدا قال فوالله مادنا منا أحد إلا أبو بكر يضرب هذا ويتاتل هذا وهو يقول ويلكم اتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ثم رفع على بردة كانت عليه فبكى حتى اخضلت لحيته ثم قال أنشدكم الله أمؤمن آل فرعون خير أم أبو بكر فسكت القوم فقال الا تجيبونى فوالله لساعة من أبى بكر خير من ألف ساعة مثل مؤمن آل فرعون ذاك رجل يكتم إيمانه وهذا رجل أعلن إيمانه وأخرج البخارى عن عروة بن الزبير قال سألت عبد الله بن عمرو بن العاص عن أشد ماصنع المشركون برسول الله ﷺ قال رأيت عقبة ابن أبى معيط جاء إلى النبى ﷺ وهو يصلى فوضع رداءه فى عنقه فخنقه به خنقا شديداً فجاء أبو بكر حتى دفعه عنه فقال اتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم وأخرج الهيثم بن كليب فى مسنده عن أبى بكر قال لما كان يوم أحد انصرف الناس كلهم عن رسول الله ﷺ فكنت أول من فاء وسيأتى تتمة الحديث فى مسند ماروا. وأخرج ابن عساكر عن عائشة رضى الله عنها قالت لما اجتمع أصحاب النبى ﷺ فكانوا ثمانية وثلاثين رجلا الح أبو بكر على رسول الله ﷺ فى الظهور فقال يا أبا بكر إنا قليل فلم يزل أبو بكر يلح على رسول الله ﷺ حتى ظهر رسول الله ﷺ وتفرق المسلمون فى نواحى المسجد كل رجل فى عشيرته وقام أبو بكر فى الناس خطيبا فكان أول خطيب دعا إلى الله وإلى رسوله وثار المشركون على أبى بكر وعلى المسلمين وضربوا فى نواحى المسجد ضربا شديداً وسيأتى تتمة الحديث فى فى ترجمة عمر رضى الله عنه وأخرج ابن عساكر عن على رضى الله عنه قال ولما اسلم أبو بكر أظهر إسلامه ودعا إلى الله وإلى رسوله .

﴿ فصل ﴾

فى انفاق ماله على رسول الله صلى الله عليه وسلم

وأنه أجود الصحابة قال تعالى « وسيجنبها الأتقى الذى يؤتى ماله يتزكى » إلى آخر السورة قال ابن الجوزى أجمعوا على أنها نزلت فى أبى بكر وأخرج أحمد عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ مانفعنى مال قط مانفعنى مال أبى بكر فبكى أبو بكر وقال هل أنا ومالى إلا لك يارسول الله وأخرج أبو يعلى من حديث عائشة رضى الله عنها مدفوعا مثله قال ابن كثير وروى أيضاً من حديث على وابن عباس وأنس وجابر بن عبد الله وأبى سعيد الخدرى رضى الله عنه وأخرجه الخطيب عن سعيد بن المسيب مرسلا وزاد وكان رسول الله ﷺ يقضى فى مال أبى بكر كما يقضى فى مال نفسه وأخرج ابن عساكر من طرق عن عائشة رضى الله عنها وعروة بن الزبير أن أبا بكر رضى الله عنه أسلم يوم أسلم وله أربعون ألف دينار وفى لفظ أربعون ألف درهم فانفقها على رسول الله ﷺ وأخرج أبو سعيد بن الإعرابى عن ابن عمر رضى الله عنه قال أسلم أبو بكر رضى الله عنه يوم أسلم وفى منزله أربعون ألف درهم فخرج إلى المدينة فى الهجرة وماله غير خمسة آلاف كل ذلك ينفقه فى الرقاب والعون على الاسلام وأخرج ابن عساكر عن عائشة رضى الله عنها أن أبا بكر أعتق سبعة كلهم يعذب فى الله وأخرج ابن شاهين فى السنة والبغوى فى تفسيره وابن عساكر عن ابن عمر قال كنت عند النبى ﷺ وعنده أبو بكر الصديق وعليه عباءة قد خللها فى صدره بخلاف فنزل عليه جبريل عليه السلام فقال يا محمد مالى أرى أبا بكر عليه عباءة قد خللها فى صدره بخلاف فقال يا جبريل أنفق ماله على قبل الفتح قال فان الله تعالى يقرأ عليه السلام ويقول له أراض أنت عنى فى فقرك هذا أم ساخط فقال أبو بكر

أسخط على ربى أنا عن ربى راض أنا عن ربى راض أنا عن ربى راض (غريب وسنده ضعيف جدا) وأخرج أبو نعيم عن أبى هريرة وابن مسعود مثله وسندهما ضعيف أيضا وأخرج ابن عساكر نحوه من حديث ابن عباس وأخرج الخطيب بسند واه أيضا عن ابن عباس رضى الله عنه عن ﷺ قال هبط جبريل عليه السلام وعليه طنفسة وهو متخلل بها فقلت له ياجبريل ماهذا قال ان الله تعالى أمر الملائكة أن تتخلل فى السماء كتخلل أبى بكر فى الأرض قال ابن كثير وهذا منكر جدا وقال ولولا أن هذا والذى قبله يتداوله كثير من الناس لكان الاعراض عنهما أولى وأخرج أبو داود والترمذى عن عمر بن الخطاب قال أمرنا رسول الله ﷺ أن نتصدق فوافق ذلك مالا عندى قلت اليوم اسبق أبا بكر إن سبقته يوما فجئت بنصف مالى فقال رسول الله ﷺ ما أبقيت لأهلك قلت مثله وأتى أبو بكر بكل ماعنده فقال يا أبا بكر ما أبقيت لأهلك قال أبقيت لهم الله ورسوله فقلت لا أسبقه فى شىء أبدا (قال الترمذى حسن صحيح) وأخرج أبو نعيم فى الحلية عن الحسن البصرى أن أبا بكر أتى النبى ﷺ بصدقته فأخفاها فقال يارسول الله هذه صدقتى ولله عندى معاد وجاء عمر بصدقته فأظهرها فقال يارسول الله هذه صدقتى ولى عند الله معاد فقال رسول الله ﷺ مابين صدقتكما كما بين كلمتكما (اسناده جيد لكنه مرسل) وأخرج الترمذى عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ ما لأحد عندنا يدالا وقد كافأناه إلا أبا بكر فان له عندنا يدا يكافئه الله بها يوم القيامة، وما نفعنى مال أحد قط ما نفعنى مال أبى بكر وأخرج البزار عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه قال جئت بأبى قحافه إلى النبى ﷺ فقال هلا تركت الشيخ حتى آتيه قال بل هو أحق أن يأتيك قال انا نحفظه لأيادى ابنه عندنا وأخرج بن عساكر عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ ما أحد عندى أعظم يدا من أبى بكر واسانى

بنفسه وماله وأنكحنى ابنته .

﴿ فصل ﴾

فى علمه رضى الله عنه

وإنه أعلم الصحابة وأذكاهم قال النواوى فى تهذيبه ومن خطه نقلت استدل أصحابنا على عظم علمه بقوله فى الحديث الثابت فى الصحيحين والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة والله لو منعونى عقالا كانوا يؤدونه الى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه واستدل الشيخ أبو اسحق بهذا وغيره فى طبقاته على أن أبا بكر أعلم الصحابة لأنهم كلهم وقفوا عن فهم الحكم فى المسألة إلا هو ثم ظهر لهم بمباحثته لهم أن قوله هو الصواب فرجعوا إليه وروينا عن ابن عمر أنه سأل من كان يفتى الناس زمن رسول الله ﷺ فقال أبو بكر وعمر رضى الله عنهما ما أعلم غيرهما وأخرج الشيخان عن أبى سعيد الخدرى قال خطب رسول الله ﷺ الناس وقال إن الله تبارك وتعالى خير عبدا بين الدنيا وبين ماعنده فاختار ذلك العبد ماعند الله تعالى فبكى أبو بكر وقال نفديك بآبائنا وأمهاتنا فعجبنا لبكائه أن يخبر رسول الله ﷺ عن عبد خيرا فكان رسول الله ﷺ هو المخير وكان أبو بكر أعلمنا فقال رسول الله ﷺ إن من آمن الناس على فى صحبته وماله أبا بكر ولو كنت متخذا خليلا غير ربى لاتخذت أبا بكر ولكن أخوة الاسلام ومودته لايبقين باب إلا سد إلى باب ابى بكر (هذا كلام النووى) وقال ابن كثير كان الصديق رضى الله عنه اقرأ الصحابة أى أعلمهم بالقرآن لأنه ﷺ قدمه إماما للصلاة بالصحابة رضى الله عنهم مع قوله يؤم القوم اقرؤهم لكتاب الله واخرج الترمذى عن عائشة رضى الله عنها قالت قال رسول الله ﷺ لاينبغى لقوم فيهم ابو بكر ان يؤمهم غيره وكان مع ذلك

أعلمهم بالسنة كما رجع إليه الصحابة فى غير موضع يبرز عليهم بنقل سنن عن النبي ﷺ يحفظها هو ويستحضرها عند الحاجة إليها ليست عندهم وكيف لا يكون كذلك وقد واظب صحبة الرسول ﷺ من اول البعثة إلى الوفاة وهو مع ذلك من اذكى عباد الله واعقلهم وإنما لم يرو عنه من الأحاديث المسندة إلا القليل لقصر مدته وسرعة وفاته بعد النبي ﷺ والا فلو طالت مدته لكثر ذلك عنه جدا ولم يترك الناقلون عنه حديثا إلا نقلوه ولكن كان الذين فى زمانه من الصحابة لا يحتاج احد منهم ان ينقل عنه ما قد شاركه هو فى روايته فكانوا ينقلون عنه ما ليس عندهم واخرج ابو القاسم البغوى عن ميمون بن مهران قال كان ابو بكر إذا ورد عليه الخصم نظر فى كتاب الله فان وجد فيه ما يقضى بينهم قضى به وان لم يكن فى الكتاب وعلم من رسول الله ﷺ فى ذلك الأمر سنة قضى به فان اعياه خرج فسأل المسلمين وقال أتانى كذا وكذا فهل علمتم أن رسول الله ﷺ قضى فى ذلك بقضاء فربما اجتمع إليه النفر كلهم بذكر من رسول الله ﷺ فيه قضاء فيقول أبو بكر الحمد لله الذى جعل فينا من يحفظ عن نبينا فإن أعياه أن يجد فيه سنة من رسول الله ﷺ جمع رءوس الناس وخيارهم فاستشارهم فإن اجمع أمرهم على رأى قضى به وكان عمر رضى الله عنه يفعل ذلك فإن اعياه ان يجد فى القرآن والسنة نظر هل كان لأبى بكر فيه قضاء فإن وجد ابا بكر قد قضى به وإلا دعا رءوس المسلمين فإذا اجتمعوا على امر قضى به وكان الصديق رضى الله عنه مع ذلك اعلم الناس بانساب العرب لاسيما قريش اخرج ابن اسحق عن يعقوب بن عتبة عن شيخ من الانصار قال كان جبير بن مطعم من انسب قريش لقريش والعرب قاطبة وكان يقول إنما اخذت النسب من ابى بكر الصديق وكان أبو بكر الصديق من انسب العرب وكان الصديق مع ذلك غاية فى علم تعبير الرؤيا وقد كان يعبر الرؤيا فى زمن النبى ﷺ وقد قال محمد بن سيرين وهو

المقدم فى هذا العلم بالاتفاق كان ابو بكر اعبر هذه الأمة بعد النبى ﷺ (اخرجه ابن سعد) .

واخرج الديلمى فى مسند الفردوس وابن عساكر عن سمرة قال قال رسول الله ﷺ أمرت ان أول الرؤيا ابا بكر قال ابن كثير وكان من افصح الناس واخطبهم قال الزبير بن بكار سمعت بعض أهل العلم يقول افصح خطباء اصحاب رسول الله ﷺ ابو بكر الصديق وعلى بن ابى طالب رضى الله عنهما وسيأتى فى حديث السقيفة قول عمر رضى الله عنه وكان اعلم الناس بالله واخوفهم له وسيأتى من كلامه فى ذلك وفى تعبير الرؤيا ومن خطبه جملة فى فصل مستقل ومن الدال على انه اعلم الصحابة حديث صلح الحديبية حيث سأل عمر رسول الله ﷺ عن ذلك الصلح وقال علام نعطى الدنية فى ديننا فاجابه النبى ﷺ ثم ذهب إلى ابى بكر فسأله عما سأل رسول الله ﷺ عنه فأجابه الصديق بمثل جواب النبى ﷺ سواء بسواء (اخرجه البخارى وغيره) .

وكان مع ذلك أسد الصحابة رأيا وأكملهم عقلا واخرج تمام الرازى فى فوائده وابن عساكر عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله ﷺ يقول أتانى جبريل فقال إن الله يأمرك ان تستشير ابا بكر واخرج الطبرانى وأبو نعيم وغيرهما عن معاذ بن جبل ان النبى ﷺ لما اراد ان يسرح معاذاً إلى اليمن استشار ناسا من اصحابه فيهم ابو بكر وعمر وعثمان وعلى وطلحة والزبير واسيد بن حضير فتكلم القوم كل إنسان برايه فقال ماترى يامعاذ قلت أرى ماقال ابو بكر فقال النبى ﷺ إن الله يكره فوق سمائه ان يخطىء ابو بكر ورواه ابن اسامة فى مسنده ان الله يكره فى السماء ان يخطىء ابو بكر الصديق فى الأرض واخرج الطبرانى فى الأوسط عن سهل بن سعد الساعدى قال قال رسول الله ﷺ إن الله يكره ان يخطىء ابو بكر (رجاله ثقات) .

﴿ فصل ﴾

فيما أنزل من الآيات فى مدحه أو تصديقه أو أمر من شأنه

اعلم أنى رأيت لبعضهم كتابا فى اسماء من نزل فيهم القرآن غير محرر ولا مستوعب وقد الفت فى ذلك كتابا حافلا مستوعبا محررا وانا الخص هذا ما يتعلق منه بالصديق رضى الله عنه قال تعالى (ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لاتحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه) ، اجمع المسلمون على ان الصاحب المذكور ابو بكر وسيأتى فيه اثر عنه واخرج بن ابى حاتم عن ابى عباس فى قوله تعالى فأنزل الله سكينته عليه قال على ابى بكر إن النبى ﷺ لم تنزل السكينة عليه واخرج ابن ابى حاتم عن ابن مسعود ان ابا بكر اشترى بلالا من امية بن خلف وابى بن خلف ببردة وعشر اواق فأعتقه لله فأنزل الله (والليل إذا يغشى إلى قوله إن سعيكم لشتى) سعى ابى بكر وامية وابى واخرج ابن جرير عن عامر ابن عبد الله بن الزبير قال كان ابو بكر يعتق على الاسلام بمكة فكان يعتق عجائز ونساء إذا اسلمن فقال ابوه اى بنى اراك تعتق اناسا ضعافا فلو انك تعتق رجالا جلدا يقومون معك ويمنعونك ويدفعون عنك، قال اى ابت انا اريد ما عند الله قال فحدثنى بعض اهل بيتى ان هذه الآية نزلت فيه (فأما من اعطى واتقى إلى آخرها) واخرج ابن أبى حاتم والطبرانى عن عروة ان ابابكر الصديق رضى الله عنه اعتق سبعة كلهم يعذب فى الله وفيه نزلت (وسيجنبها الأتقى إلى آخر السورة) وأخرج البزار عن عبد الله بن الزبير قال نزلت هذه الآية (وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلى آخر السورة فى ابى بكر الصديق رضى الله عنه واخرج البخارى عن عائشة رضى الله عنها ان ابا بكر لم يكن يحنث فى يمين حتى أنزل الله كفارة اليمين وأخرج البزار وابن عساكر عن أسيد بن صفوان وكانت له صحبة قال قال على والذى جاء بالحق محمد وصدق به أبو بكر الصديق

قال ابن عساكر هكذا الرواية بالحق ولعلها قراءة لعلى وأخرج الحاكم عن ابن عباس فى قوله تعالى وشاورهم فى الأمر قال نزلت فى أبى بكر وعمر وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن شوذب قال نزلت (ولمن خاف مقام ربه جنتان) فى أبى بكر رضى الله عنه وله طرق أخرى ذكرتها فى أسباب النزول وأخرج الطبرانى فى الأوسط عن ابن عمر وابن عباس فى قوله تعالى وصالح المؤمنين قال نزلت فى أبى بكر وعمر وأخرج عبد الله بن أبى حميد فى تفسيره عن مجاهد قال لما نزلت (ان الله وملائكته يصلون على النبى) قال أبو بكر يارسول الله ما أنزل الله عليك إلا أشركنا فيه فنزلت هذه الآية هو الذى يصلى عليكم وملائكته وأخرج ابن عساكر عن على بن الحسين إن هذه الآية نزلت فى ابى بكر وعمر وعلى ونزعنا مافى صدورهم من غل إخوانا على سرور متقابلين واخرج ابن عساكر عن ابن عباس قال نزلت فى ابى بكر الصديق ووصينا الانسان بوالديه إحسانا إلى قوله وعد الصدق الذى كانوا يوعدون، واخرج ابن عساكر عن ابن عيينة قال عاتب الله المسلمين كلهم فى رسول الله ﷺ إلا ابا بكر وحده فإنه خرج من المعاتبة ثم قرأ الا تنصروه فقد نصره الله إذ اخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار .

﴿ فصل ﴾

فى الأحاديث الواردة فى فضله مقرونا بعمر سوى ماتقدم

اخرج الشيخان عن أبى هريره رضى الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول بينا راع فى غنمه عدا عليه الذئب فأخذ منها شاة فطلبه الراعى فالتفت إليه الذئب فقال من لها يوم السبع يوم لاراعى لها غيرى وبينا رجل يسوق بقرة قد حمل عليها فالتفت إليه فكلمته فقالت إنى لم أخلق لهذا ولكنى خلقت للحرث

قال الناس سبحان الله بقرة تتكلم قال النبي ﷺ فإني أومن بذلك وأبو بكر وعمر أي لم يكونا في المجلس شهد لهما بالايمان بذلك لعلمه بكمال إيمانهما وأخرج الترمذي عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله ﷺ مامن نبي إلا وله وزيران من أهل السماء ووزيران من أهل الأرض فأما من وزيراى من أهل السماء فجبريل وميكائيل وأما وزيراى من أهل الأرض فأبو بكر وعمر وأخرج أصحاب السنن وغيرهم عن سعيد بن زيد قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « أبو بكر في الجنة وعمر في الجنة وعثمان في الجنة وعلي في الجنة » وذكر تمام العشرة وأخرج الترمذي عن أبي سعيد قال قال رسول الله ﷺ إن أهل الدرجات العلى ليراهم من تحتهم كما يرون النجم الطالع في أفق السماء وإن أبا بكر وعمر منهم (وأخرجه الطبراني من حديث جابر بن سمرة وأبي هريرة) وأخرج الترمذي عن أنس أن رسول الله ﷺ كان يخرج على أصحابه من المهاجرين والانصار وهم جلوس فيهم أبو بكر وعمر فلا يرفع إليه أحد منهم بصره إلا أبو بكر وعمر فإنهما كانا ينظران إليه وينظر إليهما ويبتسمان إليه ويبتسم إليهما وأخرج الترمذي والحاكم عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ خرج ذات يوم فدخل المسجد وأبو بكر وعمر أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله وهو آخذ بأيديهما وقال هكذا نبعث يوم القيامة (وأخرجه الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة) وأخرج الترمذي والحاكم عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ أنا أول من تنشق عنه الأرض ثم أبو بكر ثم عمر وأخرج الترمذي والحاكم وصححه عن عبد الله بن حنظلة أن النبي ﷺ رأى أبا بكر وعمر فقال هذان السمع والبصر (وأخرج الطبراني من حديث ابن عمر وابن عمرو) وأخرج البزار والحاكم عن أبي أروى الدوس قال كنت عند النبي ﷺ فأقبل أبو بكر وعمر فقال الحمد لله الذي أيدني بكما وورد أيضاً من حديث البراء من

عازب (وأخرجه الطبرانى فى الأوسط) وأخرج أبو يعلى عن عمار بن ياسر قال قال رسول الله ﷺ أتانى جبريل آنفا فقلت ياجبريل حدثنى بفضائل عمر ابن الخطاب فقال لو حدثتك بفضائل عمر منذ مالبث نوح فى قومه مانفدت فضائل عمر وإن عمر حسنة من حسنات أبى بكر وأخرج أحمد عن عبد الرحمن ابن غنم أن رسول الله ﷺ قال لأبى بكر وعمر لو اجتمعتما فى مشورة ماخالفتكما وأخرجه الطبرانى من حديث البراء بن عازب وأخرج ابن سعد عن ابن عمر أنه سأل من كان يفتى فى زمن رسول الله ﷺ فقال أبو بكر وعمر ولا أعلم غيرهما وأخرج عن أبى القاسم بن محمد قال كان أبو بكر وعمر وعثمان وعلى يفتون فى عهد رسول الله ﷺ وأخرج الطبرانى عن ابن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال أن لكل نبى خاصة من أمته وإن خاصتى من أصحابى أبو بكر وعمر وأبن عساكر عن على قال قال رسول الله ﷺ رحم الله أبا بكر زوجنى أبنته وحملنى إلى دار الهجرة وأعتق بلالا ، رحم الله عمر يقول الحق وإن كان مرا تركه الحق وماله من صديق ، رحم الله عثمان تستحييه الملائكة رحم الله عليا اللهم أدر الحق معه حيث دار وأخرج الطبرانى عن سهل رضى الله عنه قال لما قدم النبى ﷺ من حجة الوداع صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال أيها الناس إن أبا بكر لم يسؤنى قط فاعرفوا له ذلك أيها الناس إنى راض عنه وعن عمر وعثمان وعلى وطلحة والزبير وسعد وعبد الرحمن بن عوف والمهاجرين الأولين فاعرفوا ذلك لهم وأخرج عبد الله بن احمد فى روائد الزهد عن ابن أبى حازم قال جاء رجل إلى على بن الحسين فقال ما كان منزلة أبى بكر وعمر من رسول الله ﷺ قال كمنزلتهما منه الساعة وأخرج ابن سعد عن بسطام بن مسلم قال قال رسول الله ﷺ لأبى بكر وعمر لايتأمر عليكما أحد بعدى وأخرج ابن عساكر عن أنس قال حب أبى بكر وعمر إيمان وبغضهما كفر

وأخرج عن ابن مسعود قال حب أبى بكر وعمر معرفتهما من السنة وأخرج أنس مرفوعا إنى لارجو لأمتى فى حبهم لأبى بكر وعمر ما أرجو لهم فى قول لا إله إلا الله .

﴿ فصل ﴾

فى الأحاديث الواردة فى فضله وحده سوى ماتقدم

أخرج الشيخان عن أبى هريرة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول من انفق زوجين من شيء من الأشياء فى سبيل الله دعى من أبواب الجنة ياعبد الله هذا خير فمن كان من أهل الصلاة دعى من باب الصلاة ومن كان من أهل الجهاد دعى من باب الجهاد ومن كان من أهل الصدقة دعى من باب الصدقة ومن كان من أهل الصيام دعى من باب الريان فقال أبو بكر ماعلى من يدعى من تلك الأبواب من ضرورة فهل يدعى منها كلها أحد قال نعم فأرجو أن تكون منهم ياأبا بكر وأخرج أبو داود والحاكم وصححه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ أما أنك ياأبا بكر أول من يدخل الجنةمن أمتى وأخرج الشيخان عن أبى سعيد رضى الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ أن من آمن الناس على فى صحبته وماله أبا بكر ولو كنت متخذاً خليلا غير ربى لاتخذت أبا بكر خليلا ولكن أخوه الاسلام وقد ورد هذا الحديث من رواية ابن عباس وابن الزبير وابن مسعود وجندب بن عبد الله والبراء وكعب بن مالك وجابر بن عبد الله وأنس وأبى واقد الليثى وأبى المعلى وعائشةوأبى هريرة وابن عمر رضى الله عنه وقد سردت طرقهم فى الأحاديث المتواترة وأخرج البخارى عن أبى الدرداء قال كنت جالساً عند النبى ﷺ إذا أقبل أبو بكر فسلم وقال إنى كان بينى وبين عمر بن الخطاب شيء فأسرعت إليه ثم ندمت فسألته أن يغفر لى

فأبى على فاقبلت إليك فقال يغفر الله لك يا أبا بكر ثلاثا ثم إن عمر ندم فأتى منزل أبي بكر فلم يجده فأتى النبي ﷺ فجعل وجه النبي ﷺ يتمعر حتى أشفق أبو بكر فجثا على ركبتيه فقال يارسول الله أنا كنت أظلم منه مرتين فقال النبي ﷺ إن الله بعثني إليكم فقلتم كذبت وقال أبو بكر صدقت وواساني بنفسه وماله فهل أنتم تاركون الى صاحبي مرتين فما أوذى بعدها وأخرج بن عدى من حديث ابن عمر رضى الله عنه نحوه وفيه فقال رسول الله ﷺ لاتؤذوني في صاحبي فان الله بعثني بالهدى ودين الحق فقلتم كذبت وقال أبو بكر صدقت ولولا أن الله سماه صاحبا لاتخذته خليلا ولكن أخوة الاسلام وأخرج ابن عساكر عن المقدام قال استب عقيل من أبي طالب وأبي بكر قال وكان أبو بكر نسابا نسابا غير أنه تحرج من قرابته من النبي ﷺ فأعرض عنه وشكا الى النبي ﷺ فقام رسول الله ﷺ في الناس فقال الا تدعون لى صاحبي ماشأنكم وشأنه فو الله ما منكم رجل إلا على باب بيته ظلمة إلا باب أبي بكر فان على بابه النور فوالله لقد قلتم كذبت وقال أبو بكر صدقت وأمسكتم الأموال وجاد لى بماله وخذلتموني وواساني وأتبعني وأخرج البخاري عن ابن عمر رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ من جر ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة فقال أبو بكر إن أحد شقى ثوبي يسترخي إلا أن أتعاهد ذلك فقال رسول الله ﷺ أنك لست تصنع ذلك خيلاء وأخرج مسلم عن أبي هريرة رضى الله عنه قال قال رسول ﷺ من اصبح منكم اليوم صائما قال أبو بكر أنا قال فمن تبع منكم اليوم جنازة قال أبو بكر أنا قال فمن أطعم منكم اليوم مسكينا قال أبو بكر أنا قال فمن عاد اليوم منكم مريضا قال أبو بكر أنا فقال رسول الله ﷺ ما اجتمعت في امرىء إلا دخل الجنة وقد ورد هذا الحديث من رواية أنس بن مالك وعبد الرحمن ابن أبي بكر فحديث أنس أخرجه (البيهقي في الاصل) وفي آخره وجبت لك

الجنة وحديث عبد الرحمن أخرجه البزار ولفظه ﷺ صلاة الصبح ثم أقبل على أصحابه بوجهه فقال من أصبح منكم اليوم صائما فقال عمر يارسول الله لم أحدث نفسي بالصوم البارحة فأصبحت مفطرا فقال أبو بكر ولكن حدثت نفسي بالصوم البارحة فأصبحت صائما فقال هل أحد منكم اليوم عاد مريضا فقال عمر يارسول الله لم نبرح فكيف نعود المريض فقال أبو بكر بلغني أن أخي عبد الرحمن ابن عوف شاك فجعلت طريق عليه لأنظر كيف أصبح فقال هل منكم أحد أطعم اليوم مسكينا فقال عمر صلينا يارسول الله ثم لم نبرح فقال أبو بكر دخلت المسجد فاذا بسائل فوجدت كسرة من خبز الشعير فى يد عبد الرحمن فأخذتها ودفعتها اليه فقال أنت فابشر بالجنة ثم قال كلمة أرضى بها عمر وعمر زعم أنه لم يرد خيرا قط إلا سبقه اليه أبو بكر وأخرج أبو يعلى عن ابن مسعود رضى الله عنه قال كنت فى المسجد أصلى فدخل رسول الله ﷺ ومعه أبو بكر وعمر فوجدنى أدعو فقال سل تعطه ثم قال من أحب أن يقرأ القرآن غضا طريا فليقرأ بقراءة ابن أم عبد فرجعت الى منزلى فأتانى أبو بكر فبشرنى ثم أتى عمر فوجد أبا بكر خارجا قد سبقه فقال انك لسباق بالخير وأخرج أحمد بسند حسن عن ربيعة الاسلمى رضى الله عنه قال جرى بينى وبين أبو بكر كلام فقال لى كلمة كرهتها وندم فقال لى ربيعة رد على مثلها حتى يكون قصاصا قلت لا أفعل فقال لتقولن أو لاستعدين عليك رسول الله ﷺ فقلت ما أنا بفاعل فانطلق أبو بكر وجاء أناس من أسلم فقالوا لى رحم الله أبا بكر فى أى شىء يستعدى عليك وهو الذى قال لك ماقال فقلت أتدرون من هذا أبو بكر الصديق هذا ثانى اثنين وهذا ذو شيبة المسلمين أيا كم لايلتفت فيرا كم تنصرونى عليه فيغضب فيأتى رسول الله ﷺ فيغضب لغضبه فيغضب الله لغضبهما فيهلك ربيعة وانطلق أبو بكر وتبعته حتى أتى رسول الله ﷺ فحدثه الحديث كما كان فرفع رأسه فقال ياربيعة مالك

والصديق فقلت يارسول الله كان كذا وكذا فقال لى كلمة كرهتها فقال لى قل كما قلت حتى يكون قصاصا فأبيت فقال رسول الله ﷺ أجل لاترد عليه ولكن قل قد غفر الله لك يا أبا بكر فقلت غفر الله لك يا أبا بكر وأخرج الترمذى وحسنه عن ابن عمر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لأبى بكر أنت صاحبى على الحوض وصاحبى فى الغار وأخرج عبد الله بن أحمد رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ أبو بكر صاحبى ومؤنسى فى الغار (اسناده حسن) وأخرج البيهقى عن حذيفة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ إن فى الجنة طيرا كأمثال البخاتى قال أبو بكر انها لناعمة يارسول الله قال انعم منها من يأكلها وأنت ممن يأكلها وقد ورد هذا الحديث من رواية أنس وأخرج أبو يعلى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ عرج بى الى السماء فما مررت بسماء الا وجدت فيها اسمى محمد رسول الله وأبو بكر الصديق خلفى اسناده ضعيف لكنه ورد أيضا من حديث ابن عباس وابن عمر وأنس وأبى سعيد وأبى الدرداء رضى الله عنه بأسانيد ضعيفة يشد بعضها بعضا وأخرج ابن أبى حاتم وأبو نعيم عن سعيد بن جبير رضى الله عنه قال قرأت عند النبى ﷺ يا أيتها النفس المطمئنة فقال أبو بكر يارسول الله ان هذا لحسن فقال رسول الله ﷺ أما أن سيقولها لك عند الموت وأخرج ابن أبى حاتم عن عامر بن عبد الله بن الزبير رضى الله عنه قال لما نزلت ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم الآية قال أبو بكر يارسول الله لو أمرتنى أن أقتل نفسى لفعلت فقال صدقت وأخرج أبو القاسم البغوى حدثنا داود بن عمر حدثنا عبد الجبار بن الوردى عن ابن أبى مليكة قال دخل رسول الله ﷺ وأصحابه غديرا فقال ليسبح كل رجل الى صاحبه قال فسبح كل رجل حتى بقى رسول الله ﷺ وأبو بكر فسبح رسول الله ﷺ الى أبى بكر حتى اعتنقه وقال لو كنت متخذا خليلا حتى ألقى الله لاتخذت

أبا بكر خليلا ولكنه صاحبي تابعه وكيع عن عبد الجبار بن داود (أخرجه ابن عساكر) وعبد الجبار ثقة وشيخه ابن أبي مليكة إمام إلا أنه مرسل وهو غريب جدا قلت أخرجه الطبراني في الكبير وابن شاهين في السنة من وجه آخر موصولا عن ابن عباس وأخرج ابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق وابن عساكر من طريق صدقه بن ميمون القرشي عن سليمان بن يسار قال قال رسول الله ﷺ خصال الخير ثلثماية وستون خصلة إذا أراد الله بعبد خيرا جعل فيه خصلة منها يدخل بها الجنة قال أبو بكر يارسول الله أفي شيء منها قال نعم جمعا من كل وأخرج ابن عساكر من طريق أخرى عن صدقه القرشي عن رجل قال قال رسول الله ﷺ خصال الخير ثلثماية وستون فقال أبو بكر يارسول الله لي منها شيء قال كلها فيك فهنيئا لك يا أبا بكر وأخرج ابن عساكر من طريق مجمع ابن يعقوب الانصاري عن أبيه قال ان كانت حلقة رسول الله ﷺ لتشتبك حتى تصير كالاسوار وان مجلس أبي بكر منها لفارغ مايطمع فيه أحد من الناس فاذا جاء أبو بكر جلس ذلك المجلس وأقبل عليه النبي ﷺ بوجهه وألقى إليه حديثه وسمع الناس وأخرج ابن عساكر عن أنس رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ حب أبي بكر وشكره واجب على كل أمتي وأخرج مثله في حديث سهل بن سعد وأخرج عن عائشة رضي الله عنها مرفوعا الناس كلهم يحاسبون إلا أبا بكر .

﴿ فصل ﴾

في نبذ من حلمه وتواضعه رضي الله عنه

اخرج ابن عساكر عن أنيسه قالت نزل فينا أبو بكر ثلاث سنين قبل أن يستخلف وسنه بعد ما استخلف فكان جواري الحي يأتينه بغنمهن فيحلبهن لهن

وأخرج أحمد فى الزهد عن ميمون بن مهران قال جاء رجل إلى أبى بكر فقال السلام عليك ياخليفة رسول الله قال من بين هؤلاء أجمعين وأخرج ابن عساكر عن أبى صالح الغفارى أن عمر بن الخطاب كان يتعهد عجوزا كبيرة عمياء فى بعض حواشى المدينة من الليل فيسقى لها ويقوم بأمرها فكان إذا جاءها وجد غيره قد سبقه إليها فأصلح ماأرادت فجاءها غير مرة كلا يسبق اليها فرصده عمر فاذا هو بأبى بكر الذى بأتيها وهو يومئذ خليفة فقال عمر أنت هو لعمرى وأخرج أبو نعيم وغيره عن عبد الرحمن الاصبهانى قال جاء الحسن بن على إلى أبى بكر وهو على منبر رسول الله ﷺ فقال أنزل عن مجلس أبى فقال صدقت إن مجلس أبيك وأجلسه فى حجره وبكى فقال على والله ماهذا عن أمرى فقال صدقت والله مااتهمك .

وفاة أبى بكر والوصية لعمر رضى الله عنهما

إنه لما اشتد بأبى بكر المرض جمع أكابر الصحابة واخبرهم أنه يريد أن يوصى إلى عمر بن الخطاب بالخلافة فاستحسنوا ذلك وحبذوا رأيه فدعا عثمان ابن عفان وقال له اكتب بسم الله الرحمن الرحيم هذا ماعهد به أبو بكر خليفة محمد رسول الله ﷺ عند آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة فى الحالة التى يؤمن فيها الكافر ويوفق فيها الفاجر أنى استعملت عليكم عمر بن الخطاب فان أحسن وعدل فذلك علمى به ورأيى فيه وان جار وبدل فلا علم لى بالغيب والخير أردت ولكل امرىء من فعله مااكتسب ثم ختمه بخاتم رسول الله ﷺ فخرج به عثمان وقرأه على الناس فرضوا به ورفع أبو بكر يديه وقال اللهم إنى لم أرد بذلك إلا إصلاحهم وخفت عليهم الفتنة فوليت عليهم خيارهم وقد حضرنى من امرك ماحضرنى فاخلفنى فيهم وهم عبادك ونواصيهم بيدك فأصلح لهم خليفتهم

واجعله من خلفائك الراشدين وأصلح له رعيته إنك على كل شيء قدير وبالاجابة جدير

وكانت وفاته رضى الله عنه فى ثلاث عشرة من شهر جمادى الآخرة فى السنة الثالثة عشرة من الهجرة ومدة خلافته سنتان وثلاثة أشهر وعشرة أيام وعمره ثلاث وستون سنة ودفن بجوار رسول الله ﷺ ولما توفى وبلغ ذلك الخبر على بن أبى طالب جاء باكيا مسترجعا وقال يرحمك الله يا أبا بكر لقد كنت أول القوم إسلاما وأشدهم يقينا واحفظهم على رسول الله وأحدهم على الإسلام وأحماهم على أهله وانسبهم برسول الله خلقا وخلقا وهديا فجزاك الله عن الاسلام خيرا وعن الرسول خيرا صدقته حين كذبه الناس وواسيته حين بخلوا بمالهم وقمت معه حين تعدوا وسماك الله فى كتابه صديقا قال تعالى « والذى جاء بالصدق وصدق به وكنت والله للإسلام حاضا وللكفر ناكسا لم تغمض عينيك ولم تضعف بصيرتك ولم تجبن نفسك كنت كالجبل لاتحركه العواصف ولاتزيله القواصف كنت كما قال رسول الله ﷺ ضعيفا فى بدنك قويا فى دينك متواضعا فى نفسك عظيما عند الله جليلا فى الأرض كبيرا عند المؤمنين لم يكن لأحد عندك مطمع فالضعيف عندك قوى والقوى عندك ضعيف حتى تأخذ الحق من القوى للضعيف لاحرمنا الله أجرك ولا أضلنا بعدك . وفضائله رضى الله تعالى عنه شهيرة ومآثره كثيرة وكفاه فضلا قول النبى ﷺ أفضل من طلعت عليه الشمس بعد النبيين أبو بكر وقوله عليه الصلاة والسلام لو وزن إيمان أبى بكر بإيمان هذه الأمة لرجح إيمان أبى بكر إلى غير ذلك من الاحاديث الكثيرة والاثار الشهيرة التى تقدمت فى خلافته رضى الله عنه

خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه

عمر بن الخطاب رضى الله عنه هو الخليفة الثانى بعد النبى ﷺ بويع بالخلافة فى اليوم الذى توفى فيه أبو بكر رضى الله عنه ولقب بأمير المؤمنين فرارا من قولهم خليفة خليفة رسول الله

أعماله رضى الله عنه

أول عمل بدأ به أنه رد سبايا أهل الردة إلى عشائرهم ولما تم له أمر الخلافة أرسل إلى أبى عبيدة يخبره بوفاة أبى بكر وولاه على الشام والجند وعزل خالد ابن الوليد وكان خالد ومن معه فتحوا مرج الصفر وكانوا على حصار دمشق ثم ان صاحبها طلب الصلح فدخل أبو عبيدة من باب بالأمان حينما دخل خالد عنوة من الجهة الأخرى وكان فتحها فى السنة الرابعة عشرة ولما تملك المسلمون المدينة نزح كثير من أهلها بأموالهم وأهليهم صحبة البطريق توما وكان ذلك على غير رغبة خالد وقال الواقدى إن خالد بن الوليد صالحهم وكتب للأسقف كتابا بالصلح وأعطاهم الأمان فأجاز ذلك أبو عبيدة لما تولى بدلا عنه

ووجه أبو عبيدة عمرو بن العاص إلى الأردن ففتحها وفتح فلسطين عنوة وفى السنة الخامسة عشرة فتحت بعلبك وغيرها من المدن على يد خالد وحوصرت حمص فطلب أهلها الصلح وبث أبو عبيدة عماله فى نواحى حمص وفتح اللاذقية وجبلة وانقرسوس.

ولما رأى هرقل تقدم العرب السريع سير ثمانين ألفا إلى أنطاكية وقيسارية وكان جبلة بن الأيهم الغسانى على مقدمة جيوش الروم وفى جيش من قومه يبلغ عشرين ألف مقاتل واجتمع كثير من جموع أهل الشام للمدافعة عن أوطانهم.

ولما علم أبو عبيدة بهذه الجموع رجع إلى دمشق وكتب بذلك إلى عمر فأمده بثمانية ألف مقاتل فهزموا الروم شر هزيمة ثم توجه أبو عبيدة إلى بيت المقدس فحاصرها أربعة أشهر فطلب بطريقها صوفارينيوس من أبي عبيدة أن يكون الخليفة هو المصالح له فأخذ عليهم المواثيق بذلك وكتب إلى عمر فخرج من المدينة ولما وصل إلى دمشق نزل الجابية من أرضها وجعل خالدا على مقدمته وأدناه منه وأمره ثم سار إلى بيت المقدس ففتحها صلحا وكتب لهم بذلك كتابا هذه صورته

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب كتبه عمر بن الخطاب لأهل بيت المقدس إنكم آمنون على دمائكم وأموالكم وكنائسكم لاتسكن ولا تخرب إلا أن أحدثكم حدثا عاما وأشهد شهودا عليه ثم إنه دخل المدينة وزار كنيسة القمامة وأقام عشرة أيام ألقى في أثنائها أساس مسجد على شكل هيكل سليمان عليه السلام وهو المسمى بمسجد عمر وكان ذلك سنة ست عشرة وفي سنة سبع عشرة حج عمر بالناس وعمر المسجد الحرام وزاد فيه (وفيها) حصل قحط بالمدينة وصارت القواد ترسل الأقوات إليها ثم خف الضيق وكان قوم قد أرادوا احتكار الأقوات فنهاهم عمر عن ذلك.

وبعد فتح بيت المقدس انقسمت عساكر الاسلام إلى قسمين قسم بقي في فلسطين صحبة عمرو بن العاص والآخر وهو الأكبر ذهب إلى أنطاكية وطلب صحبة أبو عبيدة وخالد وقاسوا أهوالا شديدة في حصار حلب ثم استولى المسلمون عليها بعد حصارها خمسة أشهر ماعدا قلعتها وكان بها بطريق شجاع ذو مكانة عالية في الدولة الرومانية فأراد أبو عبيدة تركها فلم يرض عمر بذلك وبقيت محاصرة إلى أن فتحت على يد دامس الشجاع من موالي ملوك كندة وفتحوا أيضا معرة مصرين وقنسرين ثم فتحوا أنطاكية صلحا بعد قتال قليل وكانت مدينة عظيمة اتخذها الاسكندر مقرا له وكذا خلفاء ملوك الروم بالمشرق وكان بها نحو سبعمائة نفس

داخل السور وكان فتحها سنة ثمانية عشرة هجرية وفتحت قيسارية أم ولايات قسطنطين الثلاث وكان على حصارها معاوية بن أبي سفيان وكان بها وقت الحصار قسطنطين بن هرقل ومعه أربعون ألفا من الجنود فر إلى القسطنطينية وترك هرقل بلاد سوريا كلها للعرب لما رأى بطشهم وقوتهم وعلم أنهم قوم لايغلبون. وبعد أن تملك العرب لبنان استولوا على طرابلس وصور بغاية السهولة ووجدوا فى مرساهما خمسين سفينة محملة ذخائر وأقواتا وأموالا كثيرة كانت للروم وصارت غزة وعسقلان والرملة ونابلس وعكا وصيدا للعرب ودخلت سورية بأجمعها فى قبضة المسلمين وفى ثمانية عشرة هجرية أيضا حصل طاعون عمواس ومات به من المسلمين خمس وعشرون ألفا ومات به أبو عبيدة رضى الله عنه وكان عمر بن الخطاب قد حضر إلى الشام عند منصرفه من الحج فلما بلغه تزايد الطاعون رجع وكلمه أبو عبيدة بقوله فرارا من قدر الله ياعمر قال نعم أفر من قدر الله ومات خالد بعد أبى عبيدة بثلاث سنين وكان من أشجع القواد وأشهرهم .

ومن تأمل فتح المسلمين لبلاد الشام جميعها فى ست سنين أخذه العجب والاندهاش مع أن تلك البلاد كانت تابعة لدولة الروم القوية البطش العريقة فى الحضارة وكانت جميع مدنها مملوءة بآلات الدفاع غاية فى المنعة وبذلك يرد على من قال إن العرب إنما أخضعت الأمم التى لامدنية لها ولا استعداد عندها

افتتاح بلاد الفرس وغيرها

لم تكن العرب تكتفى بفتح بلاد الشام وحدها فانه بينما كانت جيوشهم تتقدم منصورة ببلاد سوريا وفلسطين كانت لهم كذلك عدة جيوش ببلاد الفرس والعراق والجزيرة لأن عمر رضى الله عنه لما جلس على كرسى الخلافة أرسل سعد بن أبى وقاص للحرب على الفرس ثلاثين ألف جندى وسار حتى نزل

بسهول القادسية بجوار المكان الذى شيدت فيه مدينة الكوفة واقتتل مع الفرس قتالا شديدا عدة أيام وكانت جيوشهم تزيد عن مئة ألف جندى تحت قيادة رستم أحد مشاهير قوادهم وكان ذلك فى عهد يزدجرد بن ابرويس فصدم المسلمون الفرس فى اليوم الرابع وكانت الريح شديدة وعشى الغبار أعين الفرس فتشتتوا وقبض على رستم قائدهم أثناء فراره وقتل ومات من الفرس فى هذه الوقائع نحو أربعين ألفا ومن العرب ثمانية آلاف وجرح مثلهم وكان ذلك فى سنة خمس عشرة هجرية ووقع تاج كسرى ومنطقته ودرعه فى يد العرب وكانت مكللة بالجواهر واستولوا على بساطه وكان طوله ستين ذراعا فى مثلها وكان على هيئة روضة رسمت عليها الزهور وأنواع الطير بالجواهر على قضبان من الذهب فبعث به سعد إلى الخليفة عمر ففرقه على المسلمين وأصاب على بن أبى طالب منه قطعه باعها بعشرين ألف درهم .

ثم وقعت بلاد العراق كلها أى أرض الأشوريين فى يد العرب ورسموا هناك مدينة البصرة عند ملتقى الدجله والفرات ثم قطع سعد الفرات وتملك المدائن وكانت عاصمة الفرس وكانت من أعظم مدن العالم ولم يبق منها الآن شىء إلا قبو قائم فى الصحراء وتقدم جيوش المسلمين نحو جلولا وكان بها يزدجرد ملك العجم فرحل عنها وأخذها المسلمون وفتح المسلمون أيضا تكريب والموصل والأهواز فى السنة السابعة عشرة من الهجرة واختطوا مدينه الكوفة وتحول سعد إليها ووجد بالمدينة أموالا لا تحصى كثيرة وبعد أن استولى العرب على بلاد العجم لم يبق بينهم وبين بلاد الترك غير نهر جيحون فعبروه وفتحوا ماوراءه من بلاد الترك وقصد بعض قوادهم بلاد الهند واخضعوا سواحلها وكان عتبة ابن عزوان يغزو البلاد التى بين جيحون وشط العرب ودخلت بخارى وسمرقند وغيرهما فى الاسلام واستمر المسلمون يفتحون ويتقدمون ببلاد الفرس

تحت قيادة عمار بن ياسر حتى تقابل بيلاد نهاوند مع جيش الفرس نحو مائة وخمسين الف جندى فهزمه المسلمون شر هزيمة وكان ذلك سنة ٢١ هجرية وفيها أيضاً فتحت أصفهان وهمزان وتوفى خالدبن الوليد رضى الله عنه.

وفى سنة اثنتين وعشرين هجرية فتحت أرزوبجان والرى وجرجان وقزوين وطبرستان وغزا الأحنف بن قيس خراسان وحارب يزدجرد وافتتح هراة عنوة ومع هذا كله فأن يزدجرد لم تزل فيه روح الأمل فى استرجاع دولته ولذلك قد طلب المساعدة من ملك الترك وملك الصين فأمداه ومع ذلك فان جيوش العرب قد هزمته فلم يجد له سبيلا إلى كونه ولى مدبراً بمن معه من خواصه وبقى إلى أن قتله أحدهم عند نهر مرغاب وبموته انتهت دولة آل ساسان وكانت هذه الفتوحات الكثيرة فى المدة القصيرة تعد من خوارق العادات ومن الغرابة بمكان فما أعجل من هذه الفتوحات حتى قال بعض المؤرخين من الأفرنج ما نظرت عين ولا سمعت أذن بأسرع براح وأعجل نجاح من فتوح هؤلاء العرب البلاد فقد فتحوا أولا بلاد الشام ثم فلسطين ومصر وأفريقية ثم تغلبوا على مملكة فارس فى أقرب وقت وأسرع حركة ولا يحمل ذلك على مجرد ما أشربت به قلوبهم من الحمية الدينية والشجاعة العربية بل أنهم كانوا من قديم الزمان معروفين بين الأمم بأنهم أمهر من حمل السلاح واعتقل الرماح من أهل الأرض جميعاً.

فتوح مصر وافريقية من سنة ثمانية عشرة الى عشرين هجرية

لما رأى هرقل ما حل بسورية وغيرها من ممالكه خاف على ما بقى منها ولا سيما مصر فعقد بينه وبين الخليفة عمر رضى الله عنه معاهدة مضمونها أنه يدفع جزية سنوية معلومة فى أوقات معينة من السنة فى مقابل ترك المسلمين مصر له ولما لم تكن هذه الجزية تدفع فى أوقاتها وبالقدر المعين أعتبر الخليفة تلك

المعاهدة ملغاة .

وكان عمرو بن العاص يرغب الخليفة فى فتحها كثيرا ويقول له أنك إذا افتتحت مصر كانت عوناً للمسلمين وقوة لهم وهى أكثر الأرض أموالا وأعجز عن القتال .

ولم يزل به حتى رضى وذلك لأن عمرو بن العاص كان قد حضر إلى مصر فى وقت الجاهلية وبشر بأنه يكون ملكا عليها فى حكاية مشهورة حكاها السيوطى فى كتابه المسمى بحسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة قال لما كانت سنة ثمانية عشرة وقدم عمر بن الخطاب إلى الجابيه خلا به عمرو بن العاص ورغبه فى فتح مصر لأنه قد كان حضر إلى الشام أيام الجاهليه فى تجارة فى الابل مع نفر من قريش وإذا بشماس كان قد قدم من مصر من شمامسة الروم من أهل الأسكندرية ليصلى فى بيت المقدس فخرج فى بعض جبالها يسبح وكان عمرو ابن العاص يرعى ابله وإبل أصحابه وكانت رعية الابل نوبا بينهم ، فبينما عمرو يرعى إذ مر به ذلك الشماس وقد أصابه ظمأ شديد فى يوم شديد الحر فوقف على عمرو واستسقاه فسقاه من قربة له فشرب حتى روى ثم نام الشماس فى مكانه وكان إلى جانب الشماس حفرة فخرجت منها حية عظيمة فبصربها عمرو فقتلها فلما استيقظ الشماس نظر إلى الحية العظيمة التى نجاه الله منها بسبب عمرو فأقبل إلى عمرو وقبل رأسه وقال قد أحيانى الله بك مرتين مرة من شدة العطش ومرة من هذه الحية فما أقدمك هذه البلاد قال قدمت مع أصحاب لى نطلب الفضل من تجارتنا فقال له الشماس وكم ترجو أن تصيب من تجارتك قال رجائى أن أصيب ما أشترى به بعيرا فانى لا أملك إلا بعيرين فأملى أن أصيب بعيرا آخر فيكون لى ثلاثة أبعرة فقال له الشماس أرأيت لدية أحدكم بينكم كم هى قال مائة من الابل فقال له الشماس أصحاب إبل نحن أصحاب دنانير قال عمرو نكون

ألف دينار فقال له الشماس انى رجل غريب فى هذه البلاد وإنما قدمت أصلى فى كنيسة بيت المقدس وقد قضيت ذلك وانى أريد الرجوع إلى بلادى فهل لك أن تتبعنى إلى بلادى ولك عهد الله أن أعطيك ديتين لأن الله تعالى أحيانى بك مرتين فقال له عمرو أين بلادك قال مصر فى مدينة يقال لها الاسكندرية فقال له عمرو أنا لا أعرفها ولم أدخلها قط فقال الشماس لو دخلتها لعلمت أنك لم تدخل قط مثلها فقال له عمرو وتفى لى بما تقول وعليك العهد والميثاق فقال له الشماس نعم إنى أوفى لك وأردك إلى أصحابك فقال له عمرو كم يكون مكثى فى ذلك قال شهر تنطلق معى ذاهبا عشرا وتقيم عندنا عشرا وترجع فى عشر ولك على أن أحفظك ذاهبا وأبعث معك من يحفظك راجعا فقال له عمرو انظرنى حتى أشاور أصحابى فانطلق عمرو إلى أصحابه فأخبرهم بما عاهده عليه الشماس وقال لا تخرجوا وأقيموا حتى أرجع إليكم ولكم على العهد أن أعطيكم شطر ذلك على أن يصحبنى منكم رجل آنس به فأجابوه وبعثوا معه رجلا منهم .

فانطلق عمرو وصاحبه مع الشماس إلى مصر حتى انتهى إلى الاسكندرية فرأى من عمارتها وكثرة أهلها وما بها من الأموال ما أعجبه وقال ما رأيت مثل مصر قط .

ووافق دخول عمرو بن العاص الاسكندرية يوم عيد عظيم يجتمع فيه ملوكهم وأشرافهم ولهم كرة من ذهب مكللة يترامى بها ملوكهم وعظماؤهم وأبناء ملوكهم ويتلقونها بأكمامهم وفيما أخبروا عن تلك الكرة أن من وقعت فى كمه لم يمت حتى يملكهم فأقبلت تهوى حتى وقعت فى كم عمرو فتعجبوا من ذلك وقالوا ما كذبتنا هذه الكرة قط إلا هذه المرة ، أترى أن هذا الاعرابى يملكنا هذا لا يكون أبدا وإن الشماس قد خفضهم حتى انصرفوا عن عمرو وأعلمهم أنه أحياه مرتين وأنه قد ضمن له ألفى دينار وسألهم أن يجمعوا له ذلك فيما بينهم

ففعلوا ودفعوها إلى عمرو وبشره بأن هذه الكرة لم تكذب أبدا فأخذ عمرو العجب واستغرب كيف يكون له ذلك؟ ثم انطلق عمرو وصاحبه وبعث معهما الشماس دليلا ورسولا وزودهما وأكرمهما حتى رجع عمرو ومن معه إلى أصحابه فبذلك عرف عمرو مدخل مصر ومخرجها ورأى منها ما علم أنها من أفضل البلاد وأكثرها مالا ولما رجع إلى أصحابه دفع إليهم فيما بينهم ألف دينار وأمسك لنفسه ألفا فكان ذلك أول ما تأمله ولما أكرمه الله بالاسلام وفتح على يديه كثيرا من أرض الشام مالت نفسه إلى فتح مصر ورجاء أن يتحقق له وقوع الكرة فى كمه مع ما صح من قول النبي ﷺ ستفتح عليكم بعدى مصر فاستوصوا بقبطها خيرا فان لكم منهم صهرا وذمة .

ولم يزل بالخليفة حتى اذن له بالمسير وقال له سر وإنى مستخير الله فى سيرك وسيأتى إليك كتابى سريعا إن شاء الله تعالى فان أدركك وكنت قد دخلت مصر أو شيئا من أرضها فانصرف عنها . فسار فى جوف الليل ومعه أربعة آلاف ممن رغب التوجه معهم إلى فتحها ولم يشعر به أحد من الناس حتى وصل رفح (قرية قريبة من العريش) فأدركه رسول الخليفة فتخوف عمرو إن هو أخذ الكتاب وفتحه ان يجد فيه الانصراف كما عهد إليه عمر فلم يأخذ الكتاب من الرسول وصار يحاوله حتى أمسى فسأل أين نحن فقيل بالعريش فقال وفى أى أرض هى فقيل له فى أرض مصر فحمد الله وأمر بالميت وتناول الكتاب حينئذ وقرأه ولما أصبح الصباح تلاه على الحاضرين بصوت عال وهو: (بسم الله الرحمن الرحيم من الخليفة عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص عليه سلام الله وبركاته أما بعد فان أدركك هذا وأنت لم تدخل مصر فارجع عنها وإن أدركك وقد دخلتها أو شيئا من أرضها فامض لوجهك واستنصر الله بنصرك واعلم أنى ممدك) ثم قال عمرو

هلموا بنا إلى طاعة أمير المؤمنين وكان جيشه يزداد بمن ينضم إليه من العرب اثناء سيره وأول مدينة قاتل فيها هى مدينة الفرما قاتلت الروم قتالا شديدا نحو شهر ثم فتحها الله عليه وكان على ميمنة عسكره عبد الله بن سعد منذ خروجه من قيسرية إلى أن قرب من أرض مصر ثم سار عمرو بن العاص ولم يكن يدافع إلا بالأمر الخفيف حتى أتى مدينة بلبيس فحاصرها نحو شهر ثم فتحها وكان بها بنت المقوقس أرمانوسة . ولما استولى على المدينة سيرها إلى أبيها معززة استجلابا لوده ففرح أبوها بذلك غاية الفرح ، ثم ثار عمرو ومازال يسير حتى مر بجانب المقطم فاشرف على حصن بابل أو باب اليوق على ضفة النيل الشرقية ومكانه الآن مكان قصر الشمع وكان حصنا حصينا يزيده النيل منعة وأمامه جزيرة الروضة وبينهما جسر من الخشب فأمر عمرو بنصب الخيام فيما بين الحصن والمقطم وكان فى ذلك الحصن جنود الروم وقد تأهبوا للدفاع ومعهم المقوقس وكان عاملا من قبل الروم على مصر العليا واتخذ هذا الحصن مركزا للدفاع

واستمر عمرو فى المهاجمة فأبطأ عليه الفتح فكتب إلى الخليفة يستمده فأمده بأربعة آلاف عليهم أربعة من كبار القوادوهم

المقداد بن الأسود والزبير بن العوام وعبادة بن الصامت ومسلمة بن مخلد وقيل الرابع هو خارجة بن حذافه ومعهم كتاب من الخليفة يقول فيه قد انفذت إليك أربعة آلاف على كل ألف منهم رجل مقام ألف فصار معك إثنا عشر ألفا (لأنه كان قد أمده بأربعة آلاف أخرى بعد فتح بلبيس) ولا تغلب اثنا عشر ألفا من قلة وكان الروم قد خندقوا عليهم وألقوا بالخندق حسك الحديد فصارت العرب تهاجم الأعداء حتى اضطروهم إلى الالتجاء لداخل الحصن وصارت العرب محيطة بهم من ثلاث جهات واستمر الرمى بالسهام مدة وشدد المسلمون الحصار وسلطوا المنجانيق على الحصن وتخابروا مع المحصورين فى التسليم ويقال

إن المقوقس كان ممن يريدون الصلح إلا أنه ليس من وظيفته الاستقلال بذلك بدون مشاورة الروم لأن الاقباط كانوا يكرهون الروم لما هو حاصل بينهما من المنافسة الدينية والخلافات المذهبية ولما تضايق المحصورون تركوا الحصن وعبروا البحر ليلا وابقوا من يقوم فيه لحفظه حتى ينظروا لهم أمرا بدون علم العرب بذلك ، ولما أبطأ الفتح قال الزبير بن العوام إنى أهب نفسى لله وأرجو أن يفتح الله علينا ووضع سلما إلى جانب الحصن وصعد عليه وتبعه القوم حتى كاد السلم أن ينكسر من كثرة الناس عليه فعند ذلك هرب من كان باقيا به من عظماء القبط والروم والجند واستولى المسلمون عليه وكان مكثهم على أبوابه حتى فتحوه سبعة أشهر وقيل غير ذلك وفر من فر ولجئوا إلى مدينة منف وكانت عاصمة مصر العليا وكسروا بعد مرورهم الجسر الخشبي الذى بين الروضة والضفة الغربية وأرسل المقوقس كتابا إلى عمرو يهدده فيه ويخوفه بأسر الروم له وانهم تجهزوا لقتاله بالعدة والسلاح وينصحه بالرجوع إلى بلاده فأرسل عمرو إلى المقوقس كتابا يقول فيه إنا لانقبل إلا إحدى ثلاث الإسلام أو الجزية أو القتال حتى يحكم الله ثم إن المقوقس أرسل يطلب من عمر رسلا ليتخابروا فى أمر الصلح فأرسل عمرو عشرة رجال أحدهم عبادة بن الصامت وكان هائل المنظر أسود اللون وجعله متكلم النوم وبعد أن تكلم مع المقوقس بفصاحة تامة وأظهر له مطلوبه رجع مع أصحابه بعد جدال طويل مع المقوقس كانت نهايته أن رضى بدفع الجزية هو وأصحابه حيث لامقدرة لهم على رد العرب. ثم اجتمع المقوقس مع عمرو فى مكان معين لأمضاء شروط الصلح ومضمونها الأمان لاهل مصر على أنفسهم وعيالهم وأموالهم وكافة متعلقاتهم وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية إذا اجمعوا رأيهم على هذا الصلح وانتهت زيادة نهرهم وكذلك من دخل فى صلحهم من الروم ومن أبى واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه

وأنهم لايمنعون من تجارة صادرة أو واردة إلى آخر العهد ولماتم الصلح كتب المقوقس إلى ملك الروم يعلمه فلم يقبل وكتب إليه يقبح رأيه ويقول إن ماأتاك من العرب اثنا عشر ألفا وبمصر من القبط مالايحصى فإن كان القبط قد فضلوا العرب علينا أو كرهوا قتالهم فإن عندك بمصر والأسكندرية من الروم أكثر من مائة ألف

وكتب ملك الروم بمثل ذلك كتابا لمن بمصر من الروم

أما المقوقس فلم يرض أن ينقض عهده وأخبر عمراً بذلك قائلا إنى نصحت لهم فاستغشونى فلا تجيبهم إلى ماأجبتنى إليه وإنما سلطانى على نفسى وعلى من أطاعنى وتم صلح القبط بذلك وكتب عمرو للخليفة بذلك الصلح فأجابه منشطا له وسأله أن يصف له مصر ثم سار عمرو إلى الأسكندرية للاستيلاء عليها وكانت فى غاية المنعة والتحصين ومحوطة بالبحر وبحيرة مريوط

قال بعض المؤرخين وكانت العرب تهجم على السور والقلاع هجوما غريبا مارؤى مثله وكان عمرو يعرض نفسه للخطر مرارا حتى دخل هذه المدينة مرة فى إحدى هجماته ولولا ذكاء خادمه لقتله حاكمها ،وبعد حصارها أربعة عشر شهراً وفقد عدد عظيم منهم استولوا عليها سنة ٢٠ هجرية الموافق لسنة ٦٤٠ م ولما فتحت الاسكندرية أرسل عمرو إلى الخليفة يقول له لقد فتحت مدينة المغرب العظيمة ولا يقدر على تعداد مافيها من الأموال أحد وبالاختصار فإنها تحتوى على أربعة آلاف حمام وأربعمائة ملهى واثنى عشر الف يهودى يؤدون الجزية وإنها فتحت عنوة دون شروط

فأرسل له عمر رضى الله عنه بمنع النهب والسلب وبأن تؤخذ الجزية وبعد هذا بقليل مات هرقل وقيل إنه مات غما وهاج شعب القسطنطينية لانقطاع الأقوات التى كانت ترد عليهم من الأسكندرية وحكم المجلس بتجديد الحرب

على العرب وأرسلوا لذلك الغرض جيوشا كثيرة فلم يتمكنوا من شيء وطردوا بعد إن ألمت بهم خسائر كثيرة ولما فتحت الاسكندرية كان لم يزل بها بعض بقايا دار كتب قديمة يزعم بعض المؤرخين أن عمراً أحرقها بأمر الخليفة وهذا خطأ فان حرق الكتب كان عند محاصرة يوليوس قيصر لها مدة البطالسة.

ولما تم الأمر لعمرو بمصر أجرى فيها مناهل العدل ورفع المكوس والمظالم ووصل النيل بالبحر الأحمر تسهيلا لنقل البضائع إلى بلاد العرب.

ولما عاد عمرو من الاسكندرية بنى مدينة الفسطاط وجعلها عاصمة الديار المصرية وبنى بها مسجده المعروف باسمه الى الآن وسبب تسميتها بذلك أن عمراً لما أراد التوجه لفتح الاسكندرية أمر برفع خيمه أى فسطاطه فأخبر أنه باضت فيه يمامة وأفرخت فأمر بتركها إكراما لها وأبقى من ليس له قدرة على القتال من جنوده عنده ولما فتح الله الاسكندرية على يديه ورجعوا منها إلى مصر قالت له جنوده فى أى جهة تنزل قال حيث تركت الفسطاط فنزلوا هناك وبنوا بها دورهم ولم تزل تزداد حتى صارت مدينة عظيمة وسميت بالفسطاط لذلك وتعرف الآن بمصر القديمة.

وكانت للقبط عادة سيئة وهى أنهم كانوا يرمون كل سنة عروسة مزينة بالحلى من أبنائهم ويعتقدون أن النيل لاتتم زيادته الا بذلك فلما جاء وقت زيادته تأخر عنها وهموا بالرحيل وأخبروا عمرا بذلك فقال إن هذه عادة سيئة لايصح أن تكون فى الاسلام وأخبر الخليفة بذلك فكتب الخليفة لعمرو جوابا وأمره أن يلقيه فى النيل إذا حضر إليه وهو: من عمر بن الخطاب إلى نيل مصر المبارك أما بعد: فإن كنت تجرى بأمرك فلا تجر وإن كان الله الواحد القهار هو الذى يجريك فأجر بأذن الله الواحد القهار فلما وضع فى النيل فى يوم مشهود جرى بأكثر مايكون فى غالب السنين بقدرة الله تعالى وبركة أمير المؤمنين عمر رضى

الله عنه وأبطلت هذه العادة السيئة من هذا الوقت وبقيت مصر من ذلك الحين تخفق عليها راية الاسلام ويرسل إليها الخلفاء العمال من قبلهم إلى أن ضعفت شوكتهم لفقدهم العصبية العربية وتمليكهم المماليك فى جميع أنحاء الدولة فخلعوا طاعة الخلفاء وقام كل واحد يدعو نفسه سلطانا ومنعوا دفع الخراج إلى الخلفاء فابن طباطبا تغلب على حلب وابن بويه تغلب على فارس وأحمد بن طولون تغلب على مصر .

فتح برقة وطرابلس الغرب

ولما تم لعمرو بن العاص فتح مصر والاسكندرية سار إلى برقة فصالحه أهلها وتقدم إلى طرابلس الغرب وفتحها عنوة .

﴿ فصل ﴾

فى موافقة عمر رضى الله عنه للقرآن الشريف فى مواضع كثيرة

قد أوصلها بعضهم إلى أكثر من عشرين . إخراج ابن مردويه عن مجاهد قال كان عمر يرى الرأى فينزل به القرآن، وأخرج ابن عساكر عن على قال إن فى القرآن لرأيا من رأى عمر وأخرج عن ابن عمر مرفوعا ماقال الناس فى شىء وقال فيه عمر إلا جاء القرآن بنحو مايقول عمر وأخرج الشيخان عن عمر قال وافقت ربى فى ثلاث قلت يارسول الله لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى فنزلت «واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى» وقلت يارسول الله يدخل على نسائك البر والفاجر فلو أمرتهن يحتجبن فنزلت آية الحجاب واجتمع نساء النبى ﷺ فى الغيرة فقلت عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن فنزلت كذلك وأخرج مسلم عن عمر قال وافقت ربى فى ثلاث فى الحجاب وفى أسارى بدر وفى مقام إبراهيم، ففى هذا الحديث خصلة رابعة وفى التهذيب للنووى نزل القرآن بموافقته

فى أسرى بدروفى الحجاب وفى مقام ابراهيم وفى تحريم الخمر فزاد خصلة خامسة وحديثها فى السنن ومستدرك الحاكم أنه قال اللهم بين لنا فى الخمر بيانا شافيا فانزل الله تحريمها وأخرج ابن أبى حاتم فى تفسيره عن أنس قال قال عمر وافقت ربى فى أربع نزلت هذه الآية « ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين » الآية فلما نزلت قلت أنا فتبارك الله أحسن الخالقين فنزلت فتبارك الله أحسن الخالقين فزاد فى هذا الحديث خصلة سادسة وللحديث طريق آخر عن ابن عباس أوردته فى التفسير المسند، ثم رأيت فى كتاب فضائل الأمامين لأبى عبد الله الشيبانى قال وافق عمر ربه فى أحد وعشرين موضع فذكر هذه الستة وزاد سابعا قصة عبد الله بن ابى قلت حديثها فى الصحيح عنه قال لما توفى عبد الله بن أبى دعا رسول الله ﷺ للصلاة عليه فقام إليه فقمت حتى وقفت فى صدره فقلت يارسول الله أو على عدو الله ابن أبى القائل يوم كذا وكذا فوالله ما كان إلا يسيرا حتى نزلت ولا تصل على أحد منهم مات أبدا وثامنا يسئلونك عن الخمر الآية وتاسعا يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة الآية قلت هما مع آية المائدة خصلة واحدة والثلاثة فى الحديث السابق، وعاشرا لما أكثر رسول الله ﷺ من الاستغفار لقوم قال عمر سواء عليهم فانزل الله «سواء عليهم أستغفرت لهم» الآية قلت أخرجه الطبرانى عن ابن عباس الحادى عشر لما استشار ﷺ الصحابة فى الخروج الى بدر أشار عمر بالخروج فنزلت كما أخرجك ربك من بيتك بالحق الاية الثانى عشر لما استشار الصحابة فى قصة الأفك قال عمر من زوجكها يارسول الله قال الله قال أفتظن أن ربك دلس عليك فيها سبحانك هذا بهتان عظيم فنزلت كذلك الثالث عشر قصته فى الصيام لما جامع زوجته بعد الانتباه وكان ذلك محرما فى أول الاسلام فنزل أحل لكم ليلة الصيام الآية قلت أخرجه أحمد فى مسنده الرابع عشر قوله تعالى من كان

عدوا لجبريل الآية قلت أخرجه ابن جرير وغيره من طرق عدة وأقربها للموافقة ما أخرجه ابن أبي حاتم عن عبد الرحمن عن أبي ليلى أن يهودياً لقي عمر فقال إن جبريل الذى يذكر صاحبكم عدو لنا فقال له عمر من كان عدو الله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فان الله عدو للكافرين فنزلت على لسان عمر. الخامس عشر قوله تعالى فلا وربك لا يؤمنون الآية قلت أخرج قصتها ابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي الأسود قال اختصم رجلان إلى النبي ﷺ فقضى بينهما فقال الذى قضى عليه ردنا إلى عمر بن الخطاب فأتيا إليه فقال الرجل قضى لي رسول الله ﷺ على هذا فقال ردنا إلى عمر فقال أكذاك قال نعم فقال عمر مكانكما حتى أخرج اليكما فخرج إليهما مشتملا على سيفه فضرب الذى قال ردنا إلى عمر فقتله وأدبر الآخر فقال يارسول الله قتل عمر والله صاحبي فقال ما كنت أظن أن يجترىء عمر على قتل مؤمن فأنزل الله فلا وربك لا يؤمنون الآية فأهدر دم الرجل وبرىء عمر من قتله وله شاهد موصول أوردته فى التفسير المسند السادس عشر الاستئذان فى الدخول وذلك أنه دخل عليه غلامه وكان نائما فقال اللهم حرم الدخول فنزلت آية الاستئذان — السابع عشر قوله فى اليهود أنهم قوم بهت الثامن عشر قوله تعالى ثلة من الأولين وثلة من الآخرين قلت أخرج قصتها ابن عساكر فى تاريخه عن جابر بن عبد الله وهى فى أسباب النزول التاسع عشر رفع تلاوة الشيخ والشيخة إذا زنيا الآية - العشرون قوله يوم أحد لما قال أبو سفيان أفى القوم فلان لا تجيبه فوافقه رسول الله ﷺ قلت أخرج قصته أحمد فى مسنده قال ويضم إلى هذا ما أخرجه عثمان بن سعيد الدارمى فى كتاب الرد على الجهمية من طريق ابن شهاب عن سالم بن عبد الله أن كعب الأحبار قال ويل لملك الأرض من ملك السماء فقال عمر إلا من حاسب نفسه فقال كعب والله الذى نفسى بيده إنها فى التوراة

لتابعتها نخر عمر ساجدا ثم رأيت فى الكامل لابن عدى من طريق عبد الله بن نافع وهو ضعيف عن أبيه عن ابن عمران بلالا كان يقول إذا أذن أشهد أن لا إله إلا الله حى على الصلاة فقال عمر قل فى أثرها أشهد أن محمد رسول الله فقال ﷺ قل كما قال عمر

فى صفات عمر رضى الله عنه

كان عمر رضى الله تعالى عنه صاحب فضل وزهد وعدل وشفقة على الناس وكان كريما محسناً للفقراء. وهو أول من لقب بأمير المؤمنين كما تقدم وهو أول من أرخ بالسنة الهجرية على المشهور وأول من عس بالليل ودون الدواوين واستقضى القضاة وفضائله رضى الله عنه أكثر من أن تحصر وفى عهده اتسع نطاق الاسلام وخضعت الفجرة اللئام وقويت شوكته. بما فتحه من الجهات الكثيرة حتى سامى السماء رفعه وكانت خلافته رضى الله عنه زهرة تاريخ الاسلام حتى قال بعض المؤرخين إن العرب قد افتتحوا فى مدته ستة وثلاثين ألف مكان ما بين مدن وقرى وقلاع وحصون وهدموا أربعة آلاف هيكل واقاموا الفين ومئتى جامع وكان من أعظم أهل السياسة وأحكم رجال الرياسة والكياسة وكان رضى الله تعالى عنه يحب استدامة العمل ومن وصاياه التنبيه على الناس وقت السلم باتباع إحدى الحرف الثلاث وهى الزراعة والتجارة والصناعة ويروى عنه أنه مر على قوم وجدهم جلوسا بفناء الكعبة لا عمل لهم فعلاهم بالدرة التى بيده وقال اعملوا فإن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة وكانت وفاته يوم السبت سلخ ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين هجرية ومات رضى الله عنه شهيدا من أبى لؤلؤة فيروز عبد المغيرة بن شعبة وكانت مدة خلافته عشر سنين وستة أشهر وثمانية أيام واختلف فى سنه.

ودفن عند النبي ﷺ وأبى بكر رضى الله عنهما وعهد بالخلافة إلى النفر

الذين مات رسول الله ﷺ وهو راض عنهم وهم على وعثمان وطلحة والزبير وسعد وبعد أن عرضها على عبد الرحمن ابن عوف فلم يقبل ووردت فى فضله رضى الله عنه أحاديث كثيرة قد ذكرت غالبها تاركا ذكر الرواة تسهيلا واختصارا منها قوله ﷺ اللهم أعز الاسلام بأحد هذين الرجلين اليك يريد عمر بن الخطاب أو أبا جهل فدخل عمر الاسلام فكان هو أحب الرجلين إلى الله تعالى ومنها قوله اللهم اجعل الحق على لسان عمر وفى قلبه فاستجاب الله دعاءه فى ذلك ومنها قوله إن الشيطان لم يلق عمر بوجه بعد أن أسلم إلى آخر عمره ومنها قوله إن الله يباهى ملائكته فى السماء للناس يوم عرفه ويباهيهم بعمر خاصة وما فى السماء ملك إلا وهو يوقر عمر وما فى الأرض شيطان إلا وهو يفر من عمر ومنها قوله إن كان فى الأمم قبلكم محدثون فان كان فى أمتى محدثون فهو عمر بن الخطاب ومنها قوله داعيا لعمر اللهم اخرج ما فى قلب عمر من علة واملأه حكمة وإيمانا ومنها قوله أن الله جعل السكينة فى قلب عمر يقول بها قوله ومنها قوله لو كان فى أمتى نبي لكان هو عمر بن الخطاب ومنها قوله الحق بعدى مع عمر حيث كان ومنها قوله أمرت من ربى أن أعرض القرآن على عمر ومنها قوله ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء بعد النبيين خير من عمر ومنها قوله إذا مات عمر فان شئت أن تموت فمت ومنها قوله إن باب الفتن مغلق ما بقى عمر فان مات فتح باب الفتن على الناس ومنها قوله بينما أنا نائم إذ أوتيت بقدح فشربت منه ثم أتى بعمر فشرب بفضله قالوا ما أولت ذلك يارسول الله قال العلم ومنها قوله لعمر لا أحرمنى الله من دعائك ياعمر لأن دعاءك مقبول عند الله تعالى .

هذا بعض ماورد من الأحاديث فى فضل عمر وإنى قد تركت كثيرا منها لمشابهتها ودلالتها على مثل هذه المعانى وقد ورد فى فضله هو وأبو بكر أحاديث كثيرة وقد تقدمت كتابتها

واختلف فى سنه فقيل ستون وقيل ثلاث وستون وقيل خمس وخمسون

خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه

عثمان بن عفان رضى الله عنه هو الخليفة الثالث بعد النبى ﷺ بويع له بالخلافة لثلاث ليال مضت من المحرم سنة ٢٤ هجرية وكانت توليته بعد وفاة عمر رضى الله عنه

وذلك أن عمر لما رأى خطر أمره عهد بالخلافة بعده للنفر الذين مات رسول الله ﷺ وهو عنهم راض بعد أن عرضها على عبد الرحمن بن عوف فلم يقبل كما سبق ذلك

وكان الصحابة رضى الله عنهم أرادوا من عمر أن يعهد بالأمر بعده لولده عبد الله فقال حسب قوم وجد من تحمل حملا ثقيلا كهذا وكفى بنو الخطاب ماحملوا وأود أن يخلفهم غيرهم وبعد موته اجتمع أهل الشورى وهم على وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص وعبد الله بن عمر رضى الله عنهم وكان عمر قد شرط عليهم أن يكون ابنه شريكا لهم فى الرأى ولاحظ له فى الخلافة وجعل لهم مدة الشورى ثلاثة أيام وقال لهم لايمضى اليوم الرابع إلا ويكون لكم أمير وان اختلفتم فكونوا مع الذين يكون معهم عبد الرحمن بن عوف ثم اتفقوا فى اليوم الرابع على أن يختار عبد الرحمن منهم رجلا فخلا بعلى وقال له لنا الله عليك إن وليت هذا الأمر أن تسير فينا بكتاب الله وسنة نبيه وسير أبى بكر وعمر فقال له أسير فيكم بكتاب الله وسنة نبيه ما استطعت واعمل مبلغ علمى وطاقتى فتركه وخلا بعثمان وقال له مثل ماقال لعلى فقال عثمان أسير فيكم بكتاب الله وسنة نبيه وسيرة أبى بكر وعمر فصفق عبد الرحمن على يد عثمان وبايعه وخرج والناس يهنئونه بالخلافة

فلما تم لعثمان الأمر صعد على المنبر وجلس محل رسول الله ﷺ فتكلم الناس فى ذلك وارتج عليه ولم ينطق بكلمة وقيل إنه قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه أيها الناس إن أبا بكر وعمر كانا يعدان لهذا المقام مقالا وأنتم إلى امام عادل أحوج منكم الى إمام يشقق الخطب وان أول كل أمر صعب وان عشت فسآتيكم بالخطب ثم نزل

اقراره عمال عمر سنة ثم تغييرهم بعد ذلك

ثم انه أقر عمال عمر سنة تنفيذاً لوصيته ثم عزلهم بعد ذلك وغيرهم بمن أراد فعزل عمرو بن العاص عن مصر الذى فتح سوريا ومصر وبعض بلاد المغرب واعتاضه بعبد الله بن سعد بن أبى صرح العامرى أخى عثمان فى الرضاع سنة ست وعشرين هجرية

وكان ذلك سبب العداوة والبغضاء بين عثمان وعمرو بن العاص وقال عثمان لعمرو بن العاص لما قدم عليه كيف تركت عبد الله فقال له كما أحببت قال وما ذاك قال قوى فى نفسه ضعيف فى ذات الله تعالى فقال له لقد أمرت أن يتبع أثرك قال لقد حملته شططا (وفيها) وسع أمير المؤمنين عثمان رضى الله عنه المسجد الحرام وافتتح المغيرة بن شعبة همذان والرى .

وكان عثمان قد جهز عبد الله المذكور بأربعين ألفا حين وجهه إلى مصر وأمره بالسير إلى بلاد المغرب فسار إليها وبعد مدة وصل إلى نواحى طرابلس وافتتحها سنة ست وعشرين وكانت قد اجتمعت عليه هناك أهالى البلاد بأموالهم وجاءته عساكر الروم فغزاها وظفر بها ثم قدم البطريق غريغريوس (جرجيس) وكان واليا على الأقطار التى بين طرابلس وطنجة فى مراكش من طرف ملك الروم ومعه مائة وعشرون ألفا وعدد عظيم انضم إليهم من الأهالى وتجدد القتال

ودام أياما متوالية كل يوم من الصباح إلى الظهر حتى تشتد الحرارة وكان عبد الله المذكور تنحى عن الحرب وترك إمرة الجنود إلى غيره ولما طال أمر الحرب أمر عثمان عبد الله بن الزبير أفرس أهل زمانه بالمسير إلى تلك الجهات ومعه اثنى عشر ألفا ولما وصل إلى الجنود الاسلامية تقابل مع أميرها الذى اعتذر عن تنحيه من الحرب بتحالف الأعداء على قتله وفى اليوم الثانى صدم ابن الزبير بعسكره عساكر غريغريوس فهزمهم وقتله ابن الزبير بنفسه ولما قتل هربت بقية عساكره إلى مدينة شيطله فى تونس وكانت مدينة جميلة واسعة قوية فحاصرها ابن أبى صرح حتى فتحها وصار بين العرب وبين قرطاجة مائة وخمسون ميلا ولم يمنعهم عن فتحها إلا ما لحقهم من التعب وموت كثير منهم فى الحرب وقرطاجة هذه كانت أول مدينة بحرية وكانت بقيت تحت حكم إيطاليا مدة مائة سنة ثم تغلب عليها الرومان فخرقوها وتحالفوا على بقائها خربة ولعنوا كل من أقام بها حجرا ثم أعادوا بناءها بأنفسهم .

ولما رأى الأغريقيون قوة العرب صاروا يترددون عليهم إما لطلب الصلح أو لدفع جزية معينة أو الدخول فى دين الاسلام ثم رجع العرب إلى مصر بالأموال الكثيرة والغنائم العظيمة بعد أن غابوا عنها خمسة عشر شهرا وكانوا قد صالحوا أهل افريقية على مليون ونصف من الدنانير وبعد أن دفعوا الخمس لبيت المال فرقوا ما بقى على العساكر وأرسلوا إلى عثمان يبشرونه بنصرهم وأرسلوا له ما جعل لبيت المال وقدره خمسون ألف دينار ووجه عبد الله بن سعد بن أبى صرح جيشا إلى بلاد النوبة فسألوهم الموادعة والصلح فأجابوا ورجع الجيش بعد أن فرضوا عليهم جزية سنوية وأمر عثمان عبد الله بن نافع أن يسير إلى الاندلس ويغزو تلك الجهات فغزاها وعاد إلى إفريقية فأقام بها أميرا من طرف عثمان ورجع عبد الله بن أبى صرح إلى مصر .

واستأذن معاوية بن أبي سفيان عثمان سنة سبع وعشرين هجرية بغزو الروم فى البحر فأذن له فسير معاوية جيشا إلى قبرص وسار إليها أيضا عبدالله ابن سعد من مصر واجتمعوا بها وقاتلوا أهلها ثم اصطلحوا بعد عدة وقائع على دفع جزية قدرها سبعة آلاف دينار فى كل سنة وعزل عثمان أبو موسى الاشعرى عن البصرة وولى مكانه ابن خاله عبد الله بن عامر بن كريز وهو يومئذ ابن خمس وعشرين سنة وعزل سعد بن أبي وقاص عن الكوفة وولى مكانه الوليد بن عقبة ثم عزله لعدم حسن سيرته لأنه كان كثير السكر ويدخل فى الصلاة وهو سكران ويهزأ فيها بعد مافتح نيسابور عنوة سنة ثلاثين وفتحت كذلك هراة ومرو والروذ والجرجان والطالقان والغارياب وطخارستان إلى نهر بلخ وافتتح سلمان بن ربيعة الباهلى أرمينية والتقت عساكره مع عساكر خاقان ملك الجزر فقتل سلمان ومن معه من الجند وكانوا أربعة آلاف جندى

وبلغ عثمان رضى الله عنه ماوقع فى أمر القرآن من أهل العراق وانهم قالوا لأهل الشام أن قراءتنا أصح من قراءتكم لانا نقرأناه على أبى موسى الأشعرى وكذلك أهل الشام أخذوا يعيبون غيرهم ويفضلون قرآنهم وقراءتهم فأمر بإحضار المصاحف التى بأيدى الناس وحرقها أو سلقها بالماء الحار ثم أمر بإحضار المصحف الذى كان عند حفصة حيث أن الصحابة قد اجمعوا على صحته ونسخ منه عدة مصاحف وسيرها إلى الامصار للسير على مقتضاها وفى هذه السنه قد سقط من يد عثمان خاتم النبي ﷺ فى بئر أريس وكان من الفضة وهو مكون من ثلاثة أسطر محمد ثم رسول ثم ختم الله وكان يتختم به ويختم به الكتب التى يرسلها إلى الملوك ثم ختم به بعده أبو بكر ثم عمر ثم عثمان إلى أن سقط منه فى تلك البئر

وفى السنة الثانية والثلاثين غصت خراسان واجتمع أهلها فى خلق كثير

فسار اليها المسلمون وفتحوها ثانيا

وبينما عثمان رضى الله عنه مشتغلا بالفتح مكللة جيوشه بالنصر والظفر إذ نقم عليه الناس وكثرت أعداؤه واضداده وتكلموا فيه بزعم أنه آثر أقاربه وذوى رحمة وبنى الدار والضياع من بيت مال المسلمين ونفى أبا ذر صاحب رسول الله ﷺ وعبد الرحمن بن جميل وآوى الحكم بن أبى العاص وعبدالله بن سعد بن أبى صرح طريدى رسول الله ﷺ وكان عثمان هو وقومه من بنى أمية سألوا أبا بكر فى الحكم بن العاص فلم يأذن لهم ولما ولى عمر سألوه فى ذلك فلم يأذن لهم وزوج عثمان ابنته لمروان بن الحكم وأمر له بأخذ المال الذى ورد من افريقية وولى الوليد بن عقبه الكوفة فأحدث فى الصلاة ما أحدث وعزل أهل الاستحقاق وأقام غيرهم ممن لايستحقون ذلك من أقاربه وغيرهم واتهموه أيضا بالخديعة فى أمر ابن أبى صرح عند ما عزله وولى مكانه محمد ابن أبى بكر وذلك أنه قداجتمع من أهل مصر وأهل الكوفة وأهل البصرة جموع نافمين على عثمان حتى منعوه الصلاه فى المسجد ولزم أهل المدينة بيوتهم وحاصروه فى داره ثم اتفق على مع عثمان فى اجابة طلب الناس وهو عزل مروان بن الحكم من كتابته وعزل عبد الله بن سعد بن أبى صرح عن مصر فأجابهم إلى ذلك وفرق الناس عنه ثم إن عثمان رد مروان إلى وظيفته ثم ذهب محمد بن أبى بكر إلى مصر ومعه عدد من المهاجرين والانصار فالتقوا فى طريقهم بعبد على هجين يجهد فقالوا له إلى أين قال إلى عامل مصر فقالوا له هذا هو عامل مصر يعنون محمد بن أبى بكر فقال بل العامل الآخر يعنى ابن أبى صرح ففتشوه فوجدوا معه كتابا لعبد الله بن أبى صرح بخط مروان وختم عثمان يقول فيه إذا جاءك محمد بن أبى بكر ومن معه وأخبرك أنك معزول فلا تقبل واحتل فى قتله وابطل كتابهم وامض فى عملك

فرجع ومن معه إلى المدينة وجمعوا الصحابة وأطلعوهم على الجواب فسألوا عثمان عن ذلك فاعترف بختمه وخط كاتبه ولكنه حلف بأنه لم يأمر بذلك فطلبوا منه أن يسلم إليهم مروان فامتنع عن ذلك فازداد حنق الناس عليه فجدوا فى قتاله فأرسل على بن أبى طالب والزبير بن العوام وطلحة أولادهم للذب عنهم فتسوروا الدار على عثمان محمد بن أبى بكر ورجلان معه ثم قبض محمد بن أبى بكر على لحيته فقال قعدت منى مقعدا ما كان أبوك يقعده ولو رأى ذلك لاساءه فتراخت يد محمد بن أبى بكر عنه وقتله أحد الرجلين الذين كانا معه فترامت هند امرأته عليه لتدافع عنه فقطعت أصابعها وكان عثمان رضى الله عنه حين قتل صائما يتلو القرآن فى المصحف وكان مقتله لثمان عشر ليلة قد خلت من ذى الحجة سنة خمس وثلاثين ومدة خلافته ثنتا عشر سنه إلا اثنى عشر يوما واختلف فى عمره بين خمس وسبعين واثنين وثمانين ومكث ثلاثة أيام لم يدفن لأن محاربيه منعوا دفنه ثم دفنه على ليلا وكان عثمان قد كتب اثناء محاصرته فى داره إلى معاوية بالشام يسأله القدوم عليه لاغاثته فتوجه اليه فى اثنى عشر ألف مقاتل ثم قال لهم كونوا فى أوائل الشام حتى آتى أمير المؤمنين لاعرف أمره فأتى عثمان وسأله عن المدد فقال قد قدمت لأعرف رأيك فآتيك بهم ثم رده ليأتى بهم فرجع ولم يعد اليه حتى قتل وكان قتله سببا لفتح باب الفتنة على المسلمين .

﴿ فصل ﴾

فى أوليات عثمان رضى الله عنه

قال العسكرى فى الأوائل هو أول من أقطع القطائع وأول من حمى الحمى وأول من خفض صوته بالتكبير وأول من أمر بالآذان الأول فى الجمعة وأول من خلق المسجد وأول من رزق المؤذنين وأول من أرتج عليه فى الخطبة فقال

أيها الناس إن أول مركب صعب وإن بعد اليوم أياما وإن عشت تأتيكم الخطبة على وجهها وما كنا خطباء وسيعلمنا الله (أخرجه ابن سعد) وأول من قدم الخطبة فى العيد على الصلاة وأول من فوض إلى الناس اخراج زكاتهم وأول من ولى الخلافة فى حياة أمه وأول من اتخذ صاحب شرطه وأول من اتخذ المقصورة فى المسجد خوفا أن يصيبه ما أصاب عمر هذا ماذكره العسكرى قال وأول ماوقع الاختلاف بين الأمة فخطأ بعضهم بعضا فى زمانه فى اشياء نقموها عليه وكانوا قبل ذلك يختلفون فى الفقه ولا يخطىء بعضهم بعضا قلت بقى من أوائله أنه أول من هاجر الى الله بأهله من هذه الأمة كما تقدم وأول من جمع الناس على حرف واحد فى القراءة وأخرج ابن عساكر عن حكيم بن عباد بن حنيف قال أول منكر ظهر بالمدينة حين فاضت الدنيا وانتهى سمو الناس طيران الحمام والرمى على الجلاهقات فاستعمل عليها عثمان رجلا من بنى ليث سنة ثمان من خلافته فقصها وكسر الجلاهقات .

الأحاديث الواردة فى فضله

منها قوله ﷺ اللهم أنى قد رضيت عن عثمان فارض عنه قال ذلك ثلاث مرات ومنها قوله إن عثمان يعمل بما يرضيك فارض عنه ومنها اللهم أغفر لعثمان ما أعلن وما أخفى وما أسر وما أجهر ومنها قوله إن عثمان شبيه بابراهيم وإن الملائكة تستحى منه ، ومنها قوله اللهم أغفر لك ياعثمان ماقدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت الى يوم القيامة ومنها قوله لعثمان بعد وفاة أم كلثوم وقد بكى عليها عثمان مايبكيك ياعثمان ولو كان عندى غيرها مائة لازوجتكها واحدة بعد أخرى حتى لاتنقطع مصاهرتى لك ومنها قوله سيقتل أميرى ويعدو الناس على منبرى ومنها قوله أن سيف الفتنه مغمود مادام عثمان فان قتل لايغمد

إلى يوم القيامة ومنها قوله إن عثمان سيشفع فى سبعين ألفامن أمتى قداستوجبوا العـذاب .

وأنى قد تركت كثيرا من الاحاديث الواردة من روايات مختلفة دالة على مثل هذه المعانى .

﴿ فصل ﴾

فى الاحاديث الدالة على فضل الثلاثة رضى الله عنهم

منها قوله ﷺ هؤلاء الثلاثة هم الامراء بعده ومنها قوله اذا أنامت ومات أبو بكر وعمر وعثمان فان استطعت أن تموت فمت ومنها قوله أبو بكروزيرى وعمر قطعة منى وعثمان منى هم الخلفاء من بعدى .

وهذا الذى ذكرته من الاحاديث الواردة فى فضلهم هو بعض ماورد منها لانى قد تركت كثيرا من الاحاديث المشابهة لهذه الاحاديث من روايات مختلفة .

خلافة الامام على رضى الله عنه

هو الخليفة الرابع بعد وفاة النبي ﷺ تولى الخلافة يوم الجمعة لخمس باقيه من ذى الحجة سنة خمسة وثلاثين هجرية بعد امتناع منه وتأخر عن بيعته نفر قليل سموهم بالمعتزلة ولما تم له الأمر قال له المغيرة بن شعبه يا أبا الحسن لك عندى نصيحة قال وماهى قال أن تبقى عمال عثمان قال له نعم إلا معاوية فبلغ ذلك الخبر لمعاوية فامتنع عن مبايعته وحصلت بينهمامكاتبات لم تجد نفعاوكانت عاقبتها الحرب بينهما كما سيأتى وعزل على عمال عثمان إلا أبا موسى الأشعرى ومعاوية وولى مصر قيس بن سعد ولما قدمها اعتزلت عنه فرقة كانت عثمانية وأبت أن تدخل فى طاعة على إلا أن يقتل قاتل عثمان وكانوا ببلدة خربتا

المعروفة الان بخربتها وكانت نحو عشرة آلاف وبعد أن بايعه طلحه والزبير ذهب إلى مكة ولحق بعائشة رضى الله عنها لأنها كانت خرجت إليها قبل مقتل عثمان وحرضاها على مقاتلة على ومطالبته بدم عثمان فتبعتهم وتبعهم كثير من بنى أمية وساروا لقتال على وأرادت عائشة الرجوع فلم يسمحوا لها به وأرادوا الاستيلاء على البصرة فنعهم عامل على وهو عثمان بن حنيف من دخولها فقالوا له لم نأت لحرب وإنما جئنا للصلح وكتبوا بينه وبينهم كتاباأنهم لايحدثون أمرا إلى قدوم على ثم أمر عثمان بن حنيف أصحابه بنزع السلاح فنزعوه فغدروابهم وقبضوا على عثمان وسجنوه ثم أطلقوه بعد أن نتفوا لحيته وحاجبيه ولما أتى الخبر لعلى سار الى البصرة ومعه أربعة آلاف مقاتل من أهل المدينة واستقر أهل الكوفة فسبطهم أبو موسى الأشعرى ومع ذلك فقد وافاهمنهم ستة آلاف ثم قدم البصرة وسعى فى تجنب أسباب الحرب فلم يمكنه ذلك ودارت رحى الحرب بين الطرفين بموضع يسمى الحزبيةأربع ساعاتمن النهار وكانتعائشة راكبة جملا فى هودج قطعت على خطامه أيد كثيرة وتمت الهزيمة على أصحاب طلحة والزبير وقتل طلحة فى المعركة وقتل الزبير فى الطريق عن منصرفه إلى المدينة وأمر على رضى الله عنه عائشة بالرجوع الى المدينة وجهزها بما تحتاج إليه واتبعها ولديه مسير يوم وتبعها أيضا كثيرمن الناس لوداعهاوسميت هذهالواقعة واقعة الجمل ثم سار على الى الكوفة ونزلها سنة سته وثلاثين هجرية وانتظم له الأمر بالعراق ومصر واليمن والحرمين وفارس وخراسان ولم يبق خارجا عنه إلا الشام وبها معاوية الذى كاتبه الامام على مرارا فلم تجد الكتابة نفعا كماسبق وكان من شأن معاوية أنه اتفق هو وعمرو بن العاص على حرب الامام على ومطالبته بدم عثمان وانه يعطيه مصر إذا انتصر طعمة له بعد رواتب جندها وبلغ الامام على نخرج من الكوفة بجيش وخرج معاوية وعمرو بن العاص

بجيش آخر والتقى الجيشان بصفين وهى بلدة بين دمشق والعراق على جانب الفراة الشرقى سميت بها الواقعة وحصلت بينهما كثيرة قتل فيها كثير من الفريقين وفى آخر مرة حمل الامام على على صفوف أهل الشام فلم يبق منهم صف إلا انتقض ووقعت الهزيمة عليهم وهم معاوية بالفرار فنهاه عمرو بن العاص عن ذلك ورفعوا المصاحف فى وجوه القوم وطلبوا الرجوع للحكم بما فيها باشارة عمرو بن العاص وكانت حيلة دبرها فآل الأمر الى التحكيم بينهم فحكم أهل الشام عمرو بن العاص وكان معروفا بالدهاء والحيل وحكم أهل العراق أبا موسى الأشعرى ولم يكن كذلك فاختلى عمرو بأبى موسى الأشعرى واتفقا بعد جدال طويل وأحاديث كثيرة على خلع على ومعاوية وترك الأمر للمسلمين يولون من أرادوا ثم أقبلا إلى الناس وقد اجتمعوا مكان اجتماعهم بدومة الجندل فقال أبو موسى ان رأينا قد اتفق على أمر نرجو به صلاح هذه الأمة فقال عمرو صدق تقدم يا أبا موسى فتكلم فلحقه ابن عباس وقال له ويحك والله إنى أظن أنه خدعك ان كنتما قد اتفقتما على أمر فقدمه قبلك فأنى لا آمن أن يخدعك فقال أبو موسى انا قد اتفقنا ثم تقدم وحمد الله وأثنى عليه ثم قال أيها الناس انا لم نر أصلح لأمر هذه الأمة من أمر قد اجتمع عليه رأينا وان يخلع على ومعاوية وتستقبل هذه الأمة أمرها فتولى من أرادت وأنى قد خلعت عليا ومعاوية فاستقبلوا أمركم وولوا عليكم من رأيتموه لهذا الأمر أهلا ثم تنحى وأقبل عمرو وقام مقامه وحمد الله وأثنى عليه ثم قال إن هذا قد قال ماسمعتم وخلع صاحبه وأنا أخلع صاحبه كما خلعه وأثبت صاحبى فأنه ولى عثمان والطالب بدمه وأحق الناس بمقامه فقال له أبو موسى مالك قد غدرت فركب أبو موسى ولحق بمكة حياءا من الناس وصاح القوم حكم الحكمان بغير ما فى كتاب الله والشرط عليهما غير ذلك وسلم أهل الشام على معاوية بالخلافة واعتبروا هذا التحكيم نافذا ولم

يرض به أصحاب على وقالوا ان الحكمين قد حكما بغير مافى كتاب الله والشرط عليهما غير ذلك .

ومن هذا الوقت أخذ امر على فى الضعف وأمر معاوية فى القوة وصار كل منهما يغير على أعمال صاحبه .

وفى سنة أربعين هجرية اتفق جماعة من الخوارج وهم عبد الرحمن ابن ملجم المرادى وعمرو بن بكير والبرك بن عبد الله التيميان على قتل على ومعاوية وعمرو بن العاص وقال عبد الرحمن بن ملجم أن أكفيكم عليا وقال البرك ابن عبد الله أنا أكفيكم معاوية وقال عمرو بن بكر أنا أكفيكم عمرو وسار وتواعدوا على ليلة سبع وعشرين رمضان من هذه السنة أن يفعلوا ذلك أما ابن ملجم فانه قتل عليا فى الفلس وهو خارج لصلاة الفجر وأما البرك فانه جرح معاوية ولم يقتله وأما عمرو بن بكر فانه قتل خارجة الذى كان نائبا عن عمرو بن العاص فى الصلاة تلك الليله وهو يظنه بن العاص فأخذوه إلى عمرو بن العاص فقال من هذا قالوا عمرو الذى قتل خارجه فقال ومن قتلت قال خارجة فأمر عمرو بقتله فقتل وقال بعضهم يتأسف على قتل على ويتمنى عدم قتله .

ليت الذى قد فدت عمرو بخارجه فدت عليا بما شاءت من البشر

ودفن الامام على بالكوفة أو بالبقيع وعمره ثلاث وستون سنة ومده خلافته أربع سنين وتسعة أشهر وكان من الأبطال المشهورين والعلماء العاملين وكان العامل من طرفه على مصر سعد بن أبى وقاص ثم محمد بن أبى بكر وفضائله كرم الله وجهه شهيرة وقد ورد فى فضله أحاديث كثيرة منها قوله ﷺ لعلى أنت منى بمنزله هارون بن موسى وقوله لعلى أنت أخى فى الدنيا وأخى فى الآخرة وقوله له أنت منى وأنا منك وقوله الناس من شجرتين ونحن من شجرة واحدة وقوله وعلى خير البشر وأن من شك فى ذلك كفر وقوله على

إمام البرره من ينصره فهو منصور ومن يخزله فهو مخزول ومنها قوله له أبشر ياعلى حياتك ومماتك معى

ومنها أنت خير من يؤثرنى بعدى وينجز وعدى ومنها قوله اللهم أنك قد أخذت منى عبيدة بن الحارث يوم بدر وحمزه بن عبد المطلب يوم أحد وهذا على تبقه لى ولا تذرنى فردا وأنت خير الوارثين ومنها قوله اللهم أكرم من أكرم عليا وأخذل من خذله ومنها قوله أن عليا لن يموت حتى يملأ غيظاولن يموت إلا مقتولا ومنها قوله أنا مدينة العلم وعلى بابها فمن أراد العلم فليأتى الباب وهو الهادى للمسلمين بعدى .

وأنى قد تركت كثيرا من الأحاديث المتشابهة الدالةعلى مثل هذهالمعانى من طرق مختلفة .

(فى الأحاديث الوارة فى فضل الخلفاء الأربع رضى الله عنهم أجمعين)

منها قوله ﷺ أربعة لا يجتمع حبهم فى قلب منافق ولا يحبهم إلا مؤمن وهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلى

وقوله أبو بكر الصديق وزيرى وخليفتى على أمتى من بعدى وعمر ينطق على لسانى وعلى ابن أبى طالب عمى وابن أخى وحامل رايتى وعثمان منى وأنا منه وقوله أبو بكر وعمر منى كالعينين فى الرأس وعثمان بن عفان منى كلسانى فى فمى وعلى كروحى فى جسدى وقوله لا يجتمع حب هؤلاء الأربعة فى قلب منافق أبى بكر وعمر وعثمان وعلى وقوله من فضل أحدا على أبى بكر وعمر وعثمان وعلى فقد كذب وقوله أن الله أمرنى بحب أربعة من أصحابى وهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلى قوله ورحم الله أبا بكر زوجنى ابنته وحملنى إلى دار الهجرة وأعتق بلالا من ماله وما نفعنى مال فى الاسلام إلا مال أبى بكرورحم الله عمرا يقول الحق وإن كان مرا ورحم الله عثمان تستحى منه الملائكة وجهز

جيش العسره من ماله وزاد فى مسجدنا حتى وسعنا ورحم الله عليا اللهم أدر الحق معه حيث دار ومنها قوله أن الله اختار أصحابى على جميع العالمين سوى النبيين والمرسلين واختار من أصحابه أربعة فجعلهم خيرهم وهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلى واختار أمتى على سائر الأمم فبعثنى فى خير قرن .

وأنى قد تركت كثيرا من الأحاديث المشابهة لهذه المعانى الدالة عليها من طرق مختلفة وتركت اسم الرواة تسهيلا واختصارا كما قدمت ذلك .

(بيعة الحسن بن على وتسليمه الأمر لمعاوية)

لما توفى على رضى الله عنه اجتمع أصحابه وبايعوا ابنه الحسن وكان على قبل موته قد تجهز بالجيوش إلى الشام ويقال أنه كان قد بايعه أربعون الفا من عسكره على الموت ولما بويع الحسن ابنه بلغه مسير معاوية لقتاله فزحف عليه فى ذلك الجيش من الكوفة للقائه حتى نزل المدائن وكان على مقدمة عساكره قيس بن سعد بن عباده الانصارى فى اثنى عشر الفا ثم حصلت فى عسكره فتنة وتعاظم امرها حتى قيل انهم نازعوه بساطا كان جالسا عليه فى سرادقه وطعنه بعضهم فى فخذه فحمل على سرير إلى المدائن ولما رأى ذلك كتب إلى معاوية يذكر له النزول عن الأمر له بشروط مخصوصة منها ان يعطيه معاوية ما فى بيت مال الكوفة وقدره خمسة آلاف من الدنانير والا يسب احد عليا فأجابه إلى ما طلب مؤقتا ولم يوف له بذلك بعد ثم بايع معاوية لستة اشهر من بيعته ودخل معاوية الكوفة وبايعه الناس ثم لحق الحسن واهل بيته بالمدينة ولم يزل مقيما بها حتى مات سنة تسعة وأربعين هجرية .

وتقدم فى السيرة النبوية ان مولده كان فى رمضان من السنة الثالثة هجرية قال ابن خلدون وما ينقل من ان معاوية دس اليه السم مع زوجته جيده بنت الأشعث فلا حقيقة له لأنه من احاديث الشيعة .

وكان الحسن رضى الله عنه تقيا ورعا صفوحا عن الزلات ولقب بالأمين لتفضيله الأمانة فى المسلمين على خير نفسه وكانت مدته متممة للخلافة الاسلامية التى أخبر عنها النبى ﷺ بقوله الخلافة بعدى ثلاثون سنة ثم تكون ملكا عضوضا ووردت فى فضله أحاديث كثيرة تدل على فضله وحب النبى ﷺ له وتارة مقرونا بأخيه الحسين رضى الله عنهما

الدولة الأموية

عدد ملوك هذه الدولة أربعة عشر أولهم معاوية بن أبى سفيان وآخرهم مروان الجعدى ومدة حكمهم نيف وتسعون سنة

وأول ملوكها معاوية بن أبى الحسن

معاوية بن أبى سفيان هو ابن أبى سفيان بن صخر بن حرب بن أموية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصى أسلم مع أبيه عام فتح مكة وبويع البيعة التامة يوم عزل الحسن نفسه منها ونزوله عنها لمعاوية سنة واحد وأربعين هجرية كما تقدم وقدم الكوفة يوم عزل الحسن نفسه ونزوله له عن الخلافة فقصد المنبر وحمد الله وأثنى عليه ثم قال أما بعد فانه لم تختلف أمة بعد نبيها إلا غلب باطلها حقها إلا ما كان من أمر هذه الأمة فان حقها غلب باطلها ثم نزل وبايعه الناس ولما عاد إلى الشام بلغه أن ملك الروم زاحف فى جموع كثيرة وعسكر جرار فخاف أن يشغله أمره عما يحتاج اليه من تدبير ملكه وأحكام أمره فتوجه إليه وصالحه ثم وجه العمال إلى النواحى وولى العمال

فولى عبدالله بن عامر البصره وأضاف إليه معها خراسان سنة واحد وأربعين هجرية وقد وجه هذا العامل عبد الرحمن بن سمره للفتح فافتتح بلخ بعد حرب شديد وحاصر كابل ثم فتحها صلحا وفتح نسف وزابلستان

واستعمل ابن عامر أيضا على الهند عبد الرحمن ابن سوار العبدى فغزا وغنم وأهدى معاوية من خيلها ثم عذر عبدالله بن عامر لكونه كان لينا على السفهاء وولى معاوية مروان بن الحكم المدينة وولى المغيرة بن شعبه الكوفة سنة اثنين وأربعين هجرية وغزا يسر من أرطاة الروم فهزمه شر هزيمة وقتل جماعة من بطار كتهم حتى بلغ القسطنطينية وشتى ببلادهم سنة ثلاث وأربعين

عمال معاوية على مصر

أولهم عمرو بن العاص بن وائل بن هشام بن سعيد بن سهم بن عمر بن هصيص بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك تولاها أولا بعد فتحها من قبل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وبقى بها أربع سنين وأشهر ثم صرف عنها فى زمن عثمان بن عفان كما سبق .

ووليها ولايته الثانية غرة ربيع الأول سنة ثمانية وثلاثين هجرية من قبل معاوية بن أبى سفيان بعد قتل محمد بن أبى بكر الصديق وإعطائها له طعمة بعد رزق جندها ومايصرف فى مصالحها كشرطة معه وكان عمرو من دهاة الدهر عميق الغور فى السياسة ميمون النقيبة منصورا فى مغازيه وبينما هو مشغول بالفتح مشمول بالنصر إذ أدركه مرض موته فتوفى ليلة الفطر سنة ثلاثة وأربعين هجرية فغسله ابنه عبدالله بن عمرو وأخرجه إلى المصلى وصلى عليه ولم يبق أحد صلى العيد إلا صلى عليه ثم صلى بالناس صلاة العيد وكان أبوه قد استخلفه ولما بلغ الخبر معاوية بموت عمرو بن العاص أسف عليه أسفا شديدا وخاف على مصر وفكر فى الذى يتولاها بعد عمرو ولم ير من الصواب أن يجعل ولايتها لابنه من بعده مخافة أن يطمع فى شىء من خراجها أو يجعلها طعمة له كما كانت لأبيه أو تكون وراثة لبنى عمرو وذويهم من بعده ورأى أن يوليها لأقرب الناس إليه وأقدرهم على سياستها والقيام بشؤنها فأرسل إليها أخاه عتبه بن أبى سفيان وجعله

اولا على صلاتها فهو ثانى من ولى أمرها من قبله وقدم إليها فى ذى الحجة سنة ثلاثة وأربعين هجرية فأقام بها شهرا وعرض له أمر فوفد على أخيه معاوية واستخلف عبد الله بن قيس بن الحارث وكان فيه شدة فكرهه الناس وكرهوا ولايته عليهم وامتعروا منها فبلغ ذلك عتبه بن أبى سفيان فرجع إلى مصر خوفا على أمرها يتشتت ثم صعد المنبر وقال ياأهل مصر قد كنتم تعذرون ببعض المنع منكم لبعض الجور عليكم وقد وليكم من إذا قال فعل فان أبيتم داراكم بيده فان أبيتم داراكم بسيفه، ثم رجا بالأخير ماادرك فى الأول أن البيعة شائعة لنا عليكم السمع ولكم علينا العدل وأينا عذر فلا ذمة له على صاحبه، فناداه المصريون من جوانب المسجد سمعا سمعا فناداهم عدلا عدلا ثم نزل ثم جمع له أخوه الصلات والخراج معا ثم عقد عقبة لعلقمة بن يزيد على الأسكندرية فى إثنى عشر الفا تكون لها رابطة ثم خرج إليها مرابطا فى ذى الحجة سنة ٤٤ هجرية فمات بها وكانت مدة ولايته سنة واحدة ثم ولاها عقبة بن عامر ستة أشهر وبعد موت عقبة أقام معاوية رضى الله عنه عوضا عنه (عقبة بن عامر) ابن عيسى الجهنى فهو الرابع من عماله عليها وجعله على الصلات والخراج وكان قارئا فقيها شاعرا لبيبا صحابيا جليلا له الصحبة والهجره والسابقة فى الاسلام إلا أنه لم يكن فى السياسة والكياسه على مايرضى معاوية فولى مكانه (مسلمة بن مخلد) الانصارى فهو خامس عماله .

وكان من سراة وعظماء الناس وأمره أن يسير إلى مصر ويكتم أمره عن عقبة بن عامر حتى يدبر له حيلة يخرجه بها من مصر وفى ١٦ ربيع الأول سنة ٤٥ هجرية أرسل معاوية إلى عقبه أنه ولاه على البحر وأمره بالمسير إلى رودس فسار عقبه إلى الأسكندرية ورافقته إليها مسلمة ثم نزل عقبة البحر سائرا إلى رودس ورجع مسلمة واستوى على عرشه فلما بلغ ذلك عقبة قال اعزلا وغربه

وكان صرفه عن مصر لعشر بقيت من ربيع الأول سنة ٤٧ هجرية وكانت مدة ولايته سنتين وثلاثة أشهر ولما ولى مسلمة بن مخلد الانصارى انتظمت أموره وانقادت له البلاد وعرفت فضله العباد وانشأ منارات للمساجد واعتنى بالعبادة والمعابد وفى أيامه نزلت الروم البرلس سنة ٥٣ هجرية وحصلت وقائع قتل فى إحداها وردان مولى عمرو بن العاص فى جمع من المسلمين وبقى مسلمة والياعلى مصر إلى أن مات معاوية فى رجب سنة ٦٠ هجرية كما سبق .

وولى معاوية ابن خديج ثم مسلمة بن خملد وجمع له مصر والمغرب واستمر وليا حتى أيام اليزيد .

وكان زياد بن عبد الله عامل على على فارس فلما صار الامر لمعاوية كتب اليه يتوعده ويتهدده إن لم يبايعه وأهم معاوية أمره وخاف أن يدعو إلى أحد من بنى هاشم ويعيد الحرب ثانيا فوجه اليه للمغيرة بن شعبه فقدم به على معاوية فاكرمه وحاسبه على مال البلاد بموجب قوله ثم ادعاه أخا سنة ٤٤ هجريةوولاه البصره وأضاف اليه خراسان وسجستان ثم جمع له الهند والبحرين وعمان ولما قدم زياد البصرة سدد أمرها ووطد الملك لمعاوية ووضع السيف فى رقاب من خالفه وأخذ بالظن وعاقب على الشبهة فخافه الناس خوفا شديداً ثم أن معاوية ولى زياد الكوفة أيضا سنة خمسة وأربعين هجرية وكان زياد يقيم بالكوفة ستة أشهر وبالبصرة مثلها .

وهو أول من سير بين يديه الحرس بالعمد والحراب والسيوف وكانت حراسه خمسمائة لايفارقونه فى حال من الأحوال وكان أحد دهاه العرب قويا فى السياسة عظيم الهيبة بلغ من الفصاحة غايتها ومن الشجاعة نهايتها .

ولما توطد الملك لمعاوية شرع فى اتمام فتح أفريقيةوكان الافريقيون هم الذين دعوه الى ذلك ليتخلصوا من جور حكامهم وكان على أفريقية عقبةبن نافع وكان

قد فتح غدامس سنة اثنين وأربعين وكورا من كور السودان فارسل اليه معاوية عشرة آلاف فارس فدخل بهم أفريقية وانضم اليه جموع كثيرة من البربر فكثر جمعه وعظم جيشه وكانت عادة البربر إذا دخل عليهم أمير أطاعوه وأظهر كثير منهم الاسلام ومتى تنحى عنهم خلعوا طاعته وأرتدوا إلى الكفر راجعين.

ثم رأى عقبة أن يتخذ مدينة يكون بها عسكر المسلمين وأهلوهم وأموالهم ليأمنوا من ثورة تكون من أهل البلاد فقصد موضع القيروان وكان أجمه كثيرة الأشجار وبعد ماقطع الأشجار التى فيها أمر ببناء المدينة سنة ٥٠ خمسين هجرية وبنى بها المسجد الجامع ووضع به خمسمائة عمود من الصوان وبنى الناس دورهم ومساجدهم وكان محيط المدينة ثلاثة آلاف وستمائة باع وجعل لها سورا عظيما من الحجر وفى أثناء البناء كان يرسل السرايا فتغير وترجع غانمة ودخل كثير من البربر فى الاسلام فاتسعت بذلك خطة المسلمين وقوى جنان من هناك من الجنود وآمنوا واطمأنوا ومازال عقبة يفتح فى بلاد المغرب حتى وصل إلى المحيط وكان المسلمون لايفترون عن مقاتلة الروم صيفا وشتاءا برا وبحرا لأضعاف قوتهم وكثر شوكتهم ولايرجعون الا بالغنائم الوافرة ولما نظروا أن لاشىء يرد أمتداد فتوحاتهم ولايصدهم عن قصدهم سير معاوية سنة ٤٨ جيشا عظيما الى القسطنطينية مع سفيان بن عوف فاوغلوا فى بلاد الروم حتى وصلوا اليها والقوا الحصار عليها وكان فى الجيش ابن عباس وابن عمر وابن الزبير وأبو ايوب الانصارى رضى الله عنه وتوفى ابو ايوب الانصارى ودفن قريبا من سورها ولم يتمكن المسلمون من فتحها وقاومهم الروم اشد المقاومة واغرقت النار الاغريقية اغلب سفنهم وعرقلت حركاتهم ومكثت العسكر على حصار هذه المدينة ست سنوات يحاصرونها صيفا ويرجعون عنها شتاءا ويأوون الى خليج صغير هناك وبذلك كان المحاصرون يتمكنون من اصلاح ماتخرب من

السور والنار الاغريقية التى فقدت الآن قيل انه اخترعها رجل من الشام يدعى كالتييوذكوس وكان مهندسا عظيما وكيماويا شهيرا ونسبت للاغريقيين لأنهم اول من استعملها ولم يبيحوا لأحد بتركيبها ولم يكتبوا عنها شيئا يدل عليها ويقال ان الزيت بعض اجزائها ولكن لايعلم مقدار مايوضع منه على الكبريت والقطران وكان يخرج منها دخان كثيف ولهيب محرق ولم تكن ترتفع على خط مستقيم اثناء اشتعالها وكانت تحرق المراكب من جوانبها واسفلها وكان الماء يزيدها اشتعالا وكان الروم يسمونها النار المائية والبحرية ويستعملونها برا وبحرا

ويقال ان العرب تعلموا عمل هذه النار وصاروا يستعملونها برا وبحرا وهذه اول مرة صدت فيها عساكر الاسلام مدة الخمسين سنة الاولى من فتوحاتهم وفتحت جزيرة رودس سنة ثلاثة وخمسين فتحها قتادة بن بعلى الازدى ودخلها المسلمون

وفى سنة اربعة وخمسين ولى معاوية سعيد بن عثمان بن عفان خراسان فقطع جيحون ووصل إلى سمرقند والصفد وهزم الكفار وفتح ترمز صلحا وقتل قسم بن العباس ودفن بسمرقند

ثم بايع معاوية الناس لابنه يزيد بولاية عهده وبايعه اهل الشام والعراق واراد مروان بن الحكم عامله بالمدينة البيعة له فامتنع الحسين بن على وعبدالله بن عمرو وعبد الرحمن بن ابى بكر وعبدالله بن الزبير وامتنع الناس لإمتناعهم ثم قدم معاوية الحجاز بألف فارس وبايع ليزيد اهل الحجاز إلا من سبقوا

فقال معاوية لابنه يزيد إنى مهدت لك الأمور ولم يبق أحد لم يبايعك غير هؤلاء الأربعة فأما عبد الرحمن فانه رجل يماته اليوم أو غد وإما ابن عمر فإنه رجل قد غلب عليه الورع وإما الحسين فإنه له قرابة منا فان ظفرت به فاصفح

عنه واما ابن الزبير فان ظفرت به فقطعه أربا .

ثم مات معاوية فى شهر رجب سنة ٦٠ هجرية ومدة خلافته تسعة عشرة سنة وثلاثة اشهر وسبعة وعشرون يوما من مبايعة الحسن له ومدة عمره خمس وسبعون وقيل سبعون سنة وبقى فى الشام نحو أربعين سنة أميرا وخليفة وكان حليما ذا هيبة يغلب حلمه غضبه ويغلب جوده منعه وهو أول من بايع لولده وأول من وضع البريد واول من عمل المقصورة فى المسجد واول من خطب جالسا على قول بعضهم .

الثانى يزيد بن معاوية

لما مات معاوية رضى الله عنه بويع ولده يزيد فارسل إلى عامله بالمدينة بالزام الحسين وعبد الله بن الزبير وابن عمر بالبيعة له فاما ابن عمر فانه قال ان اجمع الناس على مبايعته بايعته واما الحسين وابن الزبير فلحقا بمكة ولم يبايعاه وارسل عامله بالمدينة جيشا مع عمرو بن الزبير وكان شديد العداوة لأخيه عبد الله بن الزبير ليقاتله فقاتله عبد الله وهزم الجمع وحبس أخاه عمرو حتى مات فى حبسه .

وورد على الحسين رضى الله عنه مكاتبات كثيرة من اهل الكوفة بالمسير اليهم ليبايعوه وكان عاملها النعمان بن بشير فأرسل الحسين ابن عمه مسلم بن عقيل ليأخذ البيعة له فبايعه نحو ثمانية وعشرين الفاً وقيل بايعه ثلاثون الفا وبلغ يزيد عن النعمان بن بشير كلام لا يرضيه فولى الكوفة عبيد الله بن زياد والى البصرة فقدم الكوفة ورأى ما الناس عليه فخطب وحث الناس على طاعة يزيد ثم اجتمع الى مسلم بن عقيل من كان بايع للحسين وحصروا عبيدة بن زياد فى قصره ومعه ثلاثون رجلا فأمرهم أن يشرفوا من القصر ويمنعوا أهل الطاعة ويخذلوا اهل المعصية فكانت المرأة تأتى ابنها واخاها فتقول انصرف فان الناس

يكفونك فتفرق الناس عن مسلم وبقى معه ثلاثون رجلا فاستتر ونادى منادى عبد الله بن زياد من اتى مسلم بن عقيل فله ديته فامسك له مسلم فوبخه وضرب عنقه فى الحال ورميت جثته من القصر وضرب عنق هانىء بن عروة ايضا وكان ممن اخذ البيعة للحسين وبعث براسهما الى يزيد سنة ٦٠ هجرية .

ثم اخذ الحسين رضى الله عنه فى الذهاب إلى الكوفة وكان بمكة فقال له عبد الله بن عباس رضى الله عنهما يا ابن العم انى اخاف عليك اهل العراق فانهم اهل غدر ونفاق واقم بالحجاز فانك سيده وان ابيت الا أن تخرج فسر إلى اليمن فان بها شيعة لأبيك وبها حصون وشعاب فلم يرض الحسين وقال له لقد ازمعت واجمعت وخرج من مكة واجتمع عليه قوم من العرب فسايرهم ولاقاه الفرزدق فى الطريق وقال له ان قلوب الناس معك وسيوفهم مع بنى امية والقضاء ينزل من السماء كل ذلك والحسين لايعلم ماحصل لابن عمه مسلم بن عقيل ولما بلغه امر قتله وان الناس تخذلت عنه اخبر الحسين من معه وقال من اراد ان ينصرف فلينصرف فتفرق الناس عنه وسار هو بأهل بيته حتى وصل الى مكان يقال له سراف قرب الكوفة فلقيه الحر بن يزيد التميمى صاحب شرطه عبيد الله بن زياد فى الف فارس فقال لهم الحسين ما اتيت اليكم إلا بكتبكم ثم قام خطيبا فقال ايها الناس انها معذرة الى الله واليكم انى لم آتيكم حتى اتتنى كتبكم ورسلكم ان اقدم علينا لأنه ليس لنا امام لعل الله ان يجمعنا بك على الهدى وقد جئتكم كما طلبتم فان تعطونى ما اطمئن اليه من العهود اقدم مصركم وان لم تفعلوا وكنتم فى قدومى كارهين فانصرف عنكم الى المكان الذى قدمت منه فسكتوا وقد اذن المؤذن لصلاة الظهر فصلى وصلى وراءه الفريقان ولما دخل وقت العصر صلى بهم ايضا ثم استقبلهم فحمد الله واثنى عليه وقال ايها الناس انكم ان تتقوا الله وتعرفوا الحق لأهله يكن ذلك ارضى لله

ونحن أهل البيت أولى بولاية هذا الأمر من هؤلاء المدعين ما لا حق لهم السائرين فيكم بالجور والعدوان فان أنتم كرهتمونا وجهلتم حقنا وكان رأيكم غير ما أتتني به كتبكم ورسلكم انصرف عنكم فقال الحر بن يزيد أنا والله لا ندرى هذه الكتب والرسل التى تذكر فاخرج خرجين من الصحف فنشرها بينهم فقال الحر لسنا من هؤلاء الذين كتبوا اليك وقد أمرنا أن لا نفارقك حتى نوصلك الكوفة بين يدى عبدالله بن زياد وما زالوا به حتى سار معهم فورد كتاب اليهم من عبدالله بان يأمر الحر أن ينزل الحسين ومن معه على غير ماء فانزلهم بالموضع المعروف بكربلا وهو بارض العراق بين الحله والكوفة سنة احدى وستين هجرية وفى الغد قدم من الكوفة عمرو بن سعد بن أبى وقاص فى أربعة آلاف فارس أرسله زياد لحرب الحسين فسأله الحسين إحدى ثلاثة أمور اما العود من حيث أتيت واما أن تجهزوا بى إلى اليزيد فيكون الأمر بيني وبينه واما ان الحق بالثغور فكتب عمرو إلى ابن زياد أن يجاب الحسين فى إحدى هذه الثلاث فلم يقبل وأرسل شمر بن ذى الجوش إلى عمرو ابن سعد بكتاب يقول له فيه اما أن تقاتل الحسين وتقتله وإما أن تعتزل ويكون الأمير على الجيش شمر وفى اليوم الثانى ركب عمرو بن سعد فى أصحابه وكان ذلك يوم عاشوراء من تلك السنة وركب الحسين فى أصحابه وكانوا اثنين وسبعين ما بين راكب وراجل واستمر القتال إلى الظهر من ذلك اليوم واشتد بالحسين العطش فتقدم ليشرب فرمى بسهم فأصاب فاه وتكاثر القوم عليه وطعنوه مرارا واحتزوا رأسه وقيل ان الذى نزل واحتز رأسه هو شمر وقيل بل هو سنان بن أنس النخعى ثم أرسل الرأس وبقية الرؤس والنساء والأطفال إلى يزيد فجهز اليزيد النساء والأطفال إلى المدينة وهذه حادثة مشهوره لا ينبغى إلى التوسع فيها لشهرتها وفظاعتها واختلف فى موضوع الرأس الشريف فقيل

إنه جهز إلى المدينة ودفن عند أمه وقيل انه دفن عند باب الفراديس من دمشق ثم نقل الى عسقلان وان خلفاء مصر الفاطميين نقلوها الى القاهرة ودفنوه بها وبنوا عليها مشهدا معروفا بمحل دفن الحسين وكان ذلك فى خلافة الفائز بنصر الله الفاطمى على يد الصالح طلائع بن رزيك سنة ٥٤٩ﻫ وخرج الخليفة وعسكره الى خارج المدينة حافيا مكشوف الرأس قال المقريزى رحمه الله فى خطته وكون الرأس الشريف بالقاهرة هو الذى اعتمده المؤرخون وأما الجثة فقد دفنت بكربلا وكان الحسين رضى الله عنه مقداما شجاعا كريما وقد ورد فى فضله أحاديث كثيرة مشهورة وكان عمره حين قتل خمسا وخمسين سنة وبعض أشهر

وكان عبدالله بن الزبير لا يزال ممتنعا بمكة ولم يدخل فى طاعة يزيد ثم ان أهل المدينة اتفقوا سنة ٦٣ على خلع يزيد وأخرجوا نائبه عثمان بن محمد بن أبى سفيان منها فجهز يزيد جيشا مكونا من عشرة آلاف من أهل الشام مع مسلم ابن عقبه وأمره أن يسير نحو المدينة واذا ظفر بأهلها أباحها للجند ثلاثة أيام يسفكون فيها الدماء ويأخذون الأموال وان يبايعهم على انهم خول وعبيد ليزيد ومتى فرغ من أمرهم يسير الى مكة فسار حتى نزل على المدينة من جهة الحره وأصر أهل المدينة من المهاجرين والانصار وغيرهم على قتاله وعملوا خندقا ودام القتال أياما ثم انهزم أهل المدينة وقيل ان القتلى من أهل المدينة كانوا نحو سبعمائة من اشراف الناس من قريش والمهاجرين والانصار وعشرة آلاف من الموالى وعامة الناس وبايع مسلم من بقى بالمدينة ليزيد كما شاء ثم سار نحو مكة ومات قبل ان يصل اليها وأقام على الجيش مقامه الحصين بن نمير السكونى فى المحرم سنة أربع وستين فقدم مكة وحاصر عبدالله بن الزبير أربعين يوما حتى أتاهم الخبر بموت يزيد وكان الحسين قد رمى الكعبة بالمنجنيق وأحرقها

بالنار ولما علم الحصين بموت يزيد قال لعبد الله بن الزبير من الرأى أن ندع دماء القتلى بيننا وأقدم الى الشام حتى يبايعك فامتنع عبد الله من ذلك فارتحل الحصين راجعا الى الشام وسار معه من كان بالمدينة من بنى أمية وكانت مدة خلافة يزيد ثلاث سنين ونصفا وعمره ٣٨ سنة وكانت أمه ميمونة بنت بحدل الكلبية أقام معها بين أهلها بالبادية فنشأ فصيحا وكان عاكفا على اللهو والقنص وكان شاعرا لبيبا وقد أجمع العلماء على فسقه وقبح سيرته واختلفوا فى جواز لعنه عليه من الله يستحقه

ان الحسين رضى الله عنه ما كان يظن أن يفعل به ما فعلوه معه لقرابته من رسول الله ﷺ ومكانه فى الأمة الاسلامية وياحبذا لو سمع الحسين كلام ابن عمه واتبع نصيحته وخرج مستعدا بجيش فان كانت الأولى ووجد الأمر سهلا كفى الله المؤمنين القتال وان كانت الثانية وجد معه من يدافع معه وانه رضى الله عنه قد أغفل قول القائل

لا تسع فى الأمر حتى تستعدله ... سعى بلا عدة قوس بلا وتر

ولكنه رضى الله عنه ينطبق عليه قول القائل

مشى برجليه عمدا نحو مصرعه ... ليقضى الله أمرا كان مفعولا

وقد قالوا ليزيد وأبى يزيد

ماذا تقولون اذ قال النبى لكم ... ماذا فعلتم وأنتم آخر الأمم
بعترتى وبأهلى بعد منصرفى ... منهم أسارى ومنهم خضبوا بدم
ما كان هذا جزائى اذ نصحت لكم ... ان تخلفونى بسوء فى ذوى رحمى

وانى لأعجب كل العجب من الذين لطخوا تاريخهم بدم قتل الابرياء ظلما وعدوانا مع أن الله قد سلط عليهم المختار الذى خرج فى مدة عبد الملك ابن مروان بن الحكم عن خلافته مطالبا بدم الحسين وقتل فى أخذ دماء الوفا

وهذا جزاؤهم فى الدنيا ولا ندرى ما الله فاعل بهم فى الاخرة كفانا الله شر الاشرار وكيد الفجار انه سميع قدير وبالاجابة جدير

عمال يزيد بن معاوية على مصر

لما بويع ليزيد أقر عامل مصر عليها وهو مسلمه بن مخلد الذى كان واليا عليها من قبل أبيه وبعث اليه يأخذ البيعة له فبايعه الجند إلا عبدالله بن عمرو ابن العاص فهدده عابس بن سعيد بالنار وهم بحرق داره عليه إن لم يبايع فبايع قهرا وقدم مسلمة من الاسكندرية فجمع لعابس مع الشرط القضاء وكان مسلمة يطيل الصلاة كما روى عن ابن لهيعة عن الحرث بن يزيد انه قال كان مسلمة ابن مخلد يصلى بنا فيقوم فى الظهر فربما قرأ البقرة ولم يترك الفا ولا واوا وتوفى مسلمة وهو وال لخمس باقية من رجب سنة ٦٢ هجرية فكانت ولايته ١٥ سنة وأربعة أشهر واستخلف عابس بن سعيد ثم وليها (سعيد بن يزيد) بن علقمة ابن يزيد ابن عوف الأزدى من أهل فلسطين فقدم مستهل رمضان سنة ٦٢هـ فتلقاه عمرو بن قحزم الخولانى فقال يغفر الله لأمير المؤمنين اما كان فينا مائة شاب مثلك يولى علينا أحدهم ولم يزل أهل مصر عاكفين على نكايته والاعراض عنه حتى توفى يزيد بن معاوية فى ربيع الاول سنة ٦٤ هـ كما سبق فى خلافته

وفى رجب منها دعا عبدالله بن الزبير رضى الله عنه الى نفسه بالخلافة فقامت الخوارج الذين بمصر وأظهروا دعوته وسارت وفودهم اليه يهنئونه بالخلافة فبعث اليها عبدالرحمن بن جحدم سنة ٦٤ هجرية فقدمها فى جمادى الأولى منها واعتزل سعيد بعد أن وليها سنتين الا شهرا ثم وليها بعده من قبله عبدالرحمن بن جحدم ولم تطل مدته فانه بعد ثلاثة أشهر من ولايته صرف عنها ووليها (عبدالرحمن بن عتبة بن جحدم) فدخلها فى شعبان سنة ٦٤هـ فى جمع

كثير من الخوارج وبقى بها إلى أن بويع مروان بن الحكم بالخلافة من أهل الشام وأهل مصر معه فى الباطن لأن الناس كانوا قد بايعوا ابن الزبير على غل فى قلوب شيعة بنى امية فسار مروان اليها وبعث ابنه عبد العزيز فى جيش إلى إيله ليدخل مصر من هناك وأجمع ابن جحدم على حربه وحفر الخندق فى شهر وهو الذى فى شرق القرافة وقدم مروان لمحارب ابن جحدم وقتل بينهما كثير من الناس ثم اصطلحا ودخل مروان لعشر من جمادى الاولى سنة ٦٥ ﻫ فكانت مدة ابن جحدم تسعة أشهر ووضع مروان العطاء فبايعه كثير من الناس ومن تأخر قتله وبقى مروان فى مصر شهرين إلى أن هدأ الوقت وانقطعت القلاقل ثم بارحها ورجع مقره بالشام .

الثالث معاوية بن يزيد بن معاوية

بويع له بعد وفاة والده يزيد فى ربيع أول سنة أربع وستين هجرية وكان شابا ديناً ورعا ولما تم له أمر البيعة وجد أنه لا يمكن استخلاص الملك له إلا بالسيف واراقه الدماء فجمع الناس وخطب فيهم فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه معاشر الناس أنى قد نظرت فى أمركم وأنى قد ضعفت عن القيام به والساخط على أكثر من الراضى وما كنت لا تحمل أثقالكم ولا يرانى الله متقلدا أوزاركم والقاه بدمائكم فشأنكم وأمركم فخذوه ومن رضيتم به عليكم فولوه فلقد خلعت بيعتى من أعناقكم والسلام فاجتمعت عليه بنو أمية وقالوا له أعهد إلى من تريد فقال ما أصبت من حلاوتها فلا أتحمل من مرارتها ودخلت عليه أمه فوجدته يبكى فقالت له ليتك كنت حيضة فلم اسمع بخبرك فقال لها وددت والله ذلك وويلى أن لم يرحمنى ربى ثم تغيب عن الناس الى أن مات فى الثانية والعشرين من عمره ومدته أربعون يوما وقيل ثلاثة أشهر وبعد موت معاوية ابن يزيد انتقل الملك من عقب معاوية بن أبى سفيان الذى حاول أن يجعله فيه وكأنه قد نسى

قول الله تعالى إن يشأ يذهبكم ويستخلف قوما غيركم ولا تضرونه شيئا وإن الملك لله يورث من يشاء من عباده وكاد الأمر يتم لعبد الله بن الزبير حيث بايعه أهل البصرة واجتمعت له العراق والحجاز وبايعه أهل مصر وبايع له فى الشام سرا الضحاك بن قيس والنعمان بن البشير بحمص وذفر بن الحارس الكلابى بقنسرين لولا أن مروان بن الحكم نازعه فى الأمر واجتمعت به بنو أمية وصار الناس فى الشام فرقتين اليمانية مع مروان والقيسيه مع الضحاك بن قيس مبايعين لابن الزبير واقتتل الفريقان بمرج أراهط بالفرطة وانهزم الضحاك والقيسيه وقتل الضحاك فنادى منادى مروان أن لا يتبع أحد مهزوما ودخل مروان دمشق وبايعه الناس فهو رابع خلفاء بنى أمية لما بايع الناس مروان ونزل بدار معاوية بن أبى سفيان وبايعه الناس تزوج أم خالد بن يزيد بن معاوية لخوفه من خالد وبقى مع امرأته هده التى تقدم الكلام عليها إلى أن شتم ولدها خالدا شتمة فظيعة تمسها فبلغت خالد ذلك فأمرها بالكتمان ثم تعاهدت مع الجوارى على قتل مروان فوضعت على وجهه وسادة وهو نائم وقعدت هى وجواريها فوقها حتى مات بعد أن عمر ثلاثا وستين سنة ومده ملكه تسعة أشهر وثمانية عشر يوما وهو جدير بقول القائل .

رب من ترجو به دفع الأذى إنما يأتى الأذى من قبله

وقال الذهبى رحمه الله أن مروان لا يعد من أمراء المؤمنين بل هو متغلب باغ على ابن الزبير وكذلك عهده لولده عبد الملك غير صحيح وإنما صحة خلافة عبد الملك من حين قتل عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما وعده غيره من أمراء المؤمنين من أول أمره ولكل وجهة هو موليها .

عمال مروان بن الحكم على مصر

لما أراد مبارحتها قد عهد بأمرها إلى ابنه عبد العزيز بن مروان وهم بالرحيل

منها فقال له يا أمير المؤمنين كيف المقام فى بلد ليس بها أحد من بنى أبى فقال له مروان يابنى عمهم باحسانك يكونوا كلهم بنى أبيك واجعل وجهك طلقا تصف لك مودتهم وأوقع إلى كل رئيس منهم إنه خاصتك دون غيره يكن لك عينا على غيره وينقاد قومه إليك وقد جعلت معك أخاك بشرا مؤنسا وجعلت لك موسى بن نصير وزيرا ومشيرا وماعليك إذا كنت أميرا فى أقصى الارض أليس ذلك أحسن من غلق بابك عليك وخمولك فى منزلك ثم أوصاه عند خروجه من مصر إلى الشام قائلا أوصيك بتقوى الله فى سرك وعلانيتك فان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون وأوصيك ألا تجعل لداعى الله عليك سبيلا فان المؤذن يدعو الى فريضة فرضها الله إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا وأوصيك ألا تعد الناس موعدا إلا أنفذته لهم وألا تعجل فى شىء من الحكم حتى تستشير فان الله لو أغنى أحداً عن ذلك لأغنى نبيه ﷺ عن ذلك بالوحى الذى يأتيه مع إن الله عز وجل قال فى كتابه العزيز وشاورهم فى الأمر

وخرج مروان من مصر فى غرة رجب سنة ٦٥ هجرية والحرب قائمة بينه وبين عبد الله بن الزبير ثم مات مروان فى رمضان من هذه السنة بعد مابلغ من العمر ٦٣ سنة وبموته بويع لابنه (عبد الملك بن مروان)

(الخامس عبد الملك بن مروان)

بويع عبد الملك فى ثالث رمضان من سنة خمس وستين هجرية بعد موت والده وتم له الأمر بالشام ومصر وكان قبل الخلافة متعبدا ناسكا فقيها عالما فلما جاءته الخلافة كان المصحف بين يديه يقرأ فيه فأطبقه وقال السلام عليك هذا آخر العهد بك وفى مدة خلافته خرج المختار بن عبد الله الثقفى بالكوفة مطالبا بدم الحسين فى جموع كثيرة فاستولى عليها وبايعوه بها وحصل قتال شديد

وظفر المختار بشمر فقتله وقتل عمرو بن أبى سعد بن أبى وقاص الذى كان أمير الجيش الذى حارب الحسين وبعث برأسهما الى محمد بن الحنفية بالحجاز ثم استولى المختار على الموصل وقتل عبيد الله بن زياد وأحرق جثته وانتقم الله تعالى للحسين بالمختار وقتل به الوفا من الناس .

وفى سنة أثنين وسبعين هجرية جهز عبد الملك الحجاج إلى مكة لقتال ابن الزبير فى أربعين ألفا فحاصروا مكة نحو شهر أشد الحصار ونصب المنجنيق على أبى قبيس وقينقاع ومازال يحاصره ويضيق عليه نحو أربعة أشهر حتى دخل الحجاج بعسكره مكة المكرمة وأشتد الحرب داخلها حتى قتل عبد الله بن الزبير وتفرقت جماعته ولما تمكن الحجاج من دخول مكة هدم الكعبة المشرفة لوقوع خلل فيها من تسليط المنجنيق وكان قد بناها عبد الله بن الزبير بعد وقعة يزيد على قواعد ابراهيم فبناها الحجاج هذا البناء الموجود للآن سنة ثلاث وسبعين هجرية وولى عبد الملك الحجاج العراق فسار من المدينة إلى الكوفة وخرج فى أيامه بالعراق شبيث الخارجى ووقع بينه وبين الحجاج حروب كثيرة كانت غايتها تفرق جيوش شبيث وموته وكذلك خرج عبد الرحمن بن الاشعث وأستولى على خراسان ثم قصد الحجاج وغلب على الكوفة فامد عبد الملك الحجاج بالجنود من الشام فهزم عبد الرحمن وتفرقت جنوده والتجأ إلى ملك الترك فطلبه منه الحجاج وتهدده بالحرب فقبض على عبد الرحمن فى الطريق فألقى نفسه من على سطح فمات وكان الحجاج ظلوما غشوما سفاكا للدماء سيء الاخلاق قبيح السيرة قتل كثيرا من الناس وحبس كثيرا حتى قيل أنه قتل بأمره سوى من قتل فى حروبه مائة وعشرون ألفا ومات فى سجنه خمسون ألف رجل وثلاثون ألف امرأة ولم يكن لحبسه سقف يستره فروى عنه أنه سمع ضجة من هم فى الحبس وهو خارج من صلاة الجمعة فقال ماهذا قيل له المسجونون

يشكون فالتفت اليهم وقال اخسأوا فيها ولا تكلمونى فما صلى جمعة بعدها وهلك وكان مع هذه الصفات القبيحة عالما فصيحا حافظا للقرآن فهو من الذين أضلهم الله على علم وختم على سمعه وبصره فمن يهديه من بعد الله .

وهو الذى بنى مدينة واسط أيام عبد الملك وتوفى عبد الملك بدمشق فى منتصف شوال سنة ست وثمانين هجرية بعد ثلاث وسبعين سنة بعد أن عهد لابنه الوليد الأول بالخلافة .

وهو أول من ضرب الدنانير والدراهم بسكة الاسلام وكتب عليها بعض آيات من القرآن وعين فيها اسم المدينة وتاريخ السنة التى ضرب فيها وأول من نهى الناس عن التكلم بحضرة الخليفة .

وفى مدته أتسعت حدود الدولة الأسلامية من الشرق إلى السند والتركستان ولكنه كان شديدا على الناس وعماله أشد منه حتى قال بعضهم لولم يكن لعبد الملك إلا تولية الحجاج وتمكينه من رقاب الناس لكفى ذلك فى قبح سيرته ونحن نطلب له من الله الرحمة عملا بقول القائل .

من ذا الذى ماساء قط ومن له الحسنى فقط
وإذا أختبرت بنى الزمان وجدت أكثرهم سقط

عمال عبد الملك بن مروان على مصر

لما عهد له بالخلافة أقر أخاه عبد الله عليها الذى كان عاملا من قبل أبيه وفى مدة ولايته جعل الكتابة فى دواوين مصر باللغة العربية وكانت قبل ذلك بالقبطية وغات الأسعار غلوا فاحشا فتشاءم الناس منه وهى أول شدة رأوها بمصر وكان مرتشيا فكرهه الناس ولم يزل بغيضا حتى أضطر الى الرجوع إلى أخيه فصرفه عنها فى صفر سنة ثمان وثمانين واستخلف عبد الرحمن بن عمرو بن فحزم الخولانى وأهل مصر فى شدة عظيمة ثم صرف عبد الرحمن المذكور

بعد أن ولى ٣ سنين و ١٠ أشهر وتولى بعده (قرة بن شريك) ابن مرثد بن الحارث العبسى على صلاتها وخراجها فقدمها يوم الاثنين لثلاث عشرة خلت من ربيع الأول سنة ٩٠ وبقى بها إلى أن مات وهو وال ليلة الخميس لست بقيت من ربيع الأول سنة ٩٦ هجرية وكانت ولايته ٦ سنين وأياما وكان ظالما سيء السيرة واستخلف (عبد الملك بن رفاعة) فاقره الخليفة الوليد فتمت ولايته وبعد ثلاثة أشهر من ولايته توفى الوليد بدمشق فى منتصف جمادى الثانية وتولى بعده أخوه (سليمان بن عبد الملك بن مروان)

السادس الوليد الأول بن عبد الملك

بويع له بالخلافة يوم وفاة والده سنة ٨٦ هـ وكان أبوه قد عهد له بها وهو معدود من أعظم ملوك بنى أمية لأنه كان حازما وعادلا وفى مدته بنيت المبانى الفاخرة وفتحت الفتوحات الكثيرة وكان محسنا وله شفقة ورأفة بالرعية حتى أنه أعطى المجذومين مايكفيهم ومنعهم السؤال إلى الناس والمخالطة معهم وأعطى كل مقعد خادما وكل ضرير قائدا وأمر بالكتابة فى جميع دواوينهم باللغة العربية وكان يبر حملة القرآن ويقضى عنهم ديونهم وبنى الجامع الأموى وزاد فيه جزءا من كنيسة ماريوحنا بعد أن أرضاهم وأعطاهم ما شاءوا سنة ٨٦ هـ ولم يتم بناءه بل أتمه أخوه سليمان ويقال أن جملة ماأنفق على بنائه أربعمائة صندوق كل واحد منها فيه ثمانية وعشرون ألف دينار، وكان فيه ستمائة سلسلة من الذهب لتعاليق القناديل فيها ومازالت به إلى أيام عمر بن عبد العزيز فجعلها فى بيت المال واستعاض عنها حديدا ونحاسا ومن مبانيه أيضا قبة الصخرة التى ببيت المقدس وبنى المسجد النبوى ووسعه وأدخل فيه الحجرات النبوية.

وفى أيامه فتحت بلاد الأندلس حيث أرسل إلى عامله ببلاد أفريقية وهو موسى بن نصير لفتحها فسار اليها ولم تنجح مساعيه فى أول الأمر فأرسل

من قبله طارق بن زياد ومعه خمسمائة رجل ليختبروا تلك البلاد وأمده بخمسمائة أخرى فنزل طارق بهذا الجيش الصغير فى جزيرة قلبه المحاط بصخر منيع وقاتل ثلاثة أيام حتى فتحه .

ومن يومئذ سمى باسمه فقيل له جبل طارق وأنه كان قد انضم إلى المسلمين جموع من أهل تلك البلاد لأنهم كانوا متضررين من جور ملكهم رودريق ولم يزل يحارب حتى قتل رودريق ثم سار طارق بن زياد قاصدا مدينة طليطلة ليمنع كبار المملكة والأساقفة أن يجتمعوا بهذه المدينة التى هى قاعدة بلادهم ليختاروا ملكا آخر فبمجرد وصوله اليها فتحت له أبوابها فأبقاها على ما كانت عليه ثم سار هذا القائد المحفوف بالنصر إلى جبال البرتقال من غير أن يعارضه أحد فى طريقه فأراد موسى بن نصير أن يكمل فتحها ويحوز هذا الفخر العظيم لنفسه من غير أن يشرك معه طارقا فاجتاز البوغاز بتسعة عشر ألفا وفتح البلاد من غير أن يلحقه أدنى مشقة ثم جاوز جبال البرتغال وفتح الجزء الجنوبى من فرنسا ولما رأى هذا الفاتح العالى الهمة أن الدهر ساعده عزم على فتح بلاد أوروبا لكن منعه من تنفيذ هذا الغرض انحطاط درجته عند الخليفة .

وذلك أنه حملته الغيرة من طارق على أن يسلك معه مسلك الأزلال بقدر ما تقتضيه الغيرة غير أن طارقا وجد فى دولة الخليفة أصحابا وأصدقاء ما نعوا عنه وصاروا من حزبه حتى أوغروا صدره عليه فأرسل يطلبه فحضر إلى الشام ومعه عدد كثير من الأسارى فدخل دمشق بموكب حافل وكان هذا آخر مسراته فان الخليفة أهانه وأمر بضربه أمام الحاضرين وطرده إلى مكة فذهب اليها وبقى بها إلى أن مات وفتحت فى أيام الوليد فتوحات كثيرة غير الأندلس منها أنهم فتحوا ما وراء النهر وتغلغل الحجاج فى بلاد الترك ومسلمة بن عبد الله فى بلاد الروم ففتح وسبى وفتح محمد بن القاسم الثقفى بلاد الهند وفى أيامه توفى الحجاج

السفق وأراح الناس من شره وتوفى الوليد سنة ستة وتسعين هجرية بدير مروان وترك أربعة عشر ولدا من صلبه ودفن فى مقابر الباب الصغير

عماله على مصر

لما عهد له بالخلافة أقر أخاه عبدالله عليها الذى كان عاملا من قبل أبيه وفى مدة ولايته جعل الكتابة فى دواوين مصر باللغة العربية وكانت قبل ذلك بالقبطية وعلت الأسعار علوا فاحشا فتشاءم الناس منه وهى أول شدة رأوها بمصر وكان مرتشيا فكرهه الناس ولم يزل بغيضا حتى اضطر إلى الرجوع إلى أخيه فصرفه عنها فى صفر سنة ثمان وثمانين واستخلف عبدالرحمن بن عمرو بن قحزم الخولانى وأهل مصر فى شدة عظيمة ثم صرف عبدالرحمن المذكور بعد أن ولى ٣ سنين و ١٠ أشهر وتولى بعده (قره بن شريك) بن مرثد بن الحارس العبسى على صلاتها وخراجها فقدمها يوم الاثنين لثلاث عشرة خلت من ربيع الأول سنة ٩٠ وبقى بها إلى أن مات وهو وال ليلة الخميس لست بقيت من ربيع الأول سنة ٩٦ هجرية وكانت ولايته ٦ سنين وأياما وكان ظالما سىء السيرة واستخلف (عبدالملك بن رفاعه) فأمره الخليفة الوليد فتمت ولايته وبعد ثلاثة أشهر من ولايته توفى الوليد بدمشق فى منتصف جمادى الثانية وتولى بعده (أخوه سليمان ابن عبدالملك بن مروان)

السابع سليمان بن عبد الملك

بويع بعد عدة أيام من موت أخيه ولما تولى أحسن التدابير والسياسة ورد المظالم وآوى الغرباء وأفرج عن المسجونين واتخذ ابن عمه عمر بن عبد العزيز وزيراً ثم أمر الخليفة بقتل عبدالله وعبدالعزيز ولدى موسى بن النصير اللذين كانا بقيا بالنيابة عن أبيهما ببلاد الأندلس والمغرب الأقصى فمات ابن النصير

حين بلغه موت ولديه ومع ذلك فان نفى موسى لم يوقف الفتوحات فانه بعد أن جاوزوا جبل البرينات استولوا على مدينة ناربون وبعض مدن من فرنسا الجنوبية وامتدت فتوحاتهم إلى قسم برجونيا ثم قام عبد الرحمن بجيش جرار قاصدا بذلك فتح باقى بلاد فرنسا فقابله شارل بن بيبين دوهير ستال لما علم بقدوم عبدالرحمن المذكور وانتصر جيش العرب على الجيش المكون من المغول والجرمانيين تحت قيادة شارل المذكور على شواطىء نهر بوانيه ورجعوا إلى أسبانيا واكتفوا بأمرهم وذلك سنة ١١٨ من الهجرة الموافقة لسنة ٧٣٢ ميلادية

وفى سنة سبع وتسعين هجرية خرج سليمان بالجيوش ونزل بمرجد ابن وبعث أخاه مسلمة إلى القسطنطينية وقال له أقم عليها حتى تفتحها وأقام مسلمة قاهراً لها حتى جاءه الخبر بموت أخيه سليمان وذلك سنة تسعة وتسعين هجرية

وفى أيامه بنى أسامة بن زيد الملقب بالتنوقى مقياس النيل الموجود بحلوان وأوصى بالخلافة بعده لعمر بن عبد العزيز ومدة خلافة سليمان سنتان وثمانية أشهر.

عماله على مصر

لما تم له الأمر أقر عبدالملك بن رفاعه فى مصر على صلاتها وجعل على خراجها أسامة بن يزيد التنوخى فبنى هذا العامل مقياس النيل بالروضة سنة ٩٧ هـ بأمر الخليفة سليمان بن عبد الملك لما تهدم مقياس حلوان وخاطبه فى ذلك ثم مات الخليفة سليمان فى ٢١ صفر سنة ٩٩ هـ وأوصى بالخلافة لابن عمه عمر ابن عبدالعزيز

الثامن وهو عمر بن عبد العزيز بن مروان

وهو المقلب بالاشج بويع بالخلافة بعد موت سليمان ولما تم له الأمر رفع المظالم التى صدرت ممن سبقه من الملوك وغير سب الامام على كرم الله وجهه على المنابر لقوله تعالى ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا الذين آمنوا ربنا انك رؤوف رحيم وقوله تعالى إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون

وله مناقب كثيرة

منها أنه باع جميع ما يملك هو ونساؤه برضائهن وأدخله فى بيت المال ومنها المحافظة على ما فى بيت المال محافظة شديدة ومما يؤثر عنه فى تلك المحافظة ان خادمه أتاه يوما بماء يقضى به حاجته فقال له من أى شىء سخنت هذا الماء فقال له من خشب بيت المال فأمر بشراء غيره ورده إلى محله ومدة خلافته سنتان وثلاثة أشهر وثلاثة عشر يوما وبويع بعده ليزيد بن عبد الملك

عماله على مصر

وكان العامل من طرفه على مصر أبو أيوب بن الصباح ثم بشير بن صفوان وهو أول من فرض لأبناء السبيل شيئا ليقوم ببعض حاجاتهم واليه ينتهى العلم والورع وشرف النفس وتوفى رضى الله عنه بدير سمعان ودفن به وعمره تسعا وثلاثين سنة ويقال انه مات مسموما وسبب ذلك أن بنى أمية خافوا منه أنه لو امتدت أيامه ربما يخرج الملك من أيديهم وأنه لا يعهد به إلا لمن يصلح للأمر ولو كان من غيرهم فعاجلوه وسموه وقيل غير ذلك

التاسع يزيد بن عبد الملك بن مروان

ولى الأمر يوم موت ابن عمه عمر بن عبدالعزيز وذلك أنه لما احتضر عمر ابن عبدالعزيز كتب إلى يزيد بن عبدالملك سلام عليك

أما بعد فانى لا أرانى الا مفارقا للدنيا فالله الله فى أمة محمد ﷺ فانك تدع الدنيا لمن لا يحمدك ويعذرك والسلام ولما تم له الأمر قال خذوا بسيرة عمر ابن عبدالعزيز فسار بسيرته مدة وهو محمود السيرة إلى أن دخل عليه أربعون رجلا من أهل الشام وحلفوا له انه ليس على الخليفة حساب ولا عقاب فى الآخرة فخدعوه بذلك فانخدع ولم ينتفع به بعد ذلك فى الخلافة وخرج فى أيامه اليزيد بن المهلب فأرسل اليه أخاه مسلمة فقاتله وظفر به ثم توفى يزيد فى حوران بعد أربع سنين من خلافته وعهد بالأمر بعده إلى أخيه هشام بن عبد الملك

عماله على مصر

أمر أيوب على مصر وبقى بها إلى أن مات لاحدى عشرة من رمضان سنة ١٠١ هجرية وفى أيامه نزل الروم تنيس ثم ولاه يزيد على افريقية فخرج إليها فى شوال سنة ١٠٢ هـ واستخلف أخاه حنظله فولى حنظله بن صفوان باستخلاف أخيه فأقره يزيد بن عبد الملك وخرج إلى الاسكندرية فى سنة ١٠٣ واستخلف عقبه بن مسلمه وكتب يزيد بن عبد الملك فى سنة ١٠٤ بكسر الأصنام ومحو التماثيل فكسرت الأصنام ومحيت التماثيل وفى سنة ١٠٥ هـ مات يزيد بن عبدالملك وبويع هشام بن عبد الملك .

العاشر هشام بن عبد الملك

تولى بعد وفاة يزيد الثانى سنة ١١٠ هـ وكان رحمه الله حازما عاقلا صاحب سياسة حسنة وكان ذا رأى ودهاء وحزم وفيه حلم وقلة شر فقام بالخلافة أتم

قيام ويوصف بالبخل والحرص ولذلك قيل إنه جمع من الأموال مالم يجمعه خليفة قبله .

وفى أيامه غزا المسلمون بلاد الترك فانتصروا عليهم وغنموا كثيرا من الغنائم وقتلوا من الترك كثيرا وقتلوا خاقان ملك الترك وكان المتولى لحرب الترك أسد بن عبد الله القسرى .

وفى أيام هشام أيضا خرج زيد بن على زين العابدين ودعا إلى نفسه وأسرعت إليه الشيعة وكان الوالى على الكوفة من قبل هشام يوسف بن عمر الثقفى فجمع العساكر وناوش زيدا القتال فأصاب زيدا سهم فى جبهته فحمل من المعركة ومات ودفن فلما أصبح الصباح استخرجه يوسف من قبره وصلبه .

ومات هشام بالرصافة التى بناها بأرض الشام سنة ١٢٥ ﻫ بعد أن أقام فى الخلافة نحو عشرين سنه .

عماله على مصر

لما تم له الأمر صرف حنظله عن مصر فى شوال سنة ١٠٥ ﻫ فكانت ولايته عليها ثلاث سنين وولى عليها من قبله (محمد بن عبد الملك بن مروان) على الصلات فدخل مصر لاحدى عشرة ليلة خلت من شوال سنة ١٠٥ ﻫ وفى مدته حصل وباء شديد فى مصر فى أسفلها فانتقل محمد إلى الصعيد فاراً من الوباء وبقى به أياما ثم قدم إلى مقره الأصلى وخرج من مصر بعد شهر وانصرف إلى الأردن وولى الحر بن يوسف بن يحيى بن الحكم على صلاتها فدخل بها لثلاث ليال خلت من ذى الحجة سنة ١٠٥ ﻫ .

وفى مدته كان أول انتقاض للقبط فى سنة ١٠٧ ﻫ فرابط بدمياط ثلاثة أشهر ثم وفد على هشام فى شوال سنة ١٠٧ ﻫ فولى مكانه حفص بن الوليد فقدم إليها فى ذى القعدة سنة ١٠٧ ﻫ وصرف عنها فى ذى الحجة سنة ١٠٨ ﻫ باستعفائه

لمغاضبة كانت بينه وبين عبد الله بن الحجاب متولى خراج مصر فتولى عبد الملك ابن رفاعة ثانيا على الصلات فقدم إليها من الشام وهو عليل لاثنى عشرة ليلة بقيت من المحرم سنة ١٠٩ ﻫ وكان أخوه الوليد يخلفه من أول المحرم وقيل بل ولى أخوه من أول محرم ومات بالنصف منه وكانت ولايته نصف شهر ثم ولى أخوه الوليد بن رفاعة باستخلاف أخيه فأقره هشام بن عبد الملك على الصلات وتوفى وهو وال عليها فى أول جمادى الآخرة سنة ١١٧ ﻫ واستخلف عبد الرحمن بن خالد فكانت أمرته تسع سنين وخمسة أشهر ثم ولى بعده عبد الرحمن بن خالد الفهمى على صلاتها وصرفه هشام عنها بعد أن ولى أمرها سبعة أشهر وولى حنظلة بن صفوان ثانيا فقدم لخمس خلت من محرم سنة ١١٩ ﻫ فانتقض القبط ثانيا لحاربهم فى سنة ١٢١ ﻫ ثم ولاه هشام افريقية فاستخلف حفص بن الوليد بأمر هشام سنة ١٢١ ﻫ وخرج منها لسبع خلت من ربيع الأول سنة ١٢٤ ﻫ فكانت ولايته هذه خمس سنين وثلاثة أشهر وولى حفص بن الوليد الحضرمى ثانيا باستخلاف حنظلة بن صفوان على صلاتها فأقره هشام إلى ليلة الجمعة لثلاث عشرة خلت من شعبان سنة ١٢٤ ﻫ وجمع له الخراج والصلات واستسقى بالناس وخطب فيهم ودعا ثم صلى بهم وبقى بها إلى أن مات هشام بن عبد الملك

الحادى عشر الوليد الثانى بن يزيد بن عبد الملك

وكان الوليد بن يزيد مقيما بالبادية فلما مات هشام سار توا إلى دمشق وتولى الخلافة سنة ١٢٥ ﻫ وأقام بالملك سنة واحدة وكان أكمل بنى أمية أدبا وفصاحة وأعرفهم بأداب العرب ولغتهم وكان كثير السماحة والكرم إلا أنه كان منهمكا فى اللذات مستخفا بأمر الأمة مشغولا بالملاهى متظاهراً بالمعاصى ولذلك أجمع أهل دمشق على خلعه وقتله لتظاهره بالمنكرات والزندقة ومما يؤثر عنه انه

فتح المصحف الشريف يوما ليستفتح فنظر فيه فرأى قوله تعالى (واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد) فمزقه وقال.

تهددنى بجبار عنيد فها أنا ذاك جبار عنيد
إذا لاقيت ربك يوم حشر فقل يا رب مزقنى الوليد

وكأنه قد نسى أن الدنيا بطولها والعرض كسوق قام ثم انفض خسر فيه من خسر وربح فيه من ربح وإن كل امرىء مجزى بعمله ان خيرا فخيرا وإن شرا فشرا ولكنه ينطبق عليه قول القائل.

عجبا لراج أن ينال ولايه حتى إذا ما نال بغيته بغى
يسدى ويلحم فى المظالم والغا فى وردها طورا وطورا مولغى
ماان يبالى حين يتبع الهوى فيها أأصلح دينه أم أو تغى
يا ويحه لو كان يوقن أنه ما حاله إلا تحول لما طغى

ولكنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور كفانا الله شر الأشرار وكيد الفجار اللهم ولى أمورنا خيارنا ولا تولى أمورنا شرارنا وأصلح أحوالنا وبلغنا مما يرضيك آمالنا.

وكان جزاءه القتل فقتلوه سنة ١٢٦ هـ بعد أن ولى سنة واحدة كما سبق وبقتله اضطربت البلاد وانتصر على بنى أمية أعداؤهم ولم تقم لهم قائمة بعد ذلك وسهل عليهم قتل الخلفاء

عماله على مصر

انه لما تولى اقر حفصا السابق الذكر على الصلات والخراج كما كان ثم صرفه بعد ذلك عن الخراج وغيره بعيسى بن أبى عطاء وذلك لسبع بقيت من المحرم سنة ١٢٥ وانفرد بالصلات ولم يزل كذلك حتى وفد على الوليد بن يزيد واستخلف غيره ابن نعيم الرعينى وقتل الوليد بن يزيد وحفص بالشام وبويع يزيد بن الوليد بن عبد الملك

الثانى عشر وهو يزيد الثالث بن الوليد بن عبد الملك

تولى الأمر والأمور مضطربة والقلوب متقلبة وكان يلقب بالناقص فتفاءل بنى أمية بتوليه الأمر وكان كثير التعبد محمود السيرة متخلقا بأخلاق عمر بن عبدالعزيز وكان محافظا على الدين محافظة تامة إلا انه لم يتم له الأمر إلا وبغتته المنية فتوفى بالطاعون بعد ان حكم خمسة اشهر وايام .

عماله على مصر

انه أرسل حفصا من الشام إلى مصر وامره باللحاق بجنده وامره على ثلاثين الفا وسار اليها بذلك الجيش وفرض الفروض وبعث بيعة اهل مصر اليه وبقى بها إلى ان بلغه وفاة يزيد بن الوليد بن عبدالملك .

الثالث عشر ابراهيم بن الوليد

بويع بالخلافة بعد وفاة يزيد الثالث سنة ١٢٦ ﻫ ولم يكد يتم له الأمر حتى سار اليه مروان بن محمد بن مروان بن الحكم فى جيش عظيم قاصدا عزله ولما علم بذلك ابراهيم بن الوليد جهز له جيشا مع سليمان بن هشام واقتتلوا فانهزمت اصحاب ابراهيم وسليمان وقتلوا ابنى الوليد بن يزيد وكانا فى السجن ثم اختفى ابراهيم ونهب سليمان ما فى بيت المال وقسمه على اصحابه وخرج من دمشق ولم يلبث ابراهيم فى الخلافة غير سبعين يوما وقيل ثلاثة اشهر

ولم تكن مدته كافية لارسال عمال الى مصر او سواها من بلاد الدولة

الرابع عشر مروان بن محمد

وبويع له بعد ابراهيم بن الوليد ولما استقر له الامر عاد إلى حران وارسل الى ابراهيم بن الوليد يستأمنه فآمنه وقدم عليه ولكنه فى زمنه كثرت الفتن

واستفحل الامر واستحكم الخلاف فى البلاد وخرج بعضها عن الطاعة

لانه فى عهده قام محمد حفيد العباس عم النبي ﷺ بن العباسيين فى اظهار حقوق بنى العباس واستحقاقهم للخلافة من بنى أمية وبعث من قبله أناسا يحرضون الناس على الخروج عن طاعة بنى امية فأجابه ابو مسلم أمير خراسان وأظهر الخروج عن الطاعة فازدحم المسلمون تحت لوائه وعند ذلك حصل بين الأمويين والعباسيين مشاجرة عظيمة على نهر الذاب سفك فيها كثير من الدماء ونزل مروان حين القتال عن جواده ففزع الجواد وخاض بين المتقاتلين فظنوا أن مروان قد قتل فاختلت صفوف العساكر الشامية ورجعوا على أعقابهم لاعتقادهم أن مروان قد قتل وهرب مروان واجتاز جزيرة النهرين وفلسطين ولم يزل سائرا على قدميه حتى وصل الى مصر فأدركه صالح أخو عبد الله السابق الذكر فى كنيسة بأبى صير من قرى مصر فقتله وقيل أن الذى قتله هو عامر بن اسماعيل المزنى الذى كان مع السفاح وكان مروان وقت قتله جالسا يتناول طعام العشاء فجلس وأكل طعام مروان بعد قتله وأرسل برأسه الى عبد الله العباسى بالكوفة فعرفوها وأيقنوا بانقراض الدولة الأموية وذلك سنة ثلاثة وثلاثين ومئة من الهجرة وكان عمر مروان حين قتل ست وخمسون سنة ومدة خلافته خمس سنين وعشرة أشهر

وأصر السفاح أن ينتقم من الأمويين دفعة واحدة أخذا بثأر أبيه وإراحة لأسرته مما كابدوه من المشاق أيام الامويين فقتل ألوفا من الأمويين وخدع منهم بدمشق سبعين أميرا واحتال على قتلهم حيث أنه أظهر لهم الوداد وعمل لهم ضيافة للصلح وأكمن لهم عساكر ضربوا رؤسهم على حين غفلة ووضعت على أجسامهم الألواح وفرشت فوقها بسط جلس عليها أبو العباس السفاح الذى لقب من هذا الوقت بالسفاح وجلس العباس مع جميع أمراء جيشه يأكلون

ويشربون وتحتهم من يكابد حرارة الموت ويعالج خروج الروح من بنى أمية الذى قصد السفاح استئصالهم

ونجا منهم عبد الرحمن بن معاوية وفر هاربا إلى بلاد الأندلس. ودعا أهلها الى بيعته فبايعوه ودخلوا تحت طاعته وأسس بها دولة أموية جديدة بقرطبة تسمى بالدولة المروانية غير تابعة للدولة العباسية وكان ذلك فى جمادى الثانى من سنة ١٣٢ هـ

عماله على مصر

وها نحن نذكرها بعد ذكر عماله على مصر. لما ولى الأمر كتب حفص يستعفيه من ولاية مصر فأعفاه مروان فكانت ولاية حفص هذه ثلاث سنين إلا شهر وولى (حسان بن عتاهية) بن عبد الرحمن وهو بالشام فكتب إلى خير بن نعيم باستخلافه فسلم حفص الى خير ثم قدم حسان لاثنتى عشرة خلت من جمادى الآخرة سنة ١٢٧ على الصلات وعيسى بن أبى عطاء على الخراج فأسقط حسان فروض حفص كلها فوثبوا عليه وقالوا لا نرضى إلا بحفص وأخرجوا عيسى بن أبى عطا صاحب الخراج وذلك فى آخر جمادى الآخرة وأقاموا حفصا فكانت ولاية حسان ستة عشر يوما فولى (حفص بن الوليد) الثالثة كرها أخذه قواد الفروض بذلك فأقام على مصر رجب وشعبان. ولحق حسان بمروان ووفد حنظلة بن صفوان من أفريقية وقد أخرجه أهلها فنزل الجيزة وكتب مروان اليه بولايته على مصر فامتنع المصريون من ولايه حنظلة وأظهروا الخلع وأخرجوا حنظلة الى الحوف الشرقى ومنعوه من المقام بالفسطاط وهرب ثابت بن نعيم من فلسطين يريد الفسطاط فحاربوه وهزموه وسكت مروان عن مصر بقية سنة ١٢٧ ثم عزل حفصا أول سنة ١٢٨ وولى (الحوثرة ابن سهل) ابن العجلان الباهلى فسار اليها فى آلاف وقد اجتمع الجند على منعه

فأبى عليهم حفص نخافوا حوثرة وسألوه الأمان فأمنهم ونزل ظاهر الفسطاط وقد اطمأنوا اليه فخرج اليه حفص ووجوه الجند فقبض عليهم وقيدهم فانهزم الجند ودخل معه عيسى بن أبى عطاء على الخراج لاثنتى عشرة خلت من المحرم وبعث فى طلب رؤساء الفتنة فجمعوا له وضرب أعناقهم وقتل حفص بن الوليد ثم صرف فى جمادى الأولى سنة ١٣١ وبعثه مروان الى العراق فقتل واستخلف على مصر (حسان بن عتاهية) وقيل استخلف أبا الجراح بشر بن أوس وخرج لعشر خلت من رجب وكانت ولايته ثلاث سنين وستة أشهر ثم ولى (المغيرة ابن عبد الله) ابن المغيرة الفزارى على الصلات من قبل مروان فقدم لست بقيت من رجب سنة ١٣١ وخرج الى الاسكندرية واستخلف أبا الجراح وتوفى لاثنتى عشر خلت من جمادى الأولى سنة ١٣٢ فكانت ولايته عشرة اشهر واستخلف ابنه (الوليد بن المغيرة) ثم صرف الوليد فى النصف من جمادى الآخرة وولى (عبد الملك بن مروان) ابن موسى بن نصير من قبل مروان على الصلات والخراج وكان واليا على الخراج قبل ان يولى الصلات فى جمادى الآخرة سنة ١٣٢ ﻫ فأمر باتخاذ المنابر فى الكور ولم تكن قبله وإنما كان ولاة الكور يخطبون على العصى الى جانب القبلة وخرج القبط فحاربهم وقتل كثيرا منهم ثم سار مروان بن محمد الى مصر منهزما من بنى العباس فقدم يوم الثلاث لثمان بقيت من شوال سنة ١٣٢ وفدسود أهل الحوف الشرقى وأهل الاسكندرية واهل الصعيد واسوان فعزم مروان على تعدية النيل واحرق دار آل مروان المذهبة ثم رحل الى الجيزة وعبر الجسرين وبعث بجيش الى الاسكندرية فاقتتلوا وخالفت القبط برشيد فبعث اليهم وهزمهم وبعث الى الصعيد وبيناهو كذلك إذا قبل صالح بن على بن عبد الله بن عباس فى طلبه هو وابو عون عبد الملك ابن يزيد يوم الثلاثاء للنصف من ذى الحجة فأدرك صالح مروان ببوصير من

الجيزة بعد ما استخلف على مصر معاوية بن بحيرة لحارب مروان حتى قتل يوم الجمعة لسبع بقيت من ذى الحجة سنة ١٣٢ ﻫ ودخل صالح الى الفسطاط يوم الأحد لثمان خلت من المحرم سنة ١٣٣ ﻫ وبعث برأس مروان الى العراق فأيقنوا ان مروان قد قتل وبموت مروان قد انقضت أيام بنى أمية والأرض لله يورثها من يشاء من عباده وبذلك قد انتهى ذكر عمالهم على مصر

ومما تقدم يعلم أن سبب انقراض دولة بنى أمية هو عدم تيقظ ملوكهم الى أحزاب العباسيين حتى قويت فإن العباسيين لاعتقادهم الأحقية للخلافة لقرابتهم من رسول الله ﷺ كانوا يدعون الناس سرا لبيعتهم من أول خلافة الأمويين وهم لا يكترثون بذلك حتى قوى حزبهم وصارت لهم عصبية قوية فقاموا فى عهد مروان الجعدى وبايعوا عبد الله السفاح بالكوفة فتحارب مع مروان وهزمه واستخلص الدولة لنفسه كما سبق وهذا شأن كل أمة غفلت عن ملكها وغرقت فى بحار شهواتها

وتمتاز هذه الدولة بأنها كانت عربية محضة لم يكن لغير العنصر العربى فيها تغلب ولا سلطان وفى عهدها اتسعت حدود المملكة الاسلامية من جهة الشرق والغرب والشمال واضافت الى املاكها بلاد السند وجزءا عظيما من بلاد التركستان الى حدود الصين ومن جهة الشمال اخذوا كثيرا من بلاد الروم واستولوا على كثير من حصونهم وجعلوا لهم أسطولا يغزون به فى البحر الأبيض المتوسط حتى صارت تخافهم دولة الروم وتخشى سلطانهم وفى عهد هذه الدولة اشتغل الناس كثيرا بالعلوم الدينية والأدبية واللغوية وكان للشعراء والأدباء فيها حظ عظيم

ومما يعاب عليهم ان كثيرا من خلفائها انهمكوا فى الشهوات واستبدوا فى

امورهم ورأوا أن الأمة اقل منهم شأنا وتركوا الاستشارة فى امرهم فضلوا واضلوا وقد ولى فى عهدهم كثيرا من امراء الجور والعسف كالحجاج بن يوسف الثقفى وغيره من ولاة السوء ولذلك محت هذه السيئات ما كان لهم من كثير الحسنات فلم تكبر فى انظار عامة المسلمين وخاصتهم مع ما لهم من المآثر الجليلة والفتوحات الكثيرة والأعمال الجليلة

ومما تقدم يعلم ان السيئات يذهبن الحسنات كما ان الحسنات يذهبن السيئات كفانا الله تعالى شر الزلل فى القول والعمل انه سميع قدير وبالاجابة جدير .

دولة الاموين بالاندلس

هذه الدولة حكمت من سنة ١٢٩ الى سنة ٤٢٢ هجرية عبارة عن ٣٨٣ سنة وعدد ملوكها ستة عشر ملكا كانت الأندلس فى هذه المدة منتظمة الأحوال بالغة من الرفعة غايتها ومن المدنية نهايتها فانتشرت فيها العلوم والآداب وارتفعت فيها أحوال التجارة والزراعة والصناعة ولم تزل آخذة فى التقدم حتى وصلت الى أرفع درجة وبعد ذلك اخذت فى السقوط حتى نزلت الى الحضيض وتمزقت كل ممزق ثم تلاشت ولم يبق لها اثر فى الوجود حتى كأنها لم تكن كما هو شأن كل دولة حصل الخلف فيها وتشعبت آراؤها وكثرت أحزابها وتفرقت كلمتها وتشتت قلوبها سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا

وأول ملوكها عبد الرحمن بن معاوية بن هشام

ابن عبد الملك بن مروان

بويع له فى الأندلس سنة ١٣٩ تسعة وثلاثين ومئة وكان يلقب بالداخل لدخوله وتملكه للاندلس

وهذه الدولة قد خرجت من ملك بنى العباس وقصة تملكه للاندلس طويلة ملخصها انه لما قامت الدولة العباسية وأخذوا يتبعون بنى أمية قتلها هرب عبد الرحمن المذكور وخرج مختفيا وما زال يتنقل من جهة إلى أخرى حتى دخل بلاد الاندلس كما سبق وكان بها رجال من بقايا عمال بنى أمية ومواليهم فأعانوه حتى انتزع الاندلس من عمال بنى العباس بهمته وحسن تدبيره واستفحل ملكه وعظم أمره وملك بعده ذريته وكان دخوله الاندلس فى خلافة المنصور العباسى وكان المنصور يعجب من أمره ويثنى عليه فى مجالسه ويمدحه فيها ويسميه صقر قريش وأراد استرجاع الاندلس من يده فلم يتمكن من ذلك ولما استقامت اموره وتمت له الراحة فى ملكه بلغه عن بعض من اعانه انه يقول لولا نحن لما توصل لهذا الملك وكان ابعد من النجم الذى فى السما وعن بعضهم انه يقول انما اعانه سعده لا عقله وتدبيره فحركه ذلك وكان شاعرا فصيحا يقول الشعر الفصيح فأنشد يقول .

لا يلف يمتن علينا قائل	لولاى ما ملك الامام الداخل
سعدى وحزمى والمهند والقنا	ومقادر بلغت وحال حائل
ان الملوك مع الزمان كواكب	نجم بطالعنا ونجم آفل
والحزم كل الحزم الا يغفلوا	أيروم تدبير البرية غافل
ويقول قوم سعده لا عقله	خير السعادة ما حواها العاقل
ابنى أمية قد جبر ناصدعكم	بالقرب رغما والسعود قبائل
ما دام من نسلى أمام قائم	فالملك فيكم ثابت متواصل

وأخذ ينظم احوال الأندلس حتى عم الأمن وتمت الراحة فى جميع البلاد ووصلت إلى أعلى درجات التقدم والحضارة وصار فيها نافذ الكلمة مطلق التصرف حتى هابته الملوك وخافته العظماء والولاه وجدد مجد بنى امية واعلى ذكرهم

وكان عازما عل اعادة دولتهم فى الشرق لولا انه حالت بينه وبين ذلك عقبات كثيرة مات قبل اقتحامها وهو الذى بنى بقرطبة القصر والجامع وادار سورها ونظم طرقها واكثر فيها العمران والمبانى وكان من اهل العلم والفضل وعلى اجمل سيرة فى الحزم والعدل وله ادب فائق وشعر رائق ذكرهم المؤلفون فى مطولاتهم وفى آخر ايامه اوصى بالخلافة لابنه ثم مات بعد ان حكم ثلاثا وثلاثين سنة واربعة اشهر وكانت وفاته فى شهر ربيع الآخر سنة ١٧٢ هـ وعمره تسع وخمسون سنة

الثانى هشام بن عبد الرحمن الداخل

تولى بعد موت ابيه بعهد منه ويكنى بابى الوليد وكان حسن السيرة متحليا بالعدل والفضل وكان يتشبه بعمر بن عبدالعزيز فى العدل والورع وكان يعود المرضى ويشهد الجنائز ويتصدق بالصدقات الكثيرة من ماله وربما كان يخرج فى الليالى المظلمة الشديدة المطر ومعه صرر الدراهم يتحرى بها المساتير وذوى البيوتات من الضعفاء وكان يبحث عن احوال امور عماله حتى اذا بلغه عن احدهم حيف عزله ولم يوله بعد ذلك ولم يزل كذلك معروفا بالعدل والفضل موصوفا بالحلم والجود الى ان توفى فى صفر سنة ١٨٠ هـ بعد ان حكم سبع سنين وسبعة اشهر وعمره تسعة وثلاثين سنة واربعة اشهر

الثالث الحكم بن هشام

استخلفه ابوه قبل موته وتولى وله من العمر اثنان وعشرون سنة وكان يكنى ابا العاص وكان منهمكا فى اللذات فى مبدأ عمره حتى انه اوقع باهل الريب وخاف منهم فجعل لهم محله متصله بقصره لما اتهمهم فى بعض امره وبعد ذلك قتلهم وهدم دورهم ومساجدهم ولم يزل كذلك متماديا فى طغيانه الى ان

احدث الفقهاء فى ايامه اشعار الزهد والحض على قيام الليل والادعية التى اودعوا فيها التعريض به مثل قولهم يأيها المشرق المتمادى فى طغيانه المصر على كبره المتهاون فى امر ربه افق من سكرتك وتنبه من غفلتك وكان هذا من جملة ماهاجه واوغر صدره عليهم وكانوا اشد الناس عليه فانهم كانوا يحرضون عليه العامة ويشجعونهم حتى قاموا عليه وكان بينه وبينهم ما كان فرجع عما كان عليه مخافة العزل او القتل واستقام فاستقامت له الامور وكبت اعداؤه وقمع الخارجين عليه.

ومنهم عماه سليمان وعبدالله ابنا عبدالرحمن وكانا فى بر العدوة فظفر بسليمان فقتله وصالح عبدالله خوفا منه وكانت مدة خلافته ستة وعشرين سنة وتوفى فى ذى الحجة سنة ٢٠٦ هـ وعمره اثنان وخمسون سنة وخلف تسعة عشر ابنا من صلبه.

الرابع عبد الرحمن بن الحكم

تولى بعد ابيه الحكم بن هشام ولما تم له الامر خرج عليه عم ابيه عبدالله البلنسى فتجهز له عبدالرحمن فلما بلغ ذلك عبدالله خاف فرجع الى بلنسيه ثم مات فى اثناء ذلك وبعد موته نقل عبدالرحمن اولاده واهله اليه بقرطبة وخلصت الخلافة لولد هشام بن عبدالرحمن وكانت مدة خلافته احدى وثلاثين سنة وستة اشهر وخلف خمسة واربعين ولدا وتوفى فى ربيع الآخر سنة ٢٣٨ وكان مولده سنة ست وسبعين ومائة ومدة ولايته احدى وثلاثون سنة وثلاثة اشهر

الخامس محمد بن عبد الرحمن

ولى بعد أبيه وكان فقيها فصيحا بليغا كثير الجهاد وهو صاحب وقعة طليطلة المشهورة التى قتل فيها آلاف من أعدائه وتوفى سلخ صفر سنة ٢٧٣ هـ وعمره

خمس وستون سنة ومدة ولايته أربع وثلاثون سنة واحد عشر شهرا وله ثلاثة وثلاثون ولدا .

السادس المنذر بن محمد بن عبد الرحمن

بويع له بعد موت ابيه بثلاث ليال فاحسن إلى الناس وعدل فيهم فأحبوه وكان جوادا يحب الشعر ويجيز الشعراء ولم تطل مدته بل مات بعد ان حكم سنة واحد عشر شهرا وكانت وفاته فى المحرم سنة ٢٨٥ﻫ بعد ان عمر اربعين سنة وخلف ستة ذكور وبعد موته بويع اخوه عبد الله بن محمد

السابع عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن

تولى يوم وفاة اخيه وكثرت فى ايامه الفتن والثورات بالأندلس فثار عليه ابن مروان ببطليوس وابن ناكيت بما رده وأب بن محمد بسرقسطة وطليطلة ومطرف بن موسى بن ذى النون الهوارى بشنت مرى وابن حفصون فى ششتر ومالقه ورنه وثوار اشبيلية وغيرهم ثم توفى فى ربيع الأول سنة ٣٠٠ﻫ ومده حكمه خمس سنين واحد عشر شهرا وله إحد عشر ابنا احدهم محمد المقتول الذى قتله ابوه فى حد من حدود الله وهو والد عبد الرحمن الناصر الذى تولى بعد جده .

الثامن عبد الرحمن الناصر لدين الله بن محمد بن عبد الله

ولى بعد جده ونزل بحضرة اعمامه وامام ابيه ولم يختلفوا عليه وهو اول من لقب بألقاب الخلفاء من الأمويين وخوطب بأمير المؤمنين وكانوا يخاطبون قبله بالامراء وابناء الخلائف وكان شابا فطنا فاستقل بالأمر منفردا دون اعمامه واعمام ابيه وهابه الناس وسكن الاضطراب بالأندلس وقاتل المخالفين له حتى اذعنوا واستقامت الامور فى الاندلس فى نيف وعشرين سنة من ملكه ودامت

ايامه خمسين سنة ونصفا شيد فيها ملك بنى امية هناك حتى صارت مدينة قرطبه حاضرة الاندلس منبع العلوم والآداب تضارع بغداد اذ ذاك وبعد ان اخضع تلك الأقاليم وعلا سلطانه فيها شرع فى تشييد المبانى الفاخرة والقصور الشاهقة واختط مدينة الزهراء واتخذها دار ملكه وانشأ بها من القصور الشاهقة والمبانى العجيبة والبساتين الكثيرة ما فاق عن عمل اجداده وجعل فيها دورا للصناعة على اختلاف انواعها وغير ذلك مما لايكاد يحصى ولم يزل مجدا فى الأعمال العظيمة حتى توفى ٣٥٠ هـ وعمره ثلاث وسبعون سنة وولى بعده ابنه الحاكم

التاسع الحاكم بن عبد الرحمن الناصر لدين الله بن محمد

تولى بعد وفاة عبد الرحمن الناصر فطمع الجلالقة فى الثغور فغزاهم فعقدوا معه صلحا وهابوه وانتظم الأمر بينه وبينهم

وفى عصره تقدمت الفنون بأسبانيا وكان مغرما بجمع الكتب النفيسة ولم يكن يدخر شيئا فى سبيل الحصول عليها من الجهات البعيدة ولذلك كان يرسل الى جميع الأقطار العربية إناساً ينسخون له جميع المؤلفات الجديدة والكتب المفيدة ولذلك حصل على مقدار عظيم منها لم يتوفر لأحد غيره من ملوك عصره وجعل بقصر مروان بقرطبة مكتبة واسعة ونظر عليها أحد أخوته ولعطاياه الوافرة والحظوة التى كان ينالها عنده أصحاب العلوم على اختلاف درجاتهم وطبقاتهم قدم عليه من الأقطار كثير منهم وزادوا فى عصره عما كانوا أيام أبيه حتى أنه لكثرة الرغبة فى العلوم لم تكن خاصة بالرجال بل نبغ فيها كثير من النساء وبالجملة فإن عصره كان عصراً زاهرا أزدهت فيه العلوم بالاندلس وبلغت فيه المدينة العربية أوج الكمال وكانت وفاة هذا الخليفة الذى بكته

الأقلام ولبس عليه العلم ثرب الحداد سنة ٣٦٦ ه ومدة خلافته خمس عشر سنة وخمسة أشهر وعمره ٦٣ سنة وسبعة أشهر .

العاشر هشام المؤيد بن الحكم

تولى بعد أبيه بعهد منه وله من العمر عشر سنين ولقب المؤيد بالله واختلت الأمور فى أواخر أيامه وقامت عليه الرعية حتى قبض عليه وحبس ثم هدأت الفتن وعاد الى الخلافة ثانيا وذلك أنه لما ولى الأمر تحجب له المنصور أبو عامر محمد بن أبي عامر المعافرى وإبناه المظفر ثم الناصر فلما حجب له أبو عامر حجبه عن الناس فلم يكن يراه أحد ولا يصل اليه شيء من أحوال الناس وأخبارهم وقام بالنيابة عنه حق القيام وكان ذلك بأمر والدته وعدل فى الرعية وغزا وساعدته المقادير ففتح كثيرا من البلاد وامتلأت بلاد الاندلس بالغنائم والرقيق وجعل أكثر جنده منهم وكانوا يعرفون بالعامريين ومنهم واضح الفتى وخيران المشهوران بالشجاعة والقوة وكانا من أشهر قوادهم وأدام الله الحال على هذا المنوال ستة وعشرين سنة غزا فيها اثنين وخمسين غزوة كان النصر فيها حليفه ثم توفى سنة ٣٩٢ وكانت خصاله حميدة ومآثره عديدة حسن الرأى والتدبير منصورا فى مغازيه ولما مات (ولى الأمر بعده أبنه عبد الملك الملقب بالمظفر وهو الحادى عشر فسار كسير أبيه إلا أنه مات بعد سبع سنين من توليته (وولى بعده أخوه عبد الرحمن الملقب بالناصر) وهو الثانى عشر فسلك طريقا غير طريقتهما وأخذ فى السكر وغير ذلك من سفاسف الأمور وطمحت نفسه للخلافة فدس الى المؤيد من يخوفه منه إذا لم يعهد له بها فعهد له فحقد الأمويين عليه ولم يزالوا متربصين به الدوائر مصرين على الخروج عليه إلى أن انتهزوا فرصة غياب الناصر فى بعض مغازيه فخلعوا طاعة المؤيد وبايعوا

محمد بن هشام بن عبد الجبار بن الناصر لدين الله ولقبوه بالمهدى ولما بلغ الخبر الناصر رجع وقاتل حتى قتل وكفى الله الناس شره .

الثالث عشر محمد بن هشام الملقب بالمهدى

تولى آخر جمادى الآخرة سنة ٣٩٩ هـ ولما تم له الأمر وملك قرطبة أخذ المؤيد وحبسه فى القصر أولا ثم أخرجه منه بعد ذلك وأخفاه وأشاع أنه قد مات ثم أظهره بعد ذلك وكذب نفسه أمام الناس وكانت مدة المؤيد الى أن حبس ثلاثا وثلاثين سنه وأربعة أشهر ثم أنتقد الناس على المهدى أشياء منها إنه كان يضع النبيذ فى قصره فسموه نباذا ومنها فعله بالمؤيد مافعله وإنه كان كذابا متكونا ومنها إنه كان مبغضا للبربر فقاموا عليه واستعانوا عليه بملك قشتاله (وهو العنس الخامس) وكان ذلك غاية أمنيته لأنه كان يود ضعف دولتهم حتى يتمكن من زوالها فامده بجيش عرمرم وذهب منه الى قرطبة فحاربوا المهدى وقتلوا من جنده نحو عشرين ألفاً وغلبوه وخلعوه وبايعوا سليمان بن الحكم ولقب نفسه المستعين بالله .

الرابع عشر سليمان بن الحكم المستعين بالله

بويع بالخلافة فى منتصف شوال سنة اربعمائة هجرية ولما تم له الأمر سار الاعداء واستعان بهم فاعانوه وساروا معه الى قرطبة وكان هذا العمل من اسوأ أفعالهم ومن أفظع غلطاتهم فاقتتلوا مع المهدى بقبشيح وحصلت بينهم الواقعة المشهورة التى قتل فيها من المسلمين مالا يحصى عدده ثم أنهزم المهدى وفر إلى قرطبة وتحصن بها ودخل سليمان البلد وحصره فى القصر فلما رأى المهدى مانزل به من الضيق أظهر المؤيد الذى كان قد اخفاه من قبل وأشاع أنه قد مات ظنا منه أنه يخلع هو والمستعين ويرجع الأمر الى المؤيد فلم يوافقه أحد لاعتقادهم أن المؤيد قد مات فلما أعياه الأمر وضاقت به الحيل احتال فى

الهروب فهرب سرا وأختفى ودخل المستعين النصر وأغار البربر والروم على قرطبة فنهبوا وسلبوا وأسروا عدداً عظيما من أهلها وأخذت قوة المسلمين فى الضعف وفرح بذلك اعداءهم الذين كانوا لايزالون يتربصون بهم الدوائر التى تدور عليهم .

عود المهدى وقتله وعود المؤيد

لما اختفى المهدى فر الى طليطله وجمع الجيوش وسار الى الفونس مستنجدا به فأنجده وجمع له الجيوش وسار بهم الى قرطبة فخرج إليهم المستعين واقتتلوا قتالا شديدا فانهزم المستعين ومن معه بعدما قتل من الطرفين كثير ومضى المستعين الى شاطبة ودخل المهدى قرطبة وجدد البيعة لنفسه وجعل الحجابة الى واضح الفتى ثم أن جماعة من العامرين كانوا مع المستعين بالله فارسلوا إلى المهدى يطلبون الدخول فى طاعته بشرط أن يجعلهم فى جملة رجاله فاجابهم فلما دخلوا قرطبة استعانوا بواضح الفتى على قتله المهدى فاجابهم فدخلوا عليه قصره فقبضوا عليه وأخذوه أسيرا ثم أخذوا المؤيد وأجلسوه مجلس الخلافة وبايعوه فاحضر المهدى بين يديه وعدو له ذنوبه ثم أمر بقتله فقتل وطافوا برأسه فى قرطبة وكان عمره ثلاثة وثلاثين سنة .

واستمر المؤيد فى ملكه الى أن أتفق البربر مع سليمان بن الحكم بن سليمان ابن عبد الرحمن الناصر الأموى واعادوه إلى الخلافة ولقب نفسه المستعين بالله فاخرج المؤيد من قصره بقرطبة ولم يعلم له مقر بعد ذلك وبقى سليمان المستعين بالله يدبر الأمر الى سنة ٤٠٧ هـ ثم خرج عليه أحد القواد المسمى خيران العامرى من أصحاب المؤيد ومعه كثير من الناس وجرى بين الفريقين قتال كانت عاقبته هزيمة سليمان وأخذه أسيرا وبقيت قرطبة فى يد خيران أن تولى على بن حمود العلوى .

(انقراض الدولة الأموية من الأندلس وأخبار الدولة العلوية بها)

لما علم على بن حمود العلوى خروج خيران العامرى على سليمان وكان ابن حمود وقتئذ مستولا على سبتة وبينه وبين الأندلس (عدوه المجاز) وكان أخوه القاسم بن حمود على الجزيرة الخضراء طمع فى حكم الأندلس فعبر من سبتة إلى مارقه فاجتمع إليه خيران وغيره وبايعوه على طاعة المؤيد إن ظهر خبره ثم أنه لما تم له الأمر أحضر سليمان المستعين بالله وقتله هو وأخوه وأبوه وأظهر موت المؤيد وبايع لنفسه ولقب نفسه بالمتوكل على الله .

وقيل الناصر لدين الله وهو على بن حمود بن أبى العيش ميمون بن احمد بن على بن عبد الله بن عمر بن ادريس بن عبد الله بن الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنه ثم أن خيران خرج من طاعة بن حمود لأنه إنما وافقه طمعا فى المؤيد بقصر قرطبة وإعادته إلى الخلافة وسار خيران من قرطبة بطالب شخصا من بنى أمية يقيمه فى الخلافة إلى أن لقى عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر كان فى (جيان) مستخفيا فبايعه ولقبه بالمرتضى (وهو الثالث عشر من الأمويين بالأندلس) .

واجتمع إلى عبد الرحمن المذكور أهل شاطبه وبلنسيه وطرطوشة مخالفين على على بن حمود فلم ينتظم لعبد الرحمن أمر وجمع على ابن حمود جموعه وقصدهم من قرطبة وبرز العساكر إلى ظاهرها .

ودخل الحمام ليخرج منه ويسير بعد خروجه منه فوثب عليه غلمانه وقتلوه فى الحمام فى ذى القعدة سنة ٤٠٨ ﻫ وعمره ٤٨ سنة بعد أن ولى الأمر سنة وتسعة أشهر .

ثم تولى بعده أخوه القاسم بن حمود فهو أكبر من أخيه بعشرين سنة وتلقب بالمأمون وملك قرطبه وغيرها من البلاد إلى سنة ٤١٢ ﻫ

ثم سار القاسم من قرطبه إلى اشبيلية فخرج عليه ابن أخيه يحيي بن على بن حمود بقرطبة ودعا إلى نفسه وخلع عمه فأجابوه فى أول جمادى الأولى سنة ٤١٢ ﻫ وتلقب بيحيي المعتلى وبقى بقرطبة حتى سار إليه عمه القاسم من اشبيليه فخرج يحيي من قرطبة إلى مالقه والجزيرة الخضرة فاستولى عليهما سنة ثلاثة عشرة وربعمائة فى ذى الحجة .

ودخل القاسم بن حمود قرطبة فى ذلك التاريخ وجرى بينه وبين أهلها قتال أدى إلى اخراجه منها فسار إلى سريش فقصده ابن أخيه يحيي هو وأتباعه حتى قبضوا عليه وحبسوه فبقى محبوسا إلى أن مات وبعد ذلك خرج أهل أشبيلية عن القاسم وابن أخيه يحيي وقدموا عليهم قاضى أشبيليه وهو أبو القاسم محمد بن اسماعيل بن عباد النخلى وبقى إليه أمر أشبيلية وكانت ولاية القاسم بن حمود بقرطبة إلى أن قبض عليه وحبس ثلاثة أعوام وعدة أشهر وبقى محبوسا إلى أن مات سنة ٤٣١ ﻫ

الخامس عشر المستكفى

لما قتل المستظهر بويع بالخلافة محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن الناصر ولقب بالمستكفى ثم خلع بعد سنة وأربعة أشهر فهرب وسمى فى الطريق فمات .

ثم اجتمع أهل قرطبة على طاعة يحيي بن على حمود العلوى وكان بمالقه يخطب له بالخلافة ثم خرجوا عن طاعته سنة ٤١٨ ﻫ وبقى يحيي كذلك مدة ثم سار من مالقه إلى أرمونه وأقام بها محاصرا لأشبيلية إلى أن قتل فى المحرم سنة ٤٢٧ ﻫ

AMERICAN UNIVERSITY LIBRARY OF BEIRUT

السادس عشر من الامويين المعتمد بالله

لما خلع أهل قرطبة طاعة يحي بايعوا هشام بن محمد عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر الأموى ولقبوه بالمعتمد بالله سنة ٤٢٨ هـ وجرى فى أيامه فتن أدت إلى خلعه سنة ٤٣٢ هـ وسار مخلوعا إلى سليمان بن حمود الجذامى وأقام عنده حتى مات هشام سنة ٤٣٨ هـ

ثم جاء شخص بعد هشام اسمه أمية وهو من ولد عبد الرحمن الناصر وطلب البيعة لنفسه فقالوا له نخشى عليك أن تقتل كسابقيك لأن السعادة قد ولت عنكم يابنى أمية فقال بايعونى اليوم واقتلونى غدا فبايعوه فلم ينتظم له أمر واختفى عن أعين الناس وكان هذا الاختفاء آخر العهد به .

ثم أن بلاد الأندلس وتوابعها قسمها أصحاب الاطراف والرؤساء وصارت ملوكها أشبه بملوك الطوائف ونشأ عن ذلك انقراض الدولة الأموية من الأندلس ثم اضمحل الاسلام بها بعد ذلك وخرج المسلمون منها وزالت تلك الدولة العظيمة ضحية الخلاف التى حصل بين ملوكها وخلفائها التى كان لها من الآثار العظيمة والمآثر الجليلة مايدهش الابصار فوقعت فى يد مخالفيهم فى الدين ففعلوا بهم من الأفعال مالا عين رأت ولا أذن سمعت والملك لله الواحد القهار يؤتيه من يشاء من عباده والمفرط أولى بالخسارة التى تحيق به أيا كانت عظمتها

ومن رعى غنما من أرض مسبعه ونام عنها تولى رعيها الأسد
ولا ينفع الندم بعد ذلة القدم

ملوك الطوائف

لما لم يبق بالأندلس أمر خلافه منتظم وتفرقت البلاد ووجد فيها مايسمى ملوك الطوائف .

LIBRARY

فكان بأشبيلية دولة بنى عباد وبطليوس دولة بنى الأفطس محمد بن عبدالله وبطليطلة دوله اسماعيل بن ذنون وبقسطلة دولة بنى هود وبطرشوشه لبيب العامرى وبلنسيه المنصور المعافرى وغير هؤلاء ممن استقبلوا بما بأيديهم من العظماء والولاة وكان هذا التفرق غاية رغبة آمال ملوك أسبانيا فى استرداد تلك البلاد التى نمت ثروتها وارتقت أحوال سكانها فى عصر الخلافة العربية والقلوب إذا اجتمعت والأيدى إذا تماسكت لم يقدر القوى على تفرقها فاذا تخاذلت وتفرقت سهل على القوى اخضاعها وتلاشيها سنه الله فى خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا فكان أول ما استرد من البلاد طليطلة استردها العنس السادس ملك قستالة من يد صاحبها القادر بالله بن المأمون بن يحيى بعد حصارها سبع سنين وأخذوا يستردون بعد ذلك الحصون التى تحمى تلك البلاد ويتحكمون فى الأمراء عليها كما يشاؤون ولما رأى ذلك المعتمد بن عباد أرسل إلى أمير المسلمين بالمغرب وهو كبير دولة الملثمين يوسف بن تاشفين يستنجد به ويطلب منه الاعانة والنصرة فلم يجبه فسار إليه بنفسه بعد ذلك فقال له ارجع إلى بلادك وتجهز لمقابلة العدو وإنى آت على أثرك ثم جهز يوسف الأساطيل وجمع الجنود وعبر البحر إلى الأندلس سنة ٤٧٩ ه فاجتمعت قوته مع قوة ابن عباد وأقبل إليهم الفنس السادس بجنوده وكانت بينهم حروب كثيرة هائلة تسمى بوقعة الزلاقة وكانت نتيجتها هزيمة العنس وجنوده هزيمة شديدة ولما تم النصر ليوسف رأى أوفق أمر لحال الأندلس أن يتولى على بلادها من يد ملوكها ونشلها من أيديهم لتشتت أمرهم فأخذ قرطبة وأشبيلية من يد ابن عباد وأجلاه إلى المغرب لحبسه حتى مات وأخذ غرناطه وغيرها من البلاد وبذلك استتب له الأمر وانقضت أمره ملوك الطوائف .

وصارت بلاد الاندلس بعد ذلك تابعـة لدولة الملثمين بالمغرب التى مقرهامراكش وهى المدينة التى بناها يوسف ابن تاشفين وجعلها عاصمة دولة الملثمين .

وكان يوسف حازما لامره ضابطا لمصالح مملكته مكرما لأهل العلم والدين وكثيرا ما كان يستشيرهم فى أموره وتوفى سنة ٥٠٠ هـ

وقام بأمر الملثمين بعده أخوه على وفى عهده استولى الافرنج على سرقسطة وكثير من حصون المسلمين وتوفى سنة ٥٣٩ هجرية ولم يأتى بعده من يحمى تلك الدولة المتنائية الأطراف لانهم قام ضدهم دولة أخرى فى بدء شبابها وهى دولة الموحدين التى قامت بدعوة المهدى عبدالله بن تومرت وكان يساعده عبدالمؤمن بن على وهو الذى تم على يديه الاستيلاء على مراكش وعلى جميع ما يملكه الملثمون وبدء بيعته سنة ٥٢٤ هـ

ولما تم له ملك المغرب أرسل جنوده تحملها الأساطيل لفتح بلاد الأندلس وأخذها من أيدى بقايا الملثمين فاستولوا عليها سنة ٥٤٥ هجرية واستردوا كثيرا من الحصون التى كان الافرنج قد أخذوها وانتصروا على الفنس ملك طليطله .

ولو مد لعبدالمؤمن فى أجله لكان استرد مدينة طليطله ولكن منيته قد وافته سنة ٥٥٨ هـ

ومن أثاره أنه بنى مدينة جبل طارق التى يملكها الانجليز الان وكان اسطوله مكونا من نحو مئة قطعة حربية .

وجاء بعده ابنه محمد ولم يتم له الأمر لأنه كان متصفا بما لايليق بمن يتولون أمر الأمة من اختلال الرأى والطيش وجبن النفس وشرب الخمر فخلعته أمته بعد خمسة وأربعين يوما من ولايته .

فتولى بعده أخوه يوسف بن عبدالمؤمن ولما تم له الأمر أرسل الجيوش الى جزيرة الأندلس فانقذوا منها عدة مدائن كان يحاصرها الأسبانيون وفتحوا غيرها ثم حضر اليها هو بنفسه سنة ٥١١ هـ وسلم شرف الأندلس من أولاد محمد بن مردنيش سنة ٥١١ هـ ورجع إلى اشبيليه وبنى بها مسجدا عظيما ثم رجع إلى افريقيه وعبر الأندلس ثانية لما بلغه أن الفنس ينازل مدينة قرطبة فسار ميمما نحو الشمال يريد محاصرة شنتوين وبينما هو يحاصرها قد فارقه جنده فى إحدى لياليه إذ خرج عليه المحصورون وقاتلوه فجرح جرحا بليغا وعاد إلى مراكش فتوفى أثناء عودته سنة ٥٨٠ هـ

وكان يوسف بن عبد المؤمن من الصفات العالية ما ينزل فى منزله كبار الملوك فقد كان عالما فقيها حافظا وكان يميل إلى الحكمة والفلسفة وبكتبه فخرا لأنه كان من أصحابه الفيلسوف الإسلامى الكبير ابن رشيد الذى كتب فى الفلسفة كتبا عظيما كان أهل أوروبا يرجعون اليها ويتعلمون منها .

وبعد وفاته بويع ابنه أبو يوسف يعقوب الملقب بالمنصور وفى عهده حصلت الحروب الصليبية وأنقذت نيرانها بين صلاح الدين يوسف الأيوبى وبين أهل أوروبا فى الشام ومصر وكان لصلاح الدين على خصومه فضل قوة فى البر إلا أن أسطوله لم يكن يمكنه أن يقاوم أسطول الأفرنج فارسل إلى يعقوب المنصور يستمده باسطوله ليعاونه .

ولكن للأسف أنه لم يخاطبه بأمير المؤمنين كما كان يلقب فاخذته العزة بالاسم ولم يمد صلاح الدين بشىء وهذا نهاية ما يحصل من ضيق العقل وسوء الفكر .

وكان للمنصور أعداء فى أفريقية يقلقون راحته فاشتغل بهم عن الأندلس

وما فيها فادى ذلك إلى تقوى الأسبانيين والبرتقاليين وتوسيعهم حدود بلادهم مما يلي المسلمين .

ولما علم بذلك يعقوب عبر الأندلس سنة ٥٩١ هـ بعسكر جرار فاتصل الخبر إلى الفنس التاسع ملك قشتاله فجمع جموعا كثيرة وأقبل بها نحو المنصور واجتمعا بمكان اسمه الاراك وانتهت الواقعة بهزيمة الفرنج هزيمة شديدة وهذه الواقعة من أعظم الوقايع كانت بين المسلمين والافرنج فى بلاد الأندلس ثم تقدم بعد ذلك وفتح عدة حصون بجهات طايطلة مثل قلعة رباح ووادى الحجاز وبحر مدريد .

وقد شيد المنصور فوق ذلك بالأندلس والمغرب كثيرا من المبانى الفاخرة وكثيرا من المساجد والمدارس ولولا ضنه على صلاح الدين بما طالبه منه لكان معدودا من أعظم ملوك المسلمين وفى سنة ٥٩٥ هـ اعتزل عن الملك وولى ابنه محمد الملقب الناصر لدين الله وفى عهده جمع ملوك الأندلس متحدين على غزو بلاد المسلمين وساعدهم على ذلك كثير من أهل أوروبا لأن البابا أنوسان الثالث بابا روما نادى بحرب المسلمين بعد أن استنجده ملك قشتاله فعبر اليهم الناصر بجند لم يجتمع لملك قبله ولكنه كان خليطا من أجناس شتى غير متلائمة .

وقد تقابل الجيشان بمكان يقال له حصن العقاب شمال جيان وانتهت الواقعة بهزيمة الناصر ومن معه من جند الأندلس والبربر وكان ذلك فى ١٥ صفر سنة ٦٠٩ وبتلك الهزيمة ذهبت قوة المسلمين من الأندلس

ولما عاد الناصر إلى بلاد المغرب عقد البيعة لولده يوسف الملقب بالمنتصر فاحتجب فى قصره حتى مات سنة ٦١٠ هـ

وفى زمن المنتصر فشل أمر الموحدين وضعفت دولتهم وآلت إلى الهرم واستولى الفنس التاسع ملك أسبانيا على حصون المسلمين وهزم حامية الاندلس منهم

ولما ضعف أمر الموحدين قامت بالأندلس آخر دولة بها وهى دولة بنى الأحمر .

دولة بنى الاحمر

ورأسها محمد بن يوسف بن نصر قام سنة ٦٢٩ ﻫ ثائرا على ابن هود المتغلب بشرق الأندلس وكان بينهما خطوب شديدة وفى الوقت الذى كانا يتنازعان فيه كان عدوهما يستولى على البلاد شيئا فشيئا فاخذ قرطبه سنة ٦٣٣ ﻫ واشبيليه سنة ٦٤٦ ﻫ بعد حصار دام سنتين وكان ابن الاحمر يساعد الاسبانيين فى هذا الحصار رجاء أن يساعدوه على خصمه ثم استولى العدو على طليطلة وسلب وطاريزه سنة ٦٥٩ ﻫ ثم على مرسيه سنة ٦٦٥ ﻫ ولم يزل يستولى على البلاد شيئا فشيئا إلى أن الجأ المسلمين إلى سيف البحر ما بين رنده غربا والبيره شرقا ولم يبق للمسلمين غير سيف البحر البالغ عرضه مرحله وهذا الجزء هو مملكة ابن الاحمر وقاعدته غرناطة ولم يزل بنوه يتوارثون امارة هذا الجزء وهم فيما بينهم يتنازعون وإذا أدركتهم صحوه من هذه الغفلة ورأوا فره عدوهم استعانوا بملوك افريقية من بنى مرين الذين ورثوا دولة الموحدين فيغيثونهم ببعض الغوث ولكن الجسم إذا لم يكن مستعدا للحياة لم تنفعه حيل الاطباء

وهكذا كان حال بنى الاحمر الذين اضروا بالمسلمين وضعفوا قوتهم وقد استولى الأسبانيون على مالته منه سنة ٨٩٢ ﻫ ثم على وادى آسن ثم عرض ملك الاسبانيين وهو فرندد الكاثوليكى على صاحب غرناطة أن يدخل فى طاعته مقابل جزية

يدفعها له وله الخيار أن يقيم فى أى بلاد الأندلس فاستشار رعبته فأبت عليه وما جاءت الصورى إلا بعد أن خوبث الدار وحينئذ أقبل العدو وحاصر غرناطة سنة ٨٩٦ ﻫ فأفسد الزرع وقلع الأشجار وهدم القرى : وبعد سبعة أشهر من الحصار اشتدت الحال على من هم بالبلد فما لها إلى الصلح وكتب بينهم وبين عدوهم شروطا وكانت أهمها تأمين الصغير والكبير فى النفس والأهل والمال وأبقاء الناس فى أماكنهم ودورهم ومنها إقامة شعائر دينهم على ما كانت عليه ولا يحكم على أحد منهم إلا بشريعته وأن تبقى المساجد كما كانت عليه ولا يدخل النصارى دار مسلم ولا يقبضوا أحدا وأن لا يتولى على المسلمين نصرانى أويهودى وأن يفك أسر من أسر فى غرناطة حيث كانوا ومن هرب من أثار المسلمين وذخل غرناطة فلا سبيل لهم عليه ومن أراد الجواز إلى العدوة لا يمنع ويجوزون فى مدة معينه فى مراكب السلطان لا يلزمهم إلا الكراء ثم بعد تلك المدة يعطون عشر مالهم ولا يؤخذ أحد بذنب آخر وألا يجبر من أسلم على الرجوع إلى النصرانية ولا يعاقب من قتل نصرانيا أيام الحرب ولا يكلف المسلم بضيافة جنود النصارى ولا يسفر لجهة من الجهات ولا يزيدون عن المغارم المعتادة وترفع عنهم جميع المظالم والمغارم المحدثة ولا يمنع مؤذن ولا مصل ولا صائم من أمور دينه وأن يوافق على كل الشروط صاحب رومه ويمضيه بخط يده .

وبذلك انتهى ملك المسلمين بالأندلس وصاروا رعية لصاحب قشتالة ونزع سلطان غرناطة أبو عبد الله منها وظل الاسبانيـــون يراعون الشروط مدة قليلة حتى تمكنت قدمهم وعظمت قوتهم وعلموا أن لا ناصر للمسلمين يمنعهم من العدوان عليهم عدلوا من مراعاة تلك الشروط وعادوا إلى الجور والعسف حتى حملوهم ما لا طاقه لهم به وهذا شأن كل متغلب على عدوه والمفرط أولى بالخسارة والحكم لله ما يرضاه بحكمه .

الدولة العباسية

حكمت هذه الدولة نحو ثمانمائة وتسع من السنين.

وكانت دولة كثيرة المحاسن جمة الفوائد أسواق العلوم فيها رائجة وبضائع الآداب فيها رابحة وشعائر الدين فيها مقامه والخيرات فيها متدفقة والحريات مرعية والثغور محمية مع كثرة ما حصل فى أوائلها من الاضرابات وسفك الدماء ولم تزل آخذة فى الرفعة إلى أن سامت السماء علوا وشرفا وبقيت كذلك حتى كانت أواخر أمرها فاضطربت واضمحل حالها لأسباب سنبينها وأصل ملوكها من نسل العباس عم النبي ﷺ

وكان مقر ملكهم بالعراق أيام نشأة الدولة وقوتها وأقام بها منهم سبعة وثلاثون خليفة ومده حكمهم بالعراق خمسمائة أربعة وعشرين سنة من سنة ١٣٢ إلى سنة ٦٥٦ .

ثم انتقلوا إلى مصر بعد اضمحلال شركهم وحكم بها منهم خمسة عشر خليفة ومده حكمهم ٢٨٥ سنة من سنة ٦٥٠ هـ حين أتى إلى مصر المستنصر بالله وأثبت سبه فى مدة السلطان بيبرس فبايعه وبايع له الناس إلى سنة ٩٤٥ هجرية إلى أن مات فيها المتوكل على الله آخرهم بمصر وبموته انقرضت الخلافة العباسية من جميع الأرض ولم يكن لهم من الخلافة فى ذلك الوقت الا الاسم والدعاء فى الخطبة لأنهم كانوا يفردون فى محل وتجرى عليهم النفقات فيه

وأولهم بالعراق أبو العباس السفاح

(من سنة ١٣٢ إلى سنة ١٣٦ هـ)

وهو عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بويع له بالكوفة لثلاث ليال خلت من ربيع الأول سنة ١٣٢ هـ .

ولما تمت له البيعة صلى بالناس صلاة الجمعه وقال فى أول خطبة خطبها الحمد لله الذى اصطفى الاسلام دينا فكرمه وشرفه واختاره وأيده بنا وجعلنا أهله وكهفه وحصنه والتوابين به والغرابين عنه ثم ذكر قرابتهم من رسول الله ﷺ إلى أن قال فلما قبض الله نبيه قام بالأمر بعده أصحابه إلى أن وثب بنو حرب ومروان فجاروا فأملى لهم حينا ثم استرفوا فانتقم الله منهم بأيدينا ورد لنا حقنا ليمن به على الذين استضعفوا فى الأرض وختم بنا كما استفتح بنا وما توفيقنا أهل البيت الا بالله

وكانت سياسته تمكين دولته وتقويه شوكته بتدمير جميع الأمويين فاسرف فى القتل . وسفك الدماء حتى لقب نفسه السفاح فى خطبه خطبها حيث قال وهو على المنبر فى بعض خطب خطبها .

أنا السفاح المبيح والثائر المنيح

وهو أول من اتخذ الوزراء فى الاسلام فجعل أبا مسلمة حفص بن سليمان وزيرا له وجعل الانبار مقر خلافته وكان عامله على مصر صالح بن على بن عبد الله بن عباس .

وكان دخوله اليها لثمان خلت من المحرم سنة ١٢٣ ﻫ ولما استقر بها بعث وفدا من أهلها ببيعتهم له وأصدر اليه السفاح أمرا بقتل من وجد من بنى أمية بمصر فقتلهم وهدم دورهم وأهلك كثيرا من شيعتهم وحمل طائفة منهم إلى العراق فقتلوا بقلنسوة من أرض فلسطين وأمر الناس بصلاتهم وقسمت الصدقات على اليتامى والمساكين ثم صرفه السفاح عنها بجعله أميرا على فلسطين وولى مكانه أبا عون بن عبد الملك مستهل شعبان سنة ١٢٣ ﻫ فمكث بها قليلا ثم أعيد اليها صالح بن على ثانيا

ثم مات السفاح يوم الأحد لثلاث عشر خلت من ذى الحجة سنة ١٣٦

هجرية وعمره اثنين وثلاثين سنة وستة أشهر ومده خلافته سنتين وسبعة أشهر وكان كريما وقورا كاملا وعاقلا كثير الحياء إلا إنه كان مسرفا فى القتل ساءت سيرته وفى آخر أمره عهد بالخلافة إلى أخيه المنصور فتولى بعده .

الثانى من العباسيين المنصور

١٣٦ — ١٥٨ هـ

وهو أبو جعفر عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس بويع له بالخلافة بعد موت أخيه السفاح ولم يستتم له الامر حتى قتل كثيرا من الناس

وأول عمل بدأ به أنه أمر بقتل أبى مسلم الخراسانى صاحب دعوتهم وممهد مملكتهم ليستقر له الامر ولم ينازعه أحد فى الملك وقال لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا

وصنع أبو مسلم ماصنع من التحريض على قتل آلاف من الناس ولم يعلم أن الدنيا غدور والدهر عثور وانه

ماطار طير وارتفع   إلا كما طار وقع

وإن الله تعالى هو الرقيب على عباده ولاريب فى أنه يجازى المحسن باحسانه والمسيء باساءته وانه قد ورد اعمل ماشئت كما تدين تدان وقد غفل أيضا عن قول الشاعر

الخير بالخير والدنيا مكافأة   والشر بالشر مثقالا بمثقال

كفانا الله شر الزلل فى القول والعمل .

وهو الذى حمل الامام أبو حنيفة على القضاء فلم يقبل ذلك وهو أبو الخلفاء العباسيين الذين أتو بعده وهو أول خليفة قرب المنجمين ليعمل بأحكام النجوم وأول من أمر بترجمة كتب أجنبية الى اللغة العربية فترجمت له كتب كثيرة كرسائل أرسطاليس فى المنطق وغيرها وكتب بطليموس فى الهيئة وكتاب

كايله ودمنه وفى عصره أيضا ابتدىء بتدوين العلوم وتصنيف الكتب من حديث وفقه وتفسير فصنف ابن جرير بمكة تفسيره الكبير ، وغيره من المصنفات وصنف الامام مالك بن أنس الموطأ فى الحديث بالمدينة والاوزاعى بالشام وبن أبى عمروبة وحماد بن مسلمة وسيفان الثورى بالكوفة وصنف أبو اسحق المغازى وصنف أبو حنيفة الفقه ورتبه ترتيبا حسنا وكثر التدوين فى علوم مختلفة فدونت كتب فى العربية من لغة وصرف ونحو ومعان وبيان وتاريخ وغير ذلك .

وكانوا قبل ذلك يتعلمون ويعلمون غيرهم من كتب غير مرتبة ويعولون على محفوظاتهم من أشياء مشتته صعبة التناول وفى مدة حكمه عظمت هيبته فى النفوس ودانت له البلاد والعباد ولم يبق خارجا عن حكمه الا بلاد الاندلس فمد اطاعه اليها ولكنه لم تساعده الظروف على ضمها لملكه لما كان لعبد الرحمن الأموى صاحبها من القوة وحسن التدبير ماكان كما سبق التنبيه عليه وفى سنة مائة خمسة وأربعين هجرية أسس مدينة بغداد وصارت هى قاعدة الملك عن عهده وسماها دار السلام وسبب تأسيسه لها وجعلها عاصمة ملكه هو بغضه لاهل الكوفة لأنه كان لا يأمنهم على نفسه لميلهم إلى الفاطميين الذين هم من ذرية فاطمة الزهراء فخرج يوما يريد موضعا يسكنه هو وجنده فأختار الموضع الذى بنيت فيه مدينة بغداد ووضع بيده أول لبنة فى أثائها. وقال بسم الله والحمد لله والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ثم قال ابنوا على بركة الله وتم بناؤها وصارت من أعظم بلاد الاسلام رونقا وحضارة ومنها انتشرت جميع العلوم والمعارف فى سائر البلاد الاسلامية ووسع المسجد الحرام سنة ١٥٨ هـ وعمر مسجد الخيف بمنى

عماله على مصر

قد ولى على مصر عاملا من قبل يزيد بن حاتم قدم اليها فى منتصف ذى القعدة سنة ١٤١ ﻫ وأمره بغزو بلاد المغرب فسار اليها حسب أمر الخليفة وصالحه ملك الروم على الجزية وفى سنة ١٥٠ ﻫ خرج القبط بمدينة سخا فبعث اليهم جيشا فشتته القبط ورجع مهزوما فصرف عامله على مصر فى ربيع الأول سنة ١٥٢ ﻫ وكانت مدة ولايته بها سبع سنين وأربعة أشهر وولى عليها بعده عبد الله بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج الثقفى لعشره بقيت من ربيع الآخر سنة ١٥٢ ﻫ فأقبل على الخليفة لعشرة باقية من رمضان سنة ١٥٤ ﻫ واستخلف أخاه محمدا عليها فرجع فى آخر هذه السنة منها ومات وهو والى عليها فى مستهل صفر سنة ٢٥٥ ﻫ واستخلف أخاه محمدا عليها فكانت ولايته سنتين وشهرين فولى بعده محمد بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج ومات وهو وال عليها فى منتصف شوال وكانت ولايته عليها ثمانية أشهر واستخلف موسى بن على فولى موسى بن على باستخلاف محمد بن حديج وإقرار الخليفة على توليته وكان رجلا صالحا يسير للمسجد ماشيا ويحدث الناس باحاديث الرسول ﷺ فيكتب الناس عنه ما سمعوه من الأحاديث النبوية وبقى واليا عليها إلى أن مات المنصور وهو محرم بقرب مكة لست خلت من ذى الحجة سنةماية وثمانيــة وخمسين هجرية وله من العمر ثلاثة وستين سنة ومدة خلافته اثنى عشر ســنة وتولى بعده ابنه محمد المهدى بعهد منه .

الثالث من العباسيين المهدى

(١٥٨ — ١٦٩ ﻫ)

وهو محمد المهدى بن أبى جعفر المنصور بويع له بالخلافة يوم وفاة أبيه

بعهد منه وكان يومئذ ببغداد سنة ١٥٨ هـ وكان شهما فطنا كريما شديدا على أهل الالحاد والزندقة وكان يجلس فى أوقات مخصوصة لرد المظالم وفى سنة ١٦٥ هـ سير إلى أبنه الرشيد لغزو الروم سار بجيش حتى وصل الى خليج القسطنطينية فصالحه الروم وقتئذ وكانت ملكة الروم يومئذ هى (ايرينى) امرأة الملك لزون ولذلك قد جزعت من جيوش المسلمين وطلبت الصلح من الرشيد فصالحها على أن تدفع جزية مخصوصة فقبلت ذلك .

وأقام المهدى بريدا بين مكة والمدينة واليمن بغالا وأبلا وفى سنة ١٦٠ هـ حج المهدى رحمه الله وكسى الكعبة وطيبها بالمسك والعنبر من أسفلها إلى أعلاها ومن داخلها وخارجها ولم تكن الكعبة يومئذ فى وسط المسجد فاشترى دورا كثيرا وأضافها اليها حتى بذلك أمكنه توسيعها وزاد فى الحرم الجانب الشمالى الشامى واليمانى حتى بذلك صارت الكعبة المعظمة فى وسط الحرم وهو أول من حمل الثلج إلى مكة وأمر باصلاح طريقها وحفر البرك والمجارى لجمع ماء المطر وأول من عين صرة من المال لاهل الحرمين الشريفين وأرسلها لهم

عماله على مصر

أنه قد أقر موسى بن على الذى كان واليا عليها من قبل أبيه وبقى بها الى سابع عشر من ذى الحجة سنة ١٦١ هـ وكانت ولايته عليها ست سنين وشهرين ثم عزلة عنها وولى بدله عيسى بن لقمان فقدم اليها لثلاثة عشر ليلة بقيت من ذى الحجة سنة ١٦١ هـ ثم صرفه عنها لاثنتى عشرة ليلة من جمادى الأولى سنة ١٦٢ هـ فكانت مدة ولايته عليها أربعة أشهر ثم ولاها واضح مولى أبى جعفر فدخلها لست باقية من جمادى الأولى وصرفه عنها فى رمضان وولى منصور بن يزيد وهو بن خال المهدى فقدم اليها لاحدى عشرة ليلة خلت من رمضان سنة ١٦٢ هـ وصرفه عنها فى منتصف ذى الحجة وكان مقامه بها شهرين وثلاثة أيام ثم

ولى عليها يحي بن داود بن صالح من أهل حراسان فقدم اليها فى ذى الحجة وكان أبوه تركيا وكان من أعظم الناس هيبة وأشدهم على القتل والعقوبة فمنع الناس من غلق الدروب والحوانيت بالليل حتى جعلوا عليها شرائح من القصب لمنع الكلاب عنها ووضع حراس الحمامات أن يجلسوا فيها وقال من ضاع له شيء فعلى اداؤه له فكان الرجل يدخل الحمام فيضع ثيابه ويقول يا أبا صالح احرسها وبقيت على هذا المنوال مدة ولايته وأمر الأشراف والفقهاء وأهل التوبات بلبس القلانس الطوال والدخول بها عليه يوم والخميس بلا اردئة وكان أبى جعفر المنصور اذا ذكره يقول هو رجل يخافنى ولا يخاف الله وبقى بها إلى المحرم سنة ١٦٤ هـ ثم صرفه عنها وولى بدله سالم بن سواده التميمى على الصلات ومعه أبو قطيعة اسماعيل بن ابراهيم على الخراج لاثنتى عشرة ليلة خلت من محرم سنة ١٦٥ هـ ثم ولاها لابراهيم بن صالح بن على بن عبد الله بن عباس على الصلات والخراج معا فقدم اليها فى المحرم من هذه هذه السنة وابتنى دارا عظيمة وخرج يحية بن المعصب بن الأصبع بن عبد العزيز بن مروان بالصعيد ودعا إلى نفسه بالخلافة فتراخى عنه ابراهيم ولم يحفل بامره فاستفحل وملك الصعيد فبلغ المهدى فسخط عليه وعزله عنها لسبع خلت من ذى الحجة سنة ١٦٧ هـ ثم ولى بعده موسى ابن مصعب بن الربيع من أهل الموصل فقدم اليها لسع خلت من ذى الحجة فرد ابراهيم وأخذ منه ماأخذ ماعمل له ثلاثة الاف دينار ثم صيره الى بغداد وشدد موسى فى الخراج وزاد على كل فدان ضعف ماكان عليه وأرتشى فى الأحكام وجعل خراجا على أهل الأسواق وعلى الدواب فكرهه الجند ونابذوه وسارت قيس واليمانية وكانوا أهل الفسطاط فاتفقوا عليه وبعث بجيش الى قتال وحيه بالصعيد وخرج هو فى جند من مصر لقتال الخارجين عليه فلما التقى الجيشان انقطع أهل مصر بأجمعهم وأسلوه لاعدائه فقتل لتسع خلت من

شوال سنة ١٦٨ ﻫ وكانت مدة ولايته عشرة أشهر وكان ظالما غشوما سمعه الإمام الليث بن سعد يقرأ فى خطبته إن أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها فقال الليث اللهم لا تمقتنا وبعد قتله تولى عسامه بن عمرو بأستخلاف موسى بن مصعب وبعث الى وحيه جيشا مع أخيه بكار بن عمرو لحاربه يوسف بن نصير وهو على جيش وحيه فتطاعنا فوضع يوسف الرمح فى خاصرة بكار ووضع بكار الرمح فى خاصرة يوسف فقتلا معا ورجع الجيشان مهزومين وذلك فى ذى الحجة منها وصرف عنها عسامه لثلاثة عشرة خلت منه بكتاب ورد عليه من الفضل بن صالح لأنه ولى مصر بدله وقد استخلفه نخلفه الى آخر المحرم سنة ١٦٩ ﻫ ثم قدم الفضل بن صالح بن على بن عبد الله بن عباس فى سلخ المحرم فى جيوش الشام الى مصر .

ثم مات المهدى فى المحرم هذا سنة ١٦٩ ﻫ وله من العمر ثلاثة وأربعين سنه ومدة خلافته عشرين سنة وشهر واحد فتولى بعده أبنه الهادى .

الرابع الهادى

١٦٩ — ١٧٠ ﻫ

وهو موسى الهادى بن محمد المهدى بويع له بالخلافة بعد موت أبيه سنة ١٦٩ ﻫ ولما تم له الأمر جد فى خلع أخيه الرشيد من ولاية العهد التى عهد بها أبوهما وجعل البيعة لأبنه جعفر فلم يستطع ذلك وفى مدته ظهر الحسين بن على ابن الحسن بن الحسين رضى الله عنهم بالمدينة فى جمع من أهل بيته وجرى بينهم وبين عامل الهادى على المدينة وهو عمر بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب قتال فانهزم عمر وبايع الناس الحسين ثم خرج الحسين ومن معه الى مكة وكان قد حج جماعة من بنى العباس منهم سليمان بن أبى جعفر المنصور

وأنضم إليه شيعتهم ومواليهم واقتتلوا قتالا شديدا فقتل الحسين وانهزم أصحابه بعد قتل كثير منهم وأفلت منهم أدريس بن عبد الله بن الحسن بن على رضى الله عنهم لحضر وعلى بريدها واضح الشيعى مولى بنى العباس فجعل أدريس على البريد على المغرب إلى أرض طنجة فبلغ الهادى ذلك وبقى أدريس حتى أرسل اليه الرشيد فى خلافته الشماخ الناعى فسمه وكان لأدريس محظية من محاظيه حبلى فولدت بعده ولدا سموه أدريس باسم أبيه ولم يزل هناك حتى كبر واستقل بملك تلك البلاد وكثرت ذرية الحسن فيها .

عماله على مصر

وأما مصر فانه أقر الهادى فيها الفضل بن صالح الذى كان واليا عليها من قبل أبيه المهدى وبقى فيها متخوفا ممن كان فيها من المخالفين ومن خروج وحيه ولم يزل مجدا فى طلب وحيه حتى قدر عليه واسره وسبق الى الفسطاط فضرب عنقه وصلبه وكان ذلك فى جمادى الآخرة سنة ١٦٩ ﻫ وبموته أنقطعت الفتن وتمت الراحة وبلغ الفضل أن الخليفة يريد عزله فلم يصدق ذلك وكان يقول أنا أولى الناس بولاية مصر لقيامى بأمر وحيه وقتله الذى عجز عنه غيرى فبينما هو كذلك إذ ورد عليه جواب يطالب به صرفه عنها فندم على قتل وحيه وعلى ماتحمله من التعب والمشاق وكأنه قد نسى قول القائل .

أن الملوك بلاء اينما حلوا فلا يكن لك فى اكنافهم ظل

وهذا التغيير الكثير للعمال كان سببا فى عدم الثقة بهم وعدم التفات العمال الى المصلحة العمومية لعلمهم أنه مهما صنع العامل من بذل جهده فلا بد من تغييره فكيف يتعب نفسه فى شىء من مصالح الناس مع كونه مهددا بالعزل مهما صنع وكان هذا الأمر يحمل العمال أيضا على العمل لصالحه الذاتى واعتنائه بأموره الشخصية فقط ثم ولى بعده عليها على بن سليمان بن على بن عبد الله بن

عباس فقدمها سنة ١٦٩ ﻫ وبقى واليا عليها الى أن مات الهادى ببغداد فى منتصف ربيع الأول سنة ١٧٠ ﻫ وعمره أربعة وعشرين سنه ومدة خلافته سنة واحدة وثلاثة أشهر وتولى بعده أخوه الرشيد.

الخامس الرشيد

١٧٠ — ١٩٣ ﻫ

وهو هارون الرشيد بن محمد المهدى بويع له بالخلافة ليلة وفاة أخيه موسى الهادى سنة ١٧٠ ﻫ واستوزر يحيي البرمكى ومكنه هو وعائلته ثم نكبهم بعد ذلك وأخذ جميع أملاكهم واختلف المؤرخون فى سبب نكبتهم والغالب أنها لأمور سياسية قضت عليه بذلك.

وكان بينه وبين شرلمان ملك الفرنسيس مودة كثيرة وكان كلاهما يهادى الآخر فبعث شرلمان الى هارون عدة هدايا ليحمى النصارى الذاهبين الى بيت المقدس فاجابه الى ماطلبه وبعث له أقمشة نفيسة وعطرا وخشبا زكى الرائحة وفيلا وخيمة على هيئة خيام العرب وساعة كبيرة دقاقة تعجب منها أهل ديوانه لأنهم لم يمكنهم معرفة تركيبها وغير ذلك من المصنوعات النفيسة التى سبقت بها العرب غيرهم فى غابر الأزمان.

وغزا الرشيد الروم مراراً وأنتصر عليهم فى ثمانية حروب حضرها بنفسه وأشهرها غزوة هرقلة من بلاد الروم فى مدة ملكها (نيسيفور) حين أمتنع عن أداء الخراج الذى كانت تدفعه الملكة (أيرينى) وهزمهم فيها شر هزيمة وإعاد عليها الخراج كما كان.

وفى أيامه ظهر يحيي الحسنى بالديلم فأحضره وحبسه حتى مات وهاجت فتنة بدمشق بين المضريين واليمنيين وأستمر القتال بينهما بسببها سنتين وكان

تسكينها على يد جعفر البرمكى .

وكان الرشيد من أعظم الملوك سطوة وأكثرهم هيبة وكان عالما تقيا محبا للعلم والعلماء بلغ من الجود غايته ومن الحزم نهايته وكان يتصدق بكثير من ماله وأخذت الدولة الاسلامية فى زمنه شأنا كبيراً ورونقا عظيما لم تأخذه فى زمن غيره ممن سبقه من الملوك وكان يصلى كل يوم وليلة مئتى ركعة غير المفروض عليه لاينقطع عنها الا لعلة شديدة ويتصدق من خالص ماله كل يوم بألف دينار وكان عاقلا مهيبا حسن التدبير عالى الهمة راويا للأخبار والتواريخ يحب الشعر ويجيز الشعراء عليه ويميل لأهـــل الأدب والفضل وكان غير متحجب عن أصحاب الدعاوى والحاجات ساهرا على راحة الرعية وما أشيع عنه من الخمر والملاهى فغير متفق عليه وإنما رواه القصاصون على سبيل الفكاهات لميل النفس الى مثل هذه الحكايات الموضوعة وتبعهم بعض المؤرخين وعد ذلك العلامة ابن خلدون من غلطاتهم وأستدل على صحة قوله بان أوقاتهم كلها كانت مشغولة بالنظر فى القضايا التى ترد اليه من جميع المملكة الواسعة الأطراف والبت فيها بما يراه صالحا فاذا فرغ من ذلك تفرغ لمقابلة العظماء والفضلاء الواردين عليه وإنه كان يصلى كل ليلة مئة ركعة سوى الصلاة المفروضة عليه ومما يؤثر عنه أن أبا نواس قد دخل عليه وهو يصلى مرة ويتلو قوله تعالى ومالى لا أعبد الذى فطرنى فقال له سل نفسك فغضب عليه غضبا شديدا وقال له لك كل شىء إلا العبادة لئلا تدخل تحت قوله تعالى .

وإذا ناديتم الى الصلاة أتخذوها هزءا ولعبا وإنه كان يحج عاما ويغزو عاما فمن كانت هذه صفاته لايصح أن ينسب اليه الخمر والملاهى ونحن نوافقه على ذلك اقتداء بقول القائل .

أكتب محاسن ماترى   واحفظ محاسن ما كتبت

وفى مدته توفى الامام مالك وسيبويه النحوى وظهر رافع بن الليث من سمرقند مخالفا للرشيد فتوجه لقتاله وبينما هو سائر فى طريقه اذ اصابته حمى ولم تزل تتزايد عليه حتى الجأته الى الدخول فى مدينة طوس فاشتدت عليه ومات بها سنة ١٩٢ ﻫ ومده خلافته اثنان وعشرون سنة وشهران

عماله على مصر

أقر الرشيد عليها على بن سليمان بن على بن عبد الله بن عباس الذى كان واليا عليها من قبل الهادى فأظهر سليمان فى ولايته الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ومنع الملاهى والخمور وهدم الكنائس المستجدة بمصر وبذل له القبط فى تركها خمسمائة دينار فامتنع وكان كثير الصدقة فى الليل والنهار وأظهر أنه يصلح للخلافة وطمع فيها فسخط عليه الرشيد وعزله لأربع باقية من ربيع الاول سنة ١٧١ ﻫ وولى مكانه موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس على الصلات فأذن للقبط باعادة كنائسهم التى هدمها على بن سليمان وبنيت بمشورة الامام بن سعد وعبد الله بن لهيطه بن لهيعة ثم صرف عن مصر لأربع عشرة خلت من رمضان سنة ١٧٢ ﻫ فكانت ولايته عليها سنة وخمسة أشهر ونصف شهر ثم وليها مسلمة بن يحيى بن قرة بن عبد الله البجلى من أهل جرجان ثم صرف عنها فى شعبان سنة ١٧٣ ﻫ بعد أن وليها أحد عشر شهرا ثم ولى محمد بن زهير الأزدى على الصلاة والخراج لخمس خلت من شعبان فبادر الجند لعمر بن غيلان صاحب الخراج فلم يدفع فصرف بعد خمسة أشهر سلخ ذى الحجة سنة ١٧٣ ﻫ وولى داود بن يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب ابن أبى صفرة وقدم هو وابراهيم بن صالح بن على فولى داود الصلات وبعث ابراهيم لاخراج الجند الذين ثاروا من مصر فدخل لأربع عشرة خلت من المحرم سنة ١٧٤ ﻫ فأخرجت الجنود الى المشرق والمغرب فى عالم كثير فساروا إلى

البحر فأسرتهم الروم وصرف لست خلت من المحرم سنة ١٧٥ هفكانت ولايته سنة ونصف شهر ثم أعيد اليها موسى بن عيسى على الصلات والخراج فدخلها لسبع خلت من صفر سنة ١٧٥ ﻫ وصرف عنها لليلتين بقيتا من صفر سنة ١٧٦ﻫ فكانت ولايته الثانية سنة ثم ولى ابراهيم بن صالح بن على بن عبد الله عباس ثانيا فكتب الى أسامة بن عمرو فاستخلفه ثم قدم نصر بن كلثوم خليفة على الخراج مستهل ربيع الأول وتوفى أسامة لسبع بقيت من ربيع الآخر فقدم اليها روح بن روح خليفه لابراهيم على الصلات والخراج معا ثم قدم ابراهيم فى فى شعبان فكان مقامه بمصر شهران وثمانية عشر يوما فقام بالأمر بعده ابن صالح ابن ابراهيم مع صاحب شرطة خالد بن يزيد وبقى صالح بن ابراهيم بها إلى أن وليها عبد الله بن المسيب بن زهير بن عمر والعبى على الصلات لاحدى عشرة بقيت من رمضان سنة ١٧٦ ﻫ وصرف عنها فى رجب سنة ١٧٧ﻫ وولى اسحاق ابن سليمان بن على بن عبد الله بن عباس على الصلات والخراج معا فاستقل أمر الخراج وزاد على المزارعين زيادة أجحفت بهم فخرج عليه أهل الحوف فحاربهم فقتل كثير من أصحاب الحوف فكتب إلى الرشيد بذلك فعقد لهرثمة بن أعين وأرسله فى جيش عظيم فنزل الحوف فلقيه أهله بالطاعة وأذعنوا فقتل منهم واستخرج الخراج كله وصرف عنها فى رجب سنة ٩٣٧ ﻫ وولى هرثمة بن أعين على الصلات والخراج لليلتين خلتا من شعبان ثم سار إلى إفريقية لاثنتى عشرة خلت من شوال بعد أن أقام بمصر شهران ونصف الشهر ثم ولى عبد الملك بن صالح بن عبد الله بن عباس على الصلات والخراج فلم يدخل مصر واستخلف عنه عبد الله بن المسيب بن زهير العبى وصرف عنها آخر سنة ١٧٨ ﻫ فولى عبد الله بن المهدى بن محمد بن عبد الله بن عباس على الصلات والخراج لاثنتى عشرة خلت من المحرم سنة ١٧٩ ﻫ فاستخلف بن

المسيب ثم قدم لاحدى عشرة ليلة خلت من ربيع الأول وصرف فى شهر رمضان من هذه السنة فكانت ولايته تسعة أشهر وخرج من مصر لليلتين خلتا من شوال فأعاد الرشيد اليها عبد الله بن المهدى ثانيا على الصلات فارسل داود ابن عباس نائبا عنه لسبع خلت من جمادى الآخرة ثم قدم لأربع خلت من شعبان ثم صرف عنها لثلاث خلت من رمضان سنة ١٨١ ﻫ فولى اسماعيل بن صالح بن على بن عبد الله بن عباس على الصلات لسبع خلت من رمضان فاستخلف عنه عون بن رجب الخزاعى فقدم لخمس بقيت منه وكان مشهورا بالخطابة قال بن عفير مارأيت على هذه الأعواد أخطب من اسماعيل بن صالح ثم صرف عنها فى جماد الآخرة سنة ١٨٢ ﻫ فولى اسماعيل بن عيسى بن موسى بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس على الصلات فقدم لأربع عشرة بقيت من جمادى الآخرة وصرف عنها فى رمضان وولى الليث بن الفضل على الصلات والخراج فقدم لخمس من شوال ثم عاد الى الرشيد لسبع بقيت من رمضان سنة ١٨٣ ﻫ بالمال والهدايا واستخلف أباه الفضل بن على ثم عادفى آخر السنة السابقة الذكر وخرج ثانيا بالمال لتسع بقيت من رمضان سنة ١٨٥ ﻫ واستخلف هاشم ابن عبد الله بن عبد الرحمن بن معاويه بن جديج فقدمها لأربع عشرة خلت من المحرم سنة ١٨٦ ﻫ فأخذ خراج سنة وفرغ من حسابها وخرج بالمال إلى أمير المؤمنين هرون الرشيد ومعه الحساب ثم خرج عليه أهل الحوف وساروا الى الفسطاط فخرج اليهم فى أربعة آلاف مقاتل ليومين بقيا من شعبان سنة١٨٦ﻫ واستخلف عبد الرحمن بن موسى بن على بن رباح على الجند والخراج فواقع اهل الحوف فانهزم عنه الجند فبقى فى نحو المائتين فقط فحمل بهم وهزم القوم وبعث الى الفسطاط بثمانين رأسا وقدم فرجع أهل الحوف ومنعوا الخراج ثانيا فخرج ليث للرشيد شكواه وسأله أن يبعث معه جيشا فانه لايقدر على

استخراج الخراج من أهل الأحواف إلا بجيش فرفع محفوظ بن سليمان للرشيد أنه يضمن خراج مصر كله بغير صوت ولاعصا فولاه الرشيد الخراج وصرف ليثا عنها وولاه على الصلات والخراج وبعث احمد بن اسحاق على الصلات مع محفوظ وكانت ولاية لبث أربع سنين وسبعة أشهر ثم ولى أحمد بن إسماعيل بن على بن عبدالله بن عباس على الصلات والخراج معا فقدم لخمس بقيت من جمادى الآخرة سنة ١٨٧ ﻫ ثم صرف لثمان عشرة خلت من شعبان سنة ١٨٩ ﻫ وكانت ولايته سنتين وشهرا ونصفا ثم ولى عبيدالله بن محمد ابن ابراهيم بن محمد بن على بن عبدالله بن عباس على الصلات واستخلف لهيعة ابن عيسى بن لهيعة الحضرمى ثم قدم للنصف من شوال وصرف لاحدى عشرة بقيت من شعبان سنة ١٩٠ ﻫ وخرج منها واستخلف هاشم بن عبدالله بن عبدالرحمن بن معاوية بن حريج فولى الحسين بن جميل على الصلات وقدم لعشر خلت من رمضان ثم جمع له الخوارج مع الصلات فى رجب سنة ١٩١ ﻫ فخرج أهل الحوف عليه وامتنعوا من أداء الخراج وخرج أبو الندا بأيلة فى نحو ألف رجل فقطع الطريق بأيلة وشعيب ومدين وأغار على بعض قرى الشام وانضم إليه جماعة من جذام فبلغ من النهب والقتل مبلغا عظيما فبلغ الرشيد ذلك فبعث إليه من بغداد جيشا لهذا الأمر وبعث الحسين بن جميل من مصر عبدالعزيز بن الوزير بن صابى الجروى فى عسكر والتق العسكران بأيلة فظفر عبدالعزيز بأبى الندا وسار جيش الرشيد إلى بابيس فى شوال سنة ١٩١ ﻫ فأذعن أهل الحوف لأداء الخراج وصرف ابن جميل لاثنتى عشرة خلت من ربيع الآخر سنة ١٩٢ ﻫ فولى مالك بن أدهم بن عير الكلبى على الصلات والخراج فقدم لسبع بقيت من ربيع الآخر وفرغ يحي بن معاذ أمير جيش الرشيد من أمر الحوف وقدم الفسطاط لعشر بقيت من جمادى الآخرة فكتب إلى أهل الأحواف أن أقدموا

حتى أوصى بكم مالك بن أدهم فدخل الرؤساء من اليمانية ومقيسية فغلقت عليهم الأبواب وقيدوا وسار بهم للنصف من رجب وصرف مالك لاربع خلت من صفر سنة ١٩٣ ﻫ وولى الحسن بن التختاخ على الصلات والخراج فاستخلف عنه العلاء بن عاصم الخولانى فقدم لثلاث خلت من ربيع الأول ثم مات الرشيد وهو وال عليها من قبله وكان قد أوصى بالخلافة لابنه محمد الأمين ثم عبد الله المأمون

السادس من العباسيين الأمين

(١٩٣ — ١٩٨ ﻫ)

وهو محمد الأمين بن هرون الرشيد بويع له بالخلافة بعد موت أبيه الرشيد سنة ١٩٣ ﻫ بعهد منه كما سبق التنبيه عليه وأمه زبيده بنت جعفر بن المنصور ولم يكن فى الخلفاء من أمه هاشمية سواه وسوى على بن أبى طالب والحسن والحسين رضى الله عنهم وكان الأمين من أحسن الناس خلقا وأقواهم بطشا وأعظمهم شجاعة لكنه مع ذلك كله كان سىء التدبير ضعيف الرأى كثير التبذير لايصغى إلى قول مشير منهمكا فى اللذات غير مكترث بأمر الخلافة ولذلك لما ولى الخلافة فرق الأموال وعكف على الشراب ومنادمة الفساق وأرسل إلى الجهات فجمعوا له المغنين وأجرى لهم الرواتب واحتجب عن الأمراء وأعيان الدولة وعظمائها ولها عن تدبير مملكته حتى قام عليه أخوه المأمون جهز لقتاله جيشا وحاصره ببغداد وبلغ الخبر الأمين وهو بجانب حوض ماء مع جواريه يتصيدن السمك وكان قد وضع فى أنف كل سمكة درة نفيسة شبكها بقضيب من الذهب فكل من صادت من جواريه سمكة كانت الدرة لها

فرفع الأمين رأسه وقال للذى بلغه الخبر ويلك ويلك دعنى فان الجارية فلانة قد صادت سمكتين وأنا لم أصد شيئا ولم تزل الفتن تتزايدو يكثر الهرج والمرج حتى درست محاسن بغداد ودام حصارها خمسة عشر شهرا وتفرق الناس عن الأمين ولم يبق معه من يدافع عنه إلا القليل إلى أن دخلت بغداد سنة ١٩٨ ﻫ فدخل طاهر بن الحسين ومن معه من العساكر بالسيف قهرا فخرج الأمين بأمه وأهله من القصر إلى مدينة المنصور فدخل عليه قوم من العجم ليلا فقتلوه وذهبوا برأسه إلى طاهر فبعثه مع الثياب والقضيب إلى المأمون فعظم عليه الامر وأسف على قتل أخيه لأنه كان يود منه أن يحضره إليه حيا ليرى رأيه فيه وحقد على طاهر بن الحسين وأهمله إلى أن مات طريدا وكان قتل الأمين ليلة السبت لست بانية من المحرم سنة ١٩٨ ﻫ وعمره سبع وعشرون سنة ودفن ببغداد وكانت مدة حكمه أربع سنين وثمانية أشهر .

وكانت حالة مصر فى عهد الأمين مضطربة لأنه بوفاة الرشيد واستخلاف الأمين ثار الجند بمصر ووقعت فتنة عظيمة فيها قتل كثير من الناس وسير الأمين الحسن فوثب أهل الرملة فمنعوا المال عنه وبلغ الحسن ابن تخاخ عزله فسار من طريق الحجاز لفساد طريق الشام لثمان بقيت من ربيع الأول سنة ١٩٤ﻫ واستخلف عوف بن وهب على الصلات ومحمد بن زياد على الخراج فولى حاتم ابن هرثمة بن أعين من قبل الأمين على الصلات والخراج وقدم فى ألف من الابناء ونزل بلبيس فصالحه أهل الاحواف على خراجهم وثار عليه أهل بعض البلاد وعسكروا فبعث إليهم جيشا فانهزموا ودخل حاتم إلى الفسطاط معه نحو مائة من الرهائن لأربع خلت من شوال وصرف فى جمادى الآخرة سنة ١٩٥ ﻫ فولى جابر بن الاشعث بن يحيى الطائى على الصلات والخراج لخمس بقيت من جمادى الآخرة وكان لينا فلما حدثت فتنة الأمين والمأمون قام السرى بن

الحكم غضبا للمأمون ودعا الناس إلى خلع الأمين فأجابوه وبايعوا المأمون لثمان بقيت من جمادى الآخرة سنة ١٩٦ هـ فأخرجوا جابر بن الأشعث وكانت ولايته سنة تولى عباد بن محمد بن حيان أبو نصر من قبل المأمون على الصلات والخراج لثمان خلت من رجب بكتاب هرثمة بن أعين وكان وكيله على ضياعه بمصر فى الثامن من رجب سنة ١٩٦ فولى الأمير من كان بمصر فكتب إلى ربيعة بن قيس بن الزبير الجرشى رئيس قيس الحوف بولاية مصر وكتب إلى جماعة من معاونيه فقاموا ببيعة الأمين وخلعوا المأمون فساروا لمحاربة أهل الفسطاط بخندق عباد وفى أثناء ذلك بلغهم قتل الأمين فصرف عباد فى صفر سنة ١٩٨ هـ وكانت ولايته سنة وسبعة أشهر

السابع من العباسيين المأمون

١٩٨ — ٢١٨ هـ

وهو عبد الله بن هرون الرشيد بويع له بالخلافة فى حياة أخيه سنة ١٩٨ هـ وكان عالما أديبا فى غاية من الفصاحة وله شأن عظيم فى المناظرة والاطلاع على كثير من الفنون الحكمية والأدبية وكان معدودا من أعظم رجال الفلك وغزا الروم وفتح عدة حصون وحضر إلى مصر وفتح باب الهرم الكبير ورجع منها سنة ٢١٧ هـ وفى مدة خلافته تقدمت العرب تقدما عظيما فى العلوم النقلية والعقلية وقد اهتم بجمع كتب اليونان وأمر بترجمتها إلى اللغة العربية ككتاب إقليدس فى الهندسة وغيره من الكتب الفلسفية والحكمية فانتشرت العلوم بين الناس وفاقت مدته مدة والده وقاس الدرجة الأرضية ووجدها تساوى ستة وخمسين ميلا وكان مع ذلك صاحب فتوحات فغزا جزيرة صقلية وغيرها من جزائر أوربا وتغلب عليها ففتح جزيرة كريد وغيرها من الجهات الشرقية التى

كانت فى قبضة الروم وكان كثير العفو حتى روى عنه أنه كان يقول لو يعلم الناس ما أجد فى العفو من اللذة لتقربوا إلى بالذنوب وكانت أمه أم ولد أسمها سراجيلا ماتت فى نفاسها به وكان كثير التجسس مغرما بالعلم بكل شيء من أحوال مملكته حتى حمله ذلك على تعيين ألف وسبعمائة عجوز يتجسسن ويعرفنه مايقعنه عليه من الأحوال وفى سنة ٢٠٠ ﻫ أمر باحصاء ولد العباس فبلغوا ثلثمائة وثلاثين ألفا مابين ذكر وأنثى وفى سنة ٢٠١ ﻫ جعل ولى عهده على الرضا ابن موسى الكاظم بن جعفر الصادق أحد الأئمة والذى حمله على ذلك هو أفراط فى التشيع فشق ذلك على كثير من بنى العباس وأبغضوه وخرجوا عليه .

وقد شدد فى القول بخلق القرآن وتفضيل على على أبى بكر وعمر وكتب بذلك إلى عماله وكلفهم أن يحملوا الناس عليه فأجابه قوم وأمتنع آخرون وأحضر الإمام أحمد بن حنبل لما بلغه أنه أمتنع فقيل له ماتقول فى كلام الله أمخلوق هو قال هو كلام الله لا أزيد على ذلك ثم بلغ المأمون أن الذين أجابوا إنما أجابوا كرها فأمر باحضارهم وهو بالروم فحملوا إليه فمات قبل وصولهم إليه وكفى الله المؤمنين القتال .

وكانت وفاته فى رجب سنة ٢١٨ ﻫ بقرية دندون من أرض الروم ونقل إلى طرسوس ودفن بها وقد بلغ من العمر ثمانية وأربعين سنة ومدة خلافته عشرون سنة وخمسة أشهر .

ويؤثر عنه أنه قال قبل موته : « يامن لايزول ملكه أرحم من قد زال ملكه » ولما ورد خبر وفاته إلى بغداد قال أبو سعيد المخزومى :

هل رأيت النجوم أغنت عن المأ　　مون فى سبت ملكه المأنوس
خلفوه بعرصتى طرسوس　　مثلما خلفوا أباه بطوس

عماله على مصر

ولى من قبله عليها المطلب بن عبد الله الخزاعى بعد صرف عباد عنها على الصلات والخراج فدخلها من طريق الحجاز للنصف من ربيع الأول سنة ١٩٨ هـ وحصلت فى أيامه حروب واضطرابات فصرف عنها فى شوال بعد سبعة أشهر من ولايته لها ثم ولى العباس بن موسى بن عيسى بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس على الصلات والخراج وقدمها ابنه عبد الله ومعه الحسين بن عبد الله الأنصارى فى آخر شوال فسجنا المطلب فثار الجند مرارا فمنعهم الأنصارى أعطياتهم وهددهم وتحامل على الرغبة وعسفها وتهدد الجميع فثاروا وأخرجوا المطلب من الحبس وأقاموه لأربع عشرة خلت من المحرم سنة ١٩٩ هـ وأقبل العباس ونزل ببلبيس ودعا قيسا إلى نصرته ومضى إلى الجرى بقيس ثم عاد فمات ببلبيس لثلاث عشرة بقيت من جمادى الآخرة ويقال إن المطلب دس اليه سما فى طعامه فمات منه وكانت حروب وفتن فكانت ولاية المطلب هذه سنة وثمانية أشهر ثم ولى السرى بن الحكم بن يوسف من قوم الزط ومن أهل بلخ باجماع الجند عليه عند قيامه على المطلب فى مستهل رمضان سنة ٢٠٠ هـ ثم ولى سليمان ابن غالب بن جبريل البجلى على الصلات والخراج بمبايعة الجند لأربع خلت من ربيع الأول سنة ٢٠١ هـ فقامت حروب ثم صرف بعد خمسة أشهر وأعيد السرى بن الحكم ثانيا من قبل الخليفة على الصلات والخراج فتمت ولايته وأخرجه الجند من الحبس لاثنتى عشرة خلت من شعبان وتتبع من حاربه وقوى أمره ومات وهو وال سلخ جمادى الأولى سنة ٢٠٥ هـ فكانت ولايته هذه ثلاث سنين وتسعة أشهر وثمانية عشر يوما ثم ولى ابنه محمد بن السرى أبو نصر أول جمادى الآخرة على الصلات والخراج وكان الجروى قد غلب على أسفل الأرض فجرت بينهما حروب ثم مات لثمان خلت من شعبان سنة ٢٠٦ هـ وكانت ولايته

أربعة عشر شهرا ثم ولى عبدالله بن السرى بن الحكم بمبايعة الجند لتسع خلت من شعبان على الصلات والخراج فكانت بينه وبين الجرمى حروب إلى أن قام عبد الله بن طاهر وأذعن له عبد الله فى آخر صفر سنة ٢١١ ﻫ فولى عبد الله ابن طاهر بن الحسين بن مصعب من قبل المأمون على الصلات والخراج وقدم يوم الثلاثاء لليلتين خلتا من ربيع الأولى سنة٢١١ﻫ وأقام فى عسكره حتى خرج عبدالله بن السرى ألى بغداد للنصف من جمادى الأولى ثم سار إلى الاسكندرية مستهل صفر سنة ٢١٢ ﻫ واستخلف عيسى بن يزيد الجلوذى فحاصرها بضع عشرة ليلة ورجع فى جمادى الآخرة وأمر بالزيادة فى الجامع الضيق فزيد فيه مثله ثم ركب النيل وتوجه إلى العراق لخمس بقيت من رجب وكان مقامه بمصر واليا سبعة عشرة شهرا وعشرة أيام ثم ولى عيسى بن يزيد الجلوذى باستخلاف ابن طاهر على الصلات إلى سابع عشر ذى القعدة سنة ٢١٣ﻫ وصرف ابن طاهر وولى المعتصم بن هرون الرشيد أمر مصر من قبل أخيه فأقر عيسى على الصلات فقط وجعل على الخراج صالح بن شيراراد فظلم الناس وزاد عليهم فى خراجهم فانتقض أهل مصر السفلى وعسكروا فبعث عيسى ابنه محمد فى جيش لمحاربته فانهزم وقتل أصحابه فى صفر سنة ٢١٤ ﻫ فولى عمير بن الوليد التميمى على الصلات لسبع عشرة خلت من صفر وخرج ومعه عيسى الجلوذى لقتال أهل الحوف فى ربيع الآخر واستخلف ابنه محمد بن عمير فاقتتلوا وكانت بينهم معارك قتل فيها عمير لست عشرة خلت من ربيع الآخر وكانت مدة إمرته ستين يوما فولى عيسى الجلوذى ثانيا على الصلات فحارب أهل الحوف بمنية مطر ثم انهزم فى رجب منها فأقبل المعتصم إلى مصر فى أربعة آلاف من أتراكه وقاتل أهل الحوف فى شعبان ودخل مدينة الفسطاط لثمان بقيت منه وقتل أكابر الحوف ثم خرج الى الشام غرة المحرم سنة ٢١٥ ﻫ فى أتراكه ومعه جمع

من الاسارى فى ضر وجهد جهيد وولى على مصر عبدوية بن جبلة من الأبناء على الصلات فخرج ناس الحوف فى شعبان فبعث اليهم وحاربهم حتى ظفر بهم ثم قدم الأفشين حيدر بن كادوس الصفدى إلى مصر لثلاث خلت من ذى الحجة ومعه على بن عبد العزيز الجروى لأخذ ماله فلم يدفع اليه شيئا فقتله وصرف عبدون رخرج الأفشين إلى برقة وولى عيسى بن منصور بن موسى ابن عيسى الرافعى أول سنة ٢١٦ ﻫ على الصلات فانتقضت مصر السفلى عربها وقبطها فى جمادى الأولى وأخرجو العمال لسوء سيرتهم وخلعوا الطاعة فقدم الأفشين من برقة للنصف من جمادى الآخرة ثم خرج هو وعيسى فى شوال فاوقعا بالقوم وأسروا منهم وكانت حروب الى أن قدم أمير المؤمنين عبد الله المأمون لعشر خلت من المحرم سنة ٢١٧ ﻫ نسخط على عيسى وحل لواءه فأخذه بلباس البياض ونسب الفشل اليه وإلى عماله وسير الجيوش وأوقع بأهل الفساد وسبي القبط وقتل من قتل ثم رجع لثمار عشرة خلت من صفر بعدتسعة وأربعين يوما وولى كيدر وهو نصر بن عبد الله بن مالك الصفرىفوردكتاب المأمون عليه بأخذ الناس بالحنان والرأفة فى جمادى الآخر سنة ٢١٨ ﻫ وكان القاضى بمصر يومئذ هو هرون بن عبد الله الزهرى فأجاب وأجاب الشهود ومن ومن توقف منهم سقطت شهادته فكانوا على ذلك من سنة ٢١٨ ﻫ إلى سنة ٢٢٢ ﻫ . ومات المأمون فى رجب سنه ثمان عشره ومائتين وبويع أبو اسحاق المعتصم بالله

الثامن من العباسيين المعتصم بالله

(٢١٨ — ٢٢٧هـ)

وهو ابراهيم المعتصم بالله بن هرون الرشيد بويع له بالخلافة يوم وفاة أخيه المأمون بعهد منه

ولما بويع له تشعب الجند ونادوا باسم العباس بن المأمون فخرج اليهم العباس وقال لهم قد بايعت عمى فسكنوا واطمأنوا ولم يكن فى بنى العباس مثله فى القوة والشجاعة وكان فيه عنف يرهب الاعداء ونشأ أميا يكتب كتابة عامية يقرأ قراءه ضعيفة لم يتعلم العلم وذلك لأن الرشيد كان يميل اليه فاتفق أنه مات غلامه الذى كان يقرأ معه فقال له الرشيد يابراهيم مات غلامك فقال نعم واستراح من عناء المكتب فقال إن المكتب قد بلغ منك هذا دعوه لاتعلموه وهو أول من أدخل الأتراك الدواوين وكان يتشبه بملوك الأعاجم وبلغ علمانه الاتراك ثمانية عشر ألفا وألبسهم أطواق الذهب والديباج وكانوا يطردون الخيل فى بغداد فضاقت بهم المدنية وتأذى منهم الناس فبنى مدينة سر من رأى المعروفة بسامرا بغرب بغداد وانتقل اليها سنة ٢٢٠هـ

وفى عهده خرج نوفل بن ميخائيل ملك الروم الى بلاد المسلمين فأوقع بأهل زبطرة وعاد إلى مالطة وغيرها من البلاد فاستباحها قتلا وأسرا ومثل بالأسرى وقطع أوصالهم فبلغ المعتصم ذلك وبلغه أيضا أن أسيرة هاشمية نادت : وامعتصماه فلما بلغه ذلك نادى بالرحيل إلى غزو عمورية وهو يقول : فى مسيره لبيك لبيك وتجهز واستعد استعداداً لم يسبق له نظير وسار حتى بلغ عمورية وهى على سبعة مراحل من أنقرة وجرى بين المسلمين والروم عليها قتال شديد قد انتهى بفتح عمورية فهدمت وأحرقت وقتل من الروم نحو ثلاثين ألفا وأسر

مثلهم ولما دخل المدينة صار يقول : لبيك لبيك وطلب العلج فضرب عنقه وفك الشريفة من قيودها واستولى على جميع ما فى البلد من الأموال والذخائر وكتب إليه ملك الروم كتابا يهدده فيه فلما قرأه قال للكاتب أكتب : بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد فقد قرأت كتابك وسمعت خطابك والجواب ما ترى لا ما تسمع وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار وجهز الجيوش ففتحوا وغنموا ورجعوا سالمين .

وكان ميمونا فى مغازيه وهو أول من أضاف إلى لقبه اسم الله تعالى ولكنه قد أساء إلى المسلمين فى التشديد عليهم وامتحن الناس وجبرهم على القول بخلق القرآن والذى دعاه إلى ذلك تنفيذ وصية أخيه فانه لما عهد اليه بالخلافة أوصاه أن يحمل الناس على ذلك واستمر الامام أحمد محبوسا إلى أن بويع المعتصم فأحضره إلى بغداد وعقد له مجلسا للمناظرة فناظروه ثلاثة أيام ولم يزل إلى اليوم الرابع ولم يقل بخلق القرآن فأمر بضربه إلى أن أغمى عليه وهو صائم ولم يزل يتوجع حتى مات رضى الله عنه سنة ٢٤١ ﻫ

ثم توفى المعتصم سنة ٢٢٧ ﻫ فى ربيع الأول منها . وهو من الذين خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يعفو عنه

وأكبر غلطاته من الوجهة السياسية ادخاله المماليك فى الدولة فانه استعمل خمسين ألفا من الأتراك التتارية لأجل المحافظة على الثغور وصاروا يزيدون وتقوى شوكتهم شيئا فشيئا إلى أن اتحدوا بعد ذلك على خلع الطاعة وكان ذلك سببا فى انحطاط الدولة العباسية حيث فقدت العصبية العربية وابتدأ ذلك الانحطاط من عهد المتوكل على الله عاشر خلفائها

ومن الوجهة الدينية تشديده على أهل السنة فى القول بخلق القرآن وإهانة أكابر العلماء ومعارضتهم فى عقيدتهم بلا جدوى ولا كبير فائدة من هذا العمل

الشائن لأنه فتح باب الفتنة لعدم الرضا بما وسع المسلمين من عهد النبوة إلى عهده ، ولم ينتج من ذلك شيء من الفوائد بل نتج عنه كثير من الزندقة والفساد سامحه الله وعفا عنه .

عمال على مصر

لما ولى المعتصم بالله ورد كتابه على كيدر عاملها ببيعته وأمر باسقاط من فى الديوان من العرب وقطع العطاء عنهم وفعل ذلك فخرج يحيى بن وزير الجروى فى جمع من لخم وجذامه ومات كيدر فى ربيع الثانى سنة ٢١٩ ﻫ . فولى ابنه المظفر بن كيدر باستخلاف أبيه وخرج إلى يحيى بن وزير وقاتله وأسره فى جمادى الآخرة . ثم صرفت مصر إلى أبى جعفر أشناس فدعا له بها وصرف المظفر بن كيدر فى شعبان ، فولى موسى بن أبى العباس من قبل أشناس على الصلات مستهل شهر رمضان سنة ٢١٩ ﻫ وصرف فى ربيع الآخر سنة ٢٢٤ ﻫ فكانت ولايته أربع سنين وسبعة أشهر ثم ولى مالك ابن كيدر بن عبدالله الصفدى من قبل أشناس على الصلات فقدم لسبع بقيت من ربيع الأول وصرف لثلاث خلت من ربيع الثانى سنة ٢٢٦ ﻫ فولى على بن الأرملى من قبل أشناس على صلاتها وقدم لسبع خلت من ربيع الأول سنة ٢٢٦ ﻫ وبقى بها إلى أن توفى المعتصم وأقره الواثق بالله كما سيأتى فى خلافته

التاسع من العباسيين الواثق بالله

(٢٢٧ — ٢٣٢ ﻫ)

وهو أبو جعفر هرون بن المعتصم بالله بويع له بالخلافة بسر من رأى بعد وفاة أبيه أخذت البيعة ونفذت فى بغداد فاستمر له الامر وكان من أفاضل الخلفاء فطنا أديبا شاعرا لبيبا وكان يتشبه بالمأمون فى جميع حركاته وسكناته وفى عهده غزا المسلمون الروم فى البحر وفتحوا جزيرة صقلية وفتحوا أيضا

سينيا فى عهد الملكة بدوره ملكة الروم امرأة نوفل ملك الروم وكانت قد وليت الملك بعد وفاته بالنيابة عن ابنها جنبه ميخائيل حيث كان صغيرا وقد اقتفى الواثق أثر أبيه فى مخالفة أهل السنة والقول بخلق القرآن ثم رجع بعد ذلك عن هذا القول قبل موته وسبب ذلك أنه أتى بشيخ من أكابر العلماء وأفضل الفضلاء. وذلك الشيخ هو أبو عبد الرحمن بن عبد الله بن محمد الأسدى شيخ أبى داود والنكسائى وبعد أن مكث مدة طويلة فى السجن مكبلا فى قيوده فلما وقف بين يديه سلم عليه فلم يرد الواثق السلام عليه فقال له الشيخ يا أمير المؤمنين بئس ما أدبك به مؤدبك قال الله تعالى وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها فما حييتنى بأحسن منها ولا رددت بها فقال له الواثق وعليك السلام ثم قال لابن دؤاد وقال أخبرنى عن هذا الأمر الذى تدعو الناس إليه أشىء دعا اليه رسول الله ﷺ قال لا فقال له أدعا اليه أبو بكر الصديق بعده قال لا فقال له أدعا إليه عمر بن الخطاب بعدهما قال لا فقال له أدعا اليه عثمان بعدهم قال لا قال أدعا إليه على بن أبى طالب بعده قال لا فقال الشيخ شىء لم يدع اليه رسول الله ﷺ ولا أبو بكر وعمر ولا عثمان ولا على رضى الله عنهم أجمعين تدعو إليه أنت الناس فهو لا يخلو من أحد أمرين إما أن تقول علموه أو جهلوه فان قلت علموه وسكتوا عنه وسعنا وإياكم السكوت عما سكت عنه رسول الله ﷺ وأصحابه وإن قلت جهلوه وعلمته أنت فيالكع بن لكع تجهل النبى ﷺ والخلفاء الراشدين بعده رضى الله عنهم شيئا وتريد أن تعلمه أنت وأصحابك فالزمه الشيخ الحجة فعند ذلك أمر الواثق فك قيود الشيخ فأخذها ووضعها فى كمه فقال له الواثق ما تفعل بها قال أوصى بها بعدى إذ أنا مت أن يضع القيد بينى وبين كفنى حتى أخاصم بها هذا الظالم يوم القيامة فأقول يارب سل عبدك هذا لم قيدنى وروع أهلى وولدى وأخوانى بلا حق وجب على له فبكى الحاضرون

ثم سأله الواثق أن يجعله فى حل فقال الشيخ : جعلتك فى حل إكراما لرسول الله ﷺ إذ كنت من أهل بيته فرجع الواثق عن هذا القول وأطلق الشيخ وأكرمه وأحسن إليه .

وهو أول خليفة استحلف سلطانا وألبسه التاج وكان أعلم الخلفاء بالغناء وله أصوات وألحان عملها فى نحو مائة صوت وألف له الاصفهانى كتاب الأغانى ، وتوفى الواثق فى رجب سنة ٢٣٢ هـ وعمره ثلاثون سنة ومدة خلافته خمس سنين وتسعة أشهر ولما احتضر جعل يقول :

الموت فيه جميع الناس مشترك   لاسوقة منهم يبقى ولاملك

ماضر أهل قليل فى تفاخرهم   فليس يغنى عن الأملاك ماملكوا

ثم ألصق خده بالأرض وجعل يقول يامن لايزول ملكه أرحم من يزول ملكه ثم قبض رحمه الله .

فانظر كيف كان موقف العلماء فى المدافعة عن الدين فى الأعصر السابقة وماكانوا يقاسونه من أجل هذه المدافعة من الحبس والتكبيل فى الحديد وهم لايخشون فى الله لومة لائم فهم يصدق عليهم قوله تعالى « رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر ومابدلوا تبديلا » .

وأنظر كيف كان رد الاستاذ عبد الرحمن بن عبد الله الأسدى على الخليفة وهو مقيد فى قيوده وقوله له بئس ما أدبك به مؤدبك يا أمير المؤمنين وذلك أنه لما أقرأه السلام فلم يجبه عليه واحتج على عمله هذا بكتاب الله لأنه قد أضاع ما أمر الله به المسلمين عامة فرد عليه السلام .

وأنظر كيف أقام عليه الحجة الدامغة فى مسألة خلق القرآن التى تقدم ذكرها آنفا فخضع إليها ولم يستطع رد ما أخبره به بجميع براهينه وذلك لأن الله يحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المبطلون ، وأعتذر اليه عما حصل فى

حقه من الاهانة بدون حق كما أخبره الشيخ بذلك وهكذا تكون العلماء فى المواقف الدينية .

ثم انقضت تلك السنون وأهلها فكأنها وكأنهم أحلام

وفقنا الله إلى خير العمل وعدم الوقوع فى الزلل إنه سميع مجيب .

عمال على مصر

أقر الواثق بالله على مصر على بن يحيى الذى كان واليا عليها من قبل المعتصم إلى سابع ذى الحجة سنة ٢٢٨ ﻫ فكانت ولايته عليها سنتين وثلاثة أشهر ثم ولى عليها عيسى بن منصور من قبل أشناس على صلاتها فدخلها لسبع خلت من المحرم سنة ٢٢٩ ﻫ فمات أشناس سنة ٢٣٠ ﻫ وجعل مكانه إيتاخ فأقر عيسى ابن منصور وبقى بها إلى أن مات الواثق وبويع المتوكل .

العاشر من العباسيين المتوكل على الله

٢٣٢ — ٢٤٧ ﻫ

وهو جعفر بن المعتصم بالله بن هرون الرشيد بويع له بالخلافة بسر من رأى يوم وفاة أخيه الواثق بعهد منه سنة ٢٣٢ ﻫ وله من العمر ست وعشرين سنة فأحيا السنة وأمات البدعة وأبطل القول بخلق القرآن وكتب إلى جميع الآفاق بذلك وقرب علماء السنة وعظمهم ورفع قدرهم وعز جانبهم فكبت المعتزلة وخمدت أنفاسهم وأراح الله الناس من شر تلك الفتن وفى أيامه ظهر بمدينة سامرا محمود بن فرج بادعاء النبوة وزعم أنه ذو القرنين الذى ذكره الله فى كتابه وتبعه سبعة وعشرون رجلا فألزم المتوكل أصحابه أن يصفعه كل منهم عشر صفعات ثم حبسه وضربه حتى مات .

ونقل دواوين الخلافة إلى دمشق وهجر العراق مدة شهرين ثم عاد إلى سامرا

وفى سنة ١٤٥ ه بنى مدينته التى سماها بالعزية والمتوكلية وساق إليها الماء من أفريقية وأنفق عليها أموالا كثيرة وتحول إليها . وكان المتوكل يبغض أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه ويكثر الوقيعة فيه ولشدة بغضه له قد أمر بهدم قبر الحسين بن على رضى الله عنهما ومنع الناس من زيارته فاشمأز منه المسلمون وتألموا وهجاه الشعراء بسبب ذلك فما قيل فى ذلك :

تالله إن كانت أمية قد أتت ... قتل ابن بنت نبيها مظلوما
فلقد أتانا بنو أبيه بمثله ... هذا لعمرك قبره مهدوما
أسفوا على ألا يكونوا شاركوا ... فى قتله فتتبعوه رميما

ولله در ابن الوردى حيث قال :

وكم قد محى خير بشر كما أمحت ... ببغض على سيرة المتوكل
تعمق فى عدل ولما جنى على ... جناب على حطه السيل من عل

وفى سنة ٢٤٧ ه كثرت المماليك الأتراك ببغداد فاستولوا على المملكة وصار بيدهم العقد والحل والتولية والعزل وزاد طغيانهم وعتوهم إلى أن حملهم ذلك على السطو على الخليفة المتوكل . وكان بينه وبين أبنه المنتصر جفاء ونفور فاتفق مع بغا الصغير قائدهم فدخلوا عليه وهو فى مجلس أنس وعنده الوزير الفتح بن خاقان فصاح عليهم الفتح بقوله لهم ويلكم هذا سيدكم ورمى بنفسه عليه فضربهما بغا فماتا معا ثم خرج بغا ومن معه من رجاله إلى المنتصر بالله فسلموا عليه بالخلافة وكان قتل المتوكل فى شوال سنة ٢٤٧ ه وعمره أربعون سنة ومدة خلافته أربع عشرة سنة وعشرة أشهر .

وقتل المتوكل سهل على المماليك أمر الخلفاء فكان الخليفة فى يدهم كالعصفور فى يد الطفل الصغير يفعل به ما بدا له .

عماله على مصر

لما بويع المتوكل صرف عيسى بن منصور الذى كان واليا عليها من قبل أبيه فى منتصف ربيع الأول سنة ٢٣٣ ﻫ وولى هرثمة بن النضر الجبلى من أهل الجبل على الصلات وقدم لست خلت من رجب سنة ٢٣٣ ﻫ وورد كتاب المتوكل بترك الجدال فى القرآن لخمس خلت من جمادى الآخرة سنة ٢٣٤ ﻫ ومات هرثمة وهو وال عليها لسبع باقية من رجب سنة ٢٣٤ ﻫ فاستخلف أبنه حاتم بن هرثمه فتولى حاتم بن هرثمة ابن النضر باستخلاف أبيه له على الصلات وصرف عنها لست خلت من رمضان فولى على بن يحيي بن الأرضى المرة الثانية من قبل إيتاخ على الصلات لست خلت من رمضان وصرف إيتاخ فى المحرم سنة ٢٣٥ ﻫ واستصفيت أمواله بمصر وترك الدعاء له ودعى المنتصر مكانه فصرف على بن يحيي فى ذى الحجة من هذه السنة وولى إسحاق بن يحيي بن معاذ ابن مسلم الجبلى من قبل المنتصر ولى عهد أبيه المتوكل على الله على الصلات والخراج فقدم لإحدى عشرة خلت من ذى الحجة ومات اسحاق بعد عزله غرة ربيع الآخر سنة ٢٣٧ ﻫ وولى عبد الواحد بن يحيي بن منصور بن طلحة ابن زريق على الصلات والخراج فقدم لتسع باقية من ذى الحجة سنة ٢٣٦ ﻫ وصرف عن الخراج لتسع خلت من صفر سنة ٢٣٧ ﻫ وأقر على الصلات وحدها ثم صرف سلخ صفر سنة ٢٣٨ ﻫ بخليفة على الصلات والشركة فى الخراج مستهل بربيع الأول فولى عنبسه بن اسحاق بن شمر بن عبس أبو جابر من قبل الخليفة على الصلات وشريكا لأحمد بن خالد صاحب الخراج فقدم لخمس خلت من ربيع الآخر سنة ٢٣٨ ﻫ . وأخذ العمال برد المظالم وأقامهم للناس وأنصف منهم وأظهر من العدل مالم يسمع بمثله فى زمانه وكان يروح ماشيا إلى المسجد الجامع من العسكر وكان ينادي فى شهر رمضان السحور وفى

ولايته نزل الروم دمياط وملكوها وما فيها وقتلوا بها جمعا كثيرا من الناس وسبوا النساء والاطفال فنفر إليهم يوم النحر من سنة ٢٣٨ هـ فى جيشه ومعه كثير من الناس فلم يدركهم وأضيف له الخراج مع الصلات ثم صرف عن الخراج أول جمادى الآخرة سنة ٢٤١ هـ فدعى له وعنبسة هذا آخر من ولى مصر من العرب وآخر أمير صلى بالناس فى المسجد الجامع وصرف أول رجب منها فقدم العباس بن عبد الله بن دينار خليفة يزيد بن عبد الله.

وكانت ولاية عنبسة أربع سنين وأربعة أشهر وخرج إلى العراق فى رمضان سنة ٢٤٢ هـ فولى يزيد بن عبد الله بن دينار من الموالى ولاه المنتصر ولى عهد أبيه على الصلات فقدم العشر باقية من رجب سنة ٢٤٢ هـ فأخرج المخنثين من مصر وضربهم وطاف بهم ومنع من النداء على الجنائز وضرب فيه وخرج إلى دمياط محاربا فى المحرم سنة ٢٤٥ هـ ورجع فى ربيع الأول فبلغه نزول الروم الفرما فرجع إليهم فلم يلقهم وعطل الرهان وباع الخيل وتتبع الروافض وحملهم الى العراق وبنى مقياس النيل فى سنة ٢٤٧ هـ وجرت على العلويين فى لايته شدائد كثيرة وبقى إلى أن مات المتوكل وبويع أبنه محمد المنتصر.

الحادى عشر المنتصر بالله

من سنة ٢٤٧ هـ إلى سنة ٢٤٨ هـ

وهو أبو عبد الله محمد بن المتوكل على الله بويع له بالخلافة فى الليلة التى قتل فيها أباه فامتنع الناس أولا من مبايعته بحجة أنه قتل والده فأخرج أحمد بن الخطيب كتابا من المنتصر أن الفتح بن خاقان قتل المتوكل فقتله به فبايعه الناس وكان كثير العدل قليل الظلم ولما ولى الأمر أمر بزيارة قبر الحسين رضى الله عنه فيقال إنه لما جلس على سرير الملك رأى فى بعض البسط دائرة فيها فارس

عليه تاج وحوله كتابة فارسية فأمر بها فترجمت فاذا هى أنا شيرويه بن كسرى ابن هرمز قتلت أبى فلم أتمتع بالملك إلا ستة أشهر فتغير وجه المنتصر وأمر برفع البساط فحصل له حمى كانت سببا فى موته وقيل إنه دسوا إلى طبيبه ابن طيفور السم ففصده بريشة مسمومة فمات عن ست وعشرين سنة من عمره ومدة خلافته ستة أشهر .

(إن فى ذلك لعبرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد) .

حالة مصر فى عهده

لما مات المتوكل ومات الفتح بن خاقان أيضا وبويع المنتصر أقر يزيد بن عبدالله على مصر ولم يزل بها إلى أن مات المنتصر فى ربيع الأول سنة ٢٤٨ ﻫ وبويع المستعين بالله .

الثانى عشر المستعين بالله

من سنة ٢٤٨ ﻫ إلى سنة ٢٥٧ ﻫ

وهو أحمد بن محمد بن المنتصر بالله بويع له بالخلافة سنة ٢٤٨ ﻫ ، ولاه موالى الاتراك الذين أصبح فى أيديهم الحل والعقد ولم يولوا أحدا من ولد المتوكل لئلا يطالب بدمه وكانت تلك الأيام أيام فتن وخروج خوارج وأن المستعين كان ضعيفا فى عقله ورأيه وتدبيره ولذلك كانت أيامه كلها قلاقل ولم يكن فيه من خصال الخير إلا الكرم . ولسوء تدبيره أخلع فى سنة ٢٥١ﻫ مكرها ثم قتل بعد ذلك فى المحرم سنة ٢٥٢ ﻫ وكانت خلافته سنتين وتسعة أشهر ، وعمره واحد وثلاثون سنة .

عماله على مصر

وكان عامله على مصر يزيد بن عبدالله .

الثالث عشر المعتز بالله

من سنة ٢٥٢ هـ إلى سنة ٢٥٥ هـ

وهو أبو عبد الله محمد بن المتوكل على الله بويع له بالخلافة فى المحرم سنة ٢٥٢ هـ تولى بعد خلع المستعين ابن عمه وحرض عليه فقتل وأتى برأسه إليه وهو مشتغل بلعب الشطرنج فلم يلتفت إليه حتى فرغ من لعبه ونظر إلى الرأس ثم أمر بدفنه .

وفى أيامه ابتدأت الدولة الطولونية بمصر وسيأتى الكلام عليها ثم ان الأتراك الذين صار فى يدهم مقاليد الدولة اتفقوا على خلعه مع جماعة آخرين بسبب طلب أرزاقهم فساروا إلى بابه ودخلوا عليه وأهانوه ومنعوه الطعام والشراب ثلاثة أيام ثم أدخلوه سردابا وجصصوا عليه فمات فى رجب سنة ٢٥٥ هـ وعمره أربع وعشرون سنة ومدة خلافته ثلاث سنين وستة أشهر .

وفى أيامه قويت شوكة المتغلبين على البلاد واشتدت عزائمهم فولى أحمد بن طولون مصر وكان المعز رحمه الله حسن الخلق والخلق طيب السيرة والسريرة إلا أن الأتراك قد تمردوا فى زمنه فاستخفوا بالخليفة والخلافة واستضعفوا الخلفاء فكان الخليفة فى يدهم إن شاءوا أبقوه وإن شاءوا خلعوه وإن شاءوا قتلوه وبعد موت المعتز قام بأمر الدولة المهتدى بالله .

الرابع عشر المهتدى بالله

من سنة ٢٥٥ هـ إلى سنة ٢٥٦ هـ

وهو أبو عبد الله جعفر بن الواثق بن المعتصم بويع له بالخلافة حين خرجوا على ابن عمه المعتز سنة ٢٥٥ هـ وكان ورعا متعبدا عادلا قويا فى دينه شجاعا مهيبا ولما ولى الخلافة أمر بإبطال الملاهى ومنع سماع الغناء وشرب الخمر

ونفى المغنيات وترك المنكرات وجلس ينظر فى حوائج الناس ومنع مظالمهم وكان يقول « إنى لأستحيي من الله عز وجل ألا يكون فى بنى العباس مثل عمر بن عبد العزيز فى بنى أمية » وكان يتشبه به ويسعى فى الخير جهده ومع ذلك لم يجد أحداً يساعده على قوة يدفع بها طغيان هؤلاء الطاغين الذين أثاروا عليه الفتنة وهاجوا وماجوا بسبب قتله بعض الموالى وأخذوه أسيرا وعذبوه وجبروه على خلع نفسه فلم يفعل فقتلوه وذلك فى رجب سنة ٢٥٦ هـ وعمره سبع وثلاثون سنة ومدة خلافته سنة واحدة ودفن فى سامرا . وتولى بعده المعتمد على الله .

الخامس عشر المعتمد على الله

من سنة ٢٥٦ هـ إلى سنة ٢٧٩ هـ

هو أبو العباس أحمد بن المتوكل على الله بويع له بالخلافة بعد ابن عمه المهتدى بالله بسامرا وكان مستضعفا ومنهمكا فى اللذات وكان أخوه الموفق طلحة الناصر هو الغالب على أمره وله الأمر والنهى .

وفى أيامه خرج أحمد بن طولون وظفر بحلب وانطاكية وبقية العواصم واستفحل أمره بمصر واغتال خراجها وهى يومئذ من أتم الأقطار وأعناها وضيق على المعتمد أخوه طلحة من انهماكه فى اللذات ولم يكن له من الأمر شيء سوى الاسم والدعاء فى الخطبة وقد اتفق أنه طلب فى بعض الأيام ثلثمائة دينار فلم يحصل عليها فقال

أليس من العجائب أن مثلى ... يرى ما قل ممتنعا عليه
وتؤخذ باسمه الدنيا جميعا ... وما من ذاك شيء فى يديه
إليه تحمل الأموال طرا ... ويمنع بعض ما يجبى إليه

ومن الحوادث التى حصلت فى أيامه أن الزنج دخلوا البصرة وأعمالها

وضربوا وقتلوا وأحرقوا وسبوا ونهبوا أموالا كثيرة واستمر القتال معهم الى سنة ٢٧٠ هـ ثم قتل رئيسهم يهردا الذى كان يدعى أنه نبي وأنه مطلع على الغيب وكان منبر يصعد عليه ويسب عثمان وعليا ومعاوية وطلحة والزبير ولما قتل زينت بغداد وطافوا برأسه فيها وهى على رمح .

ثم توفى المعتمد فى شوال سنة ٢٧٩ هـ ببغداد وعمره خمسون سنة ومدة خلافته ثلاث وعشرون سنة ثم ملك بعده المعتضد بالله .

السادس عشر المعتضد بالله

من سنة ٢٧٩ إلى سنة ٢٨٩هـ

وهو أبو العباس أحمد بن الموفق أبى أحمد طلحة بن المتوكل بن المعتصم بن هرون الرشيد بويع له بالخلافة يوم موت عمه المعتمد سنة ٢٧٩ هـ فقام بالأمر بعده حق القيام .

وكان شجاعا عاقلا لايهاب الموت ولايخاف الأسد مدبرا حازما ولذلك جدد ملك بنى العباس . وولى الأمر والثغور مهملة والأموال معطلة والكلمة غير نافذة والظالم ضارب بجرانه فقوم الاعوجاج وأبطل المظالم والمفاسد وقوى الثغور وحافظ عليها وهدم دار الندوة التى كانت الحرم وجعلها مسجدا فانتشر فى أيامه لواء العدل وانقطعت المظالم والمفاسد لتيقظه وحسن تدبيره مع مافى أيامه من الفتن وكثرة الخوارج .

وممن خرج عليه عمرو بن الليث الصفار الذى عظم شأنه وأستولى على أكثر بلاد العجم وكانت عاقبة أمره الأسر ومقاساة الأهوال ولم يزل المعتضد ساهرا على رعيته ملتفتا لتشييد دعائم مملكته إلى أن مات سنة ٢٨٩ هـ وله من العمر ست وأربعون سنة ومدة خلافته تسع سنين وتسعة أشهر ثم قام بالأمر بعده ابنه المكتفى بالله .

السابع عشر المكتفي بالله

من سنة ٢٨٩ ﻫ إلى ٢٩٥ ﻫ

وهو أبو محمد على بن المعتضد بالله بويع له بالخلافة بعد وفاة أبيه فى ربيع الاول سنة ٢٨٩ ﻫ وكان حسن الخلق والخلق يكره سفك الدماء

وفى أيامه ظهرت القرامطة وهم قوم من الخوارج خالفوا الدين وخرجوا عليه وقطعوا الدواب عن الحجاج ونهبوهم وقتلوا منهم كثيرا فأرسل المكتفى بالله عساكره وأوقع بهم وقتل بعض زعمائهم وفى عهده رجعت مصر والشام إلى الخلافة العباسية وانقرضت دولة بنى طولون وكان المكتفى فصيحا يقول الشعر ونقش على خاتمه (على يتوكل على ربه) ثم عاجلته المنون لاثنتى عشرة خلت من ذى القعدة سنة ٢٩٥ ﻫ ومدة خلافته ست سنين وستة أشهر وتسعة عشر يوما وقد أوصى بصدقة من خالص ماله ٦٠٠٠٠٠ ستمائة ألف دينار كان قد جمعها وهو صغير وأوصى بالخلافة إلى أخيه المقتدر بالله

الثامن عشر المقتدر بالله

من سنة ٢٩٥ إلى سنة ٣٢٠ ﻫ

وهو أبو الفضل جعفر بن المعتضد بالله بويع له بالخلافة يوم وفاة أخيه وهو ابن ثلاث عشرة سنة واختل نظام الملك فى أيامه لحداثة سنه وانهماكه فى اللذات وكان كثير الانفاق مبذرا وولى الخلافة ثلاث مرات فتغلب عليه الجند واتفقوا على خلعه وعقدوا البيعة لأبى العباس بن المعتز ولقبوه المرتضى بالله ولم يتم له الأمر ولم يمكث سوى يوم واحد ولذلك لم يعد من الخلفاء ثم عاد المقتدر وقتل ابن المعتز فاستقام له الأمر وهذه ولايته الثانية ثم جرت بينه وبين مؤنس المظفر أمير الجيوش منافرة أدت إلى خلعه ومبايعة أخيه

القاهر ثم أعيد المقتدر مرة ثالثة وحمله الجنود على أكتافهم إلى دار الخلافة فجلس على السرير وصفح عن أخيه القاهر ثم وقع بينه وبين مؤنس خلاف أدى إلى الحرب فتوغل المقتدر فى المعركة فضربه واحد من البربر فسقط على الارض وقال لضاربه ويحك أنا الخليفة فقال له أنت المطلوب وأخذ رأسه بسيفه وكان قتله يوم الاربعاء سنة ٣٢٠ ﻫ وله من العمر ثمانية وثلاثون سنة وأشهر وخمسة أيام ومدة خلافته خمس وعشرون سنة وولى بعده أخوه القاهر بالله

التاسع عشر القاهر بالله

من سنة ٣٢٠ إلى سنة ٣٢٢ ﻫ

وهو القاهر بالله بن المنصور محمد بن المعتضد بويع له بالخلافة سنة ٣٢٠ﻫ وكان طائشا سفاكا للدماء قبيح السيرة كثير التلون مدمنا للخمر وكان من وزرائه ابن مقلة الذى جود الخط العربى وأخذه من الخط الكوفى ولكنه لم يترك فيه شيئا يشابه الخط الكوفى ولم يمكث القاهر فى الخلافة إلا سنة وستة أشهر ثم خلع وسملت عيناه لست خلت من جمادى الاولى سنة ٣٢٢ ﻫ ثم عاش مابقى من عمره فقيرا يتكفف الناس إلى أن مات وله من العمر ثمان وخمسون سنة ويصدق عليه قول القائل

أوتيت ملكا فلم تحسن سياسته — كذاك من لايسوس الملك يخلعه

وتولى بعده الراضى بالله

العشرون الراضى بالله

من سنة ٣٢٢ ﻫ إلى سنة ٣٢٩ ﻫ

وهو أبو العباس محمد بن المقتدر بالله بويع له بالخلافة سنة ٣٢٢ ﻫ وفى

عهده ضعف أمر الخلافة العباسية فاسترد الروم كثيرا من البلاد التى كانت فى حوزة الاسلام وتم استقلال الولاة بجميع الاقاليم فكانت مصر والشام فى يد الاخشيد وفارس فى يد آل بويه والموصل وديار بكر فى يد بنى حمدان وخراسان وماوراء النهر فى يد سامان وطورستان وجورجان فى يد الديلم والبحرين واليمامة فى يد القرامطة والاندلس فى يد عبد الرحمن الأموى ولم يبق للخليفة الا بغداد وما والاها فبطلت دواوين المملكة ونقص قدر الخلافة وعم الخراب وساد الفساد وقهرت العباد ثم مات الراضى فى ربيع الاول سنة ٣٢٩ هـ وعمره واحد وثلاثون سنة وأشهر بعد أن حكم سبع سنين وكان آخر خليفة له شعر يدون وآخر من خطب كثيرا وآخر من جالس الجلساء وآخر من كان فى معيشته على ترتيب أسلافه ، وتولى بعده أخوه المتقى بالله

الحادى والعشرون المتقى بالله

من سنة ٣٢٩ هـ إلى سنة ٣٣٣ هـ

وهو أبو اسحاق ابراهيم بن المقتدر بالله بويع له بالخلافة بعد أخيه الراضى سنة ٣٢٩ هـ وكان ورعا كثير الصوم والتهجد والتلاوة حافظا لدينه بعيدا عن اللهو والطرب وشرب الخمر وفى سنة ٣٣١ هـ من حكمه عدت الروم على الاردن ونصيبين فقتلوا وسلبوا ثم طلبوا منديلا فى كنيسة الرها زعموا أن المسيح مسح به وجهه فارتسمت صورة وجهه فيه فأرسلوه اليهم فى مقابلة فك الاسارى ففعلوا وكثرت الاضطرابات والحروب والفتن فى أيامه بين رؤساء الدولة فصار كل واحد منهم يود أن يكون له السيادة والأعداء ينتقصون أطراف الدولة وهم لا يلتفتون إلى ذلك ومع كون المتقى كان ملكا عاقلا مدبرا فانه لم يستطع المحافظة على ملكه لضعف قوته وكثرة المخالفين له والمتغلبين عليه

ولم يزل فى نكد من العيش وأمره مضطرب إلى أن خلع وسملت عيناه لتسع باقية من صفر سنة ٣٣٣ ﻫ بأمر بوزون التركى لما قام عليه فكانت مدته ثلاث سنين وأحد عشر شهرا وعاش بعد ذلك مخلوعا إلى أن مات سنة ٣٤٣ﻫ وعمره سبع وأربعون سنة وولى بعده المستكفى بالله

الثانى والعشرون المستكفى بالله

من سنة ٣٣٣ ﻫ إلى سنة ٣٣٤ ﻫ

وهو أبو القاسم عبيد الله بن المكتفى ولى الامر سنة ٣٣٣ ﻫ بعد خلع ابن عمه المتقى وفى عهده استولى معز الدين بن بويه على بغداد وبذلك لقبه المستكفى كما لقب أخويه عماد الدين وركن الدولة وأمر أن تضرب ألقابهم على الدنانير ومن هذا الوقت صار الخليفة فى غاية الضعف ليس له إلا الاسم والدعاء فى الخطبة ومع ذلك فانه لم ينج من الاذى بل انه خلع وسملت عيناه فى جمادى الآخرة سنة ٣٣٤ ﻫ كما أمر بذلك أحد أمرائه معز الدولة احمد بن بويه الديلمى لما دخل بغداد وتغلب على الخليفة وكانت مدة ولايته سبعة عشر شهرا وعاش مخلوعا إلى أن مات سنة ٣٣٩ وعمره خمسون سنة وولى بعده المطيع لله

الثالث والعشرون المطيع لله

من سنة ٣٣٤ ﻫ إلى سنة ٣٦٣ ﻫ

وهو أبو الفضل الفاسم بن المقتدر بويع بالخلافة بعد خلع المستكفى سنة ٣٣٤ ﻫ وفى أيامه ازداد ضعف الخلافة وغلبت الديلم على بغداد والروافض العبيديون على مصر والشام ومكة والمدينة وغلب الروم على الجزيرة وبعض الثغور وردت القرامطة الحجر الاسود إلى مكانه وبقى الخليفة بلا وزير بل

كان له كاتب يريد إقطاعاته وإخراجاته وصارت الوزارة لمعز الدولة يستوزر لنفسه من يريد فكان بنو بويه يعتقدون أن الأحق بالخلافة العلويون ولم يكن ثم باعث ديني يبعثهم على الطاعة والانقياد لبني العباس وبقي المطيع يدبر الأمور جهده إلى أن ضاق ذرعا فتخلى عن الخلافة لابنه غير مكره يوم الأربعاء لثلاث عشرة خلت من ذي القعدة سنة ٣٦٣ هـ وبعد نيف وأربعين يوما مات لثمان خلت من المحرم سنة ٣٦٤ هـ وولي بعده ابنه الطائع لله.

الرابع والعشرون الطائع لله

(٣٦٣ — ٣٨١ هـ)

وهو أبو بكر عبد الكريم بن المطيع بويع له بالخلافة بعد خلع أبيه نفسه وكان مغلوبا على أمره من قبل أمرائه وما كان له إلا العظمة الظاهرية وكان شديد القوة في خلقه كريما شجاعا بطلا جوادا سمحا إلا أن يده كانت قصيرة مع ملوك بني بويه ولم يزل كذلك حتى تغلبوا عليه وخلعوه سنة ٣٨١ هـ بعد أن تولى الحكم ست عشرة سنة وأشهر وعاش بعد ذلك مخلوعا مسمول العينين الى أن مات سنة ٤٠٠ هـ والذي تولى خلعه وسمل عينه فناخسرو بن الحسن بن بويه الديلمي الملقب بهاء الدولة وتولى بعده القادر بالله.

الخامس والعشرون القادر بالله

(٣٨١ — ٤٢٢ هـ)

وهو أبو العباس أحمد بن اسحاق بن المقتدر بويع له بالخلافة سنة ٣٨١ هـ وكان كثير العبادة والصدقات دينا ورعا مؤثرا للعدل وقضاء الحوائج وفي أيامه رجع وقار الدولة العباسية وزاد رونقها وأخذت أمورها في القوة ومكث القادر في الخلافة مدة طويلة إلى أن مات سنة ٤٢٢ هـ ولم يبلغ أحد من الخلفاء

فى إمارة المؤمنين مبلغه ولاطول عمره إلى أن مات سنة ٤٢٢ ﻫ، لأن ولايته دامت أثنتين وأربعين سنة وأشهرا ومات وهو ابن ثلاث و تسعين سنة لأن مولده كان سنة ٣٣١ ﻫ وتولى بعده القائم بأمر الله .

السادس والعشرون القائم بأمر الله

(٤٢٢ — ٤٦٧ ﻫ)

وهو أبو جعفر عبد الله بن القادر بالله بويع له بالخلافة بعد موت أبيه سنة ٤٢٢ ﻫ، وكان عادلا قوى الدين واليقين كثير الفضل والعدل والصدقات من خير الخلفاء ولكنه كان مغلوبا على أمره . وفى أيامه كان انقراض دولة بنى بويه وابتداء الدولة السلجوقية فكانت مدة ملك الديلم مدة مائة وتسع وعشرين سنة وكان هذا الملك الصالح كثير الصدقة والصيام والتهجد ومما يؤثر عنه أنه ما كان ينام إلا على سجادته وماتجرد من ثيابه وتوفى رحمه الله سنة ٤٦٧ ﻫ، ومدة خلافته خمس وأربعون سنة وله من العمر سبع وسبعون سنة، وولى الأمر بعده ولد ولده المقتدى بأمر الله .

السابع والعشرون المقتدى بأمر الله

(٤٦٧ — ٤٨٧ ﻫ)

وهو أبو القاسم عبد الله بن محمد بن القائم بويع له بالخلافة يوم وفاة جده وكان دينا على الهمة نجيا أزال المنكرات والملاهى ولذلك عمرت بغداد فى أيامه وخطب له بالحجاز واليمن والشام فأقام بالخلافة تسع عشرة سنة وعدة أشهر ومات فى المحرم فجأة سنة ٤٨٧ ﻫ تولى بعده المستظهر بالله .

الثامن والعشرون المستظهر بالله

من سنة ٤٨٧ إلى سنة ٥١٢ ﻫ

وهو أبو العباس أحمد المستظهر بالله بويع له بالخلافة يوم وفاة أبيه وكان لين الجانب كريم الأخلاق جوادا محبا للعلم والعلماء . وفى سنة ٤٩٢ﻫ فى عهده أخذ الافرنج بيت المقدس وقتلوا نحو سبعين ألفا وهدموا المشاهد وجمعوا اليهود فى كنيستهم وأحرقوها عليهم وتمكنت الإفرنج من الشام ، وفى سنة ٥١٨ ﻫ نقل المصحف العثمانى من مدينة طبرية إلى الجامع الأموى بدمشق خوفا عليه ونسب إلى عثمان لأنه هو الذى أمر بكتابته كما سبق فى خلافته ومات المستظهر لسبع بقيت من ربيع الآخر سنة ٥١٢ ﻫ ومدة خلافته خمسة وعشرون سنة وثلاثة أشهر وعمره واحد وخمسون سنة ، وولى بعده المسترشد بالله .

التاسع والعشرون المسترشد بالله

من سنة ٥١٢ إلى سنة ٥٢٩ ﻫ

ولى المسترشد بعد وفاة أبيه بعهد منه وسنه يومئذ سبع وعشرون سنة وكان شجاعا دينا مقداما حتى قيل إنه لم يل الخلافة أحد بعد المعتضد أشجع منه ذا رأى صائب وهمة عالية فأحيا مجد بنى العباس وأرجع الدولة العباسية إلى نضارتها وقوتها وخرج إلى قتال السلطان مسعود السلجوقى بنفسه وانتصر عليه ولكنه قتل بعد ذلك غيلة حيث دخل عليه الغزارية بالسكاكين وقتلوه هو ومن معه فجأة فى سابع عشر ذى الحجة سنة ٥٢٩ ﻫ بعد أن حكم سبع عشرة سنة وثمانية أشهر وعمره خمس وأربعون سنة وعهد بالخلافة لابنه الراشد بالله

الثلاثون الراشد بالله

من سنة ٥٢٩ إلى سنة ٥٣٠ هـ

وهو أبو جعفر منصور بن المسترشد بويع له بالخلافة يوم وفاة أبيه بعهد منه ، وكان حسن الهيئة جميل الوجه كريم الأخلاق فصيح اللسان قوى الجنان وبقى يغالب الأيام وتغالبه إلى أن خلعه السلطان مسعود السلجوقى بعد شهادة أهل بغداد عليه أنه ارتكب منكرا فحكم قاضى القضاة ابن التنوخى بخلعه فخلعوه لأربع عشرة ليلة خلت من ذى القعدة سنة ٥٣٠ وعمره ثلاثون سنة فكانت خلافته نحو سنة وبعد ذلك قتل سنة ٥٣٢ هـ وهو صائم فى يوم السادس والعشرين من شهر رمضان ، وولى الأمر بعده عمه المقتفى لأمر الله .

الحادى والثلاثون المقتفى لأمر الله

من سنة ٥٣٠ إلى ٥٥٥ هـ

وهو أبو عبدالله محمد بن المستظهر بويع له بالخلافة يوم قتل ابن أخيه وكان شديد الهيبة سيدا عالما فاضلا دينا شجاعا حليما بالأمارة عظيم السلطان قوى الجنان بيده أزمة الأمور فكان لا يجرى فى خلافته أمر إلا بأمره وتوقيعه . وفى سنة ٥٤٣ هـ حاصر الافرنج دمشق فوصل اليها نور الدين الشهيد محمود بن زنكى صاحب حلب يومئذ وأخوه غازى صاحب الموصل فنصر الله المسلمين بهما وانهزم الافرنج عنها ، وفى أيامه عادت بغداد والعراق إلى يد الخلفاء ولم يبق له منازع فى سلطانه وكان الحكم قبله للمتغلبين من الملوك وليس للخليفة إلا الاسم كما تقدم ومن سلاطينه أيام دولته سنجر صاحب خراسان والسلطان نور الدين محمود بن زنكى صاحب الشام ومصر وكان المقتفى مغرما بكتابة القرآن بيده حسن الخط فكتب بيده الكريمة ثلاث ربعات وكانت وفاته فى شهر ربيع

الأول سنة ٥٥٥ هـ وعمره ست وستون سنة ومدة خلافته ثلاث وعشرون سنة وجدد بناء الكعبة وعمل لنفسه من الباب العتيق تابوتا دفن فيه، وولى بعده ابنه المستنجد بالله

الثانى والثلاثون المستنجد بالله

من سنة ٥٥٥ إلى سنة ٥٦٦ هـ

وهو أبو جعفر المظفر يوسف بن المقتفى بالله . بويع له بالخلافة بعد يوم موت أبيه وكان موصوفا بالعدل والديانة ثاقب الفكر صائب الرأى أبطل المكوس والمظالم ومما يؤثر عنه أنه رأى فى منامه فى حياة والده أن ملكا نزل من السماء فكتب له فى كفه ثلاث خاءات فطلب معبرا فقال له إنك ستلى الخلافة سنة ٥٥٥ فكان كذلك . وكان له شعر رقيق منه قوله :

عيرتنى بالشيب وهو وقار ليتها عيرت بما هو عار

إن تكن شابت الذوائب منى فالليالى تزينها الأقمار

وفى أيامه ساد العدل وباد الظلم لأنه كان شديدا على المفسدين وتوفى سنة ٥٦٦ هـ فى ثامن ربيع الثانى خنقه أكابر دولته فى حمام عقب مرض أصابه، وقيل إنه حبس فى الحمام إلى أن مات بعد أن عمر ثمانى وأربعين سنة وكانت خلافته إحدى عشرة سنة . وتولى بعده ابنه المستضىء بأمر الله

الثالث والثلاثون المستضىء بأمر الله

من سنة ٥٦٦ إلى سنة ٥٧٥

وهو أبو محمد حسن بن المستنجد بويع له بالخلافة يوم موت أبيه وكان سمحا كريما محبا للسنة مبيداً للبدعة كثير الخيرات والصدقات وفى مدته عمرت البلاد وعم العدل فى جميع أرجائها ومحيت عن الناس مظالم كثيرة ولذلك كثر

الثناء عليه من جميع الخلق ولم يكن يركب إلا مع مماليكه ولا يدخل عليه سوى الأمراء. وفى أيامه انقرضت دولة الفاطميين بمصر وملكها أسد الدين شيركوه ثانيا عن محمود نور الدين ومات نور الدين بعد أن بنى قبة الامام الشافعى سنة ٥٧٤ هـ نخلفه فى جهاده وحسن سيرته صلاح الدين يوسف الأيوبى وهو الذى استرد من الافرنج بيت المقدس وكثيرا مما كان بأيديهم من البلاد الاسلامية بهمته المشهورة وحروبه المعروفة ولم يزل المستضىء ناشراً لواء العدل معروفا بالحزم والفضل إلى أن توفى سنة ٥٧٥ هـ ومدة خلافته تسع سنين ونصف وعمره سبع وثلاثون سنة وولى الأمر بعده ابنه الناصر لدين الله

الرابع والثلاثون الناصر لدين الله

من سنة ٥٧٥ إلى سنة ٦٢٢ هـ

وهو أبو العباس أحمد بن المستضىء بنور الله بويع له بالخلافة فى بغداد يوم وفاة أبيه غرة ذى القعدة سنة ٥٧٥ هـ وعمره ٢٣ سنة ، وكان عظيم الهيبة شجاعا مقداما ذا دهاء فائق وذهن رائق . فنشر لواء العدل وعمل على إحياء السنة وكان له هيبة فى النفوس حتى أنه إذا ذكر أسمه عند أمرائه وعظماء دولته خفضوا أصواتهم إجلالا له ، وفى أيامه كان ظهور صلاح الدين الأيوبى واستيلاؤه على مصر وفتح بيت المقدس وإزالة دولة الفاطميين وإماتة البدع فأمر بإراقة الخمور وإبطال الملاهى وأبطل المكوس والمظالم فعمرت البلاد واستراحت العباد وكثرت الأرزاق وعم الأمن والوفاق فقصد الناس بغداد من كل فج وراجت التجارة رواجا عظيما وعم الخير فى أنحاء مملكته حتى صار الناس يتبركون به أيام دولته ، وكان يقظا ملتفتا لأمر دولته حريصا على راحة رعيته يتعب نفسه لراحتهم ويسهر الليالى الطوال ليناموا فى ظل أمانه فكان

كثيرا مايطوف ببغداد ليلا ليقف على كل شىء يهمه الوقوف عليه فضلا عن كونه كان متخذا الأرصاد والعيون حتى يقف على مايهمه ، وفى أيامه ابتدأ خروج التتار من بلادهم مغيرين على بلاد الاسلام فظهر جنكيرخان سنة ٥٩٩ ﻫ وكان لايدين بدين فأفسد البلاد وأضر بالعباد ودخل بخارى ونهب وسلب وقتل كثيرا وقصد بلاد خراسان ومات سنة ٦٢٤ فقام بعده ولده (تولى خان) وبعده ولده (هلاكو) وبعده ولده (تكدار) فأسلم وسمى نفسه أحمد ،وكان انقراض دولتهم سنة ٧٢٧ . ولم يزل الناصر ملتفتا لأمر رعيته باسطا إليهم بساط العدل إلى سلخ رمضان سنة ٦٢٢ ﻫ وعمره ٧٠ سنة ومدة خلافته ٤٧ سنة فهو من أطول الملوك أياما وشق موته على جميع أهل مملكته لما كان موصوفا به من صفات الكمال وتولى بعده الظاهر بالله .

الخامس والثلاثون الظاهر بالله

(٦٢٢ — ٦٢٣ ﻫ)

بويع له بالخلافة بعد وفاة أبيه بعهد منه وكان جميل الوجه حسن الهيئة موقرا محسنا لرعيته ولما تولى لم يزل ناشرا لواء العدل ساعيا جهده فى إبطال مابقى من المكوس والمظالم وأعاد بسيرته سيرة العمرين فانه ماولى الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز أحد مثله فانه أمر بجباية الخراج والأموال على الرسم القديم فى العراق وأرسل إلى القاضى عشرة آلاف دينار ليفرقها على المعسرين ، وأعطى العلماء والصالحين ليلة جبر البحر مائة ألف دينار ، وتوفى رحمه الله فى ١٣ رجب سنة ٦٢٣ ﻫ وعمره ٥٢ سنة ومدة خلافته تسعة أشهر ونصف ولو طال أمده لكان من أجل الخلفاء نفعا وولى الأمر بعده أبنه المستنصر بالله .

السادس والثلاثون المستنصر بالله

(٦٢٣ — ٦٤٠ هـ)

وهو أبو جعفر المنصور محمد بن الظاهر بويع له بالخلافة يوم وفاة أبيه وعمره ٣٥ سنة وكان عادلا كريما محبا للعلم والعلماء وأهل الدين والتقوى وكان كثيرا مايقول (إنى أخاف أن الله تعالى لايثيبنى على ما أهبه وأعطيه لأنه تعالى قال فى كتابه العزيز : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » وإنى والله لافرق عندى بين التراب والذهب) .

وكانت أيامه كلها سرور وأمان وراحة بال واطمئنان خاطر الفتن فيها نائمة والخيرات كثيرة ولذلك لم يشغله شاغل عن بناء المساجد وتقوية الرباطات وحفظ الثغور وتشييد الحصون وبناء المدارس والملاجىء .

وقصد التتار البلاد فى أيامه فلم يفلحوا وهزمهم شر هزيمة ورجعوا على أعقابهم خائبين ولذلك أحبته رعيته وأطلق ألسنة الثناء والشكر عليه ولم يزل حصنا حصينا وذخرا وملجأ لرعيته إلى أن مات مأسوفا عليه يوم الجمعة عاشر جمادى الثانية سنة ٦٤٠ هـ وعمره (٥٢) سنة ومدة خلافته (١٧) سنة وولى الأمر بعده ابنه المستعصم بالله .

السابع والثلاثون المستعصم بالله

من سنة ٦٤٠ إلى سنة ٦٥٦ هـ

وهو أبو أحمد عبدالله بن المستنصر بويع له يوم موت أبيه وهو آخر الخلفاء العباسيين بالعراق وكان حليما كريما إلا أنه كان ضعيف الرأى غير ملتفت لأمور الخلافة ولذلك ركن الى وزيره مؤيد الدين بن العلقمى الرافضى وكان عدوا له يداريه فى الظاهر ويعمل على زوال دولته فى الباطن ولذلك صار

يكاتب هولاكو ملك التتار ويغريه على أخذ بغداد ويرشده إلى طريق أخذها ويخبره بضعف الخليفة وقلة عساكره وانحلالهم ولم يزل به إلى أن زحف على بغداد فى عسكر جرار وجيش عرمرم والمستعصم ومن معه فى غفلة فأوقع بهم بها وأرسل إلى الخليفة يطلبه إليه فاستيقظ من رقدته وندم حيث لا ينفع الندم .

وأما الوزير الخادع الخائن فانه ذاق جزاء ما كسبت يداه فان هولاكو استدعاه بين يديه وعنفه تعنيفا شديدا على خيانته لسيده ثم قتله شر قتلة ولم ينل شيئا مما كان يتوهمه من الخير .

وبقتل المستعصم خرجت بغداد من قبضة الخلافة الاسلامية بدخول التتار فيها واستيلائهم عليها وأقام الناس بلا خليفة ثلاث سنين ، وعلق التتار المصاحف فى أعناق الكلاب وقلبوا المساجد كنائس وألقوا كتب الأئمة فى نهر دجلة وذهبت محاسن بغداد كأن لم تكن بعد أن كان بها أثنا عشر ألف خان واثنتا عشرة ألف طاحونة وأربع وعشرون ألف سوق وألفا حمام وثمانية آلاف مدرسة ومن جوامعها الرصافة الواسع الارجاء فإنه كان يسع مائة ألف إنسان كانوا يحضرون مجلس ابن الجوزى .

ولما مات بها الإمام أحمد بن حنبل حضر جنازته ألف ألف وستمائة ألف رجل ضبط ذلك بالمساحة . وكانت أجمل مدينة فى الدنيا ثم انتشرت فتنة التتار فأخذوا بلاد الروم ورتبوا على ملكهم كل سنة أربعمائة ألف دينار .

ثم اضمحلت الخلافة الاسلامية وانتقلت الى مصر بعد ما كان لها من العظمة والعزة والسلطان ما كان والملك لله الواحد الديان .

خلت المنابر والأسرة منهم فعليهمُ حتى الممات سلام

انتقال دولة بنى العباس الى مصر

لما اضمحل بنو العباس انتقلوا إلى مصر وتركوا بغداد لغلبة التتار عليها وحكم بها منهم (١٧) خليفة ومدة حكمهم بها (٢٨٥) سنة

ولم يكن لهم إذ ذاك لاأمر ولا نهى بل كانوا يجعلونهم فى محل خاص بهم وتجرى عليهم النفقات فيه كما تقدم .

أولهم المستنصر بالله من سنة ٦٥٩ هـ إلى سنة ٦٦٠ هـ وهو أبو القاسم أحمد ابن الظاهر بأمر الله كان بعيدا عن الفتنة فسلم وقدم مصر وأثبت نسبه فى سنة ٦٥٩ هـ وذلك فى أيام الظاهر بيبرس فتلقاه وبايعه هو وأهل الحل والعقد بالخلافة وبايعه الناس على اختلاف مراتبهم وخطب باسمه على المنابر فاستبشر الناس بذلك وفرحوا فرحا عظيما ثم رتب له السلطان حاجبا وكاتبا وعين له جميع مايحتاج اليه وأقام بالقلعة ثم بدا له بعد ذلك الرجوع إلى العراق والمطالبة بالبيعة فودعه الظاهر وسار معه حتى وصل إلى الشام ثم فارقه فذهب الخليفة إلى العراق فلما قرب منه بعساكره استقبله جماعة من التتار فاقتتلوا وقتل كثير من عساكره وتشتت من بقى منهم ولم يعلم له أثر بعد ذلك وقيل إنه قتل وكان ذلك فى المحرم سنة ٦٦٠ هـ

الثانى الحاكم بأمر الله (الأول)

من سنة ٦٦٠ إلى سنة ٧٠٦ هـ

وهو أبو العباس أحمد بن على كان قد اختفى وقت الفتنة وقدم حلب فبايعه كثير من الناس ثامن المحرم سنة ٦٦٠ هـ ولما قصد المستنصر بغداد ووقعت الواقعة التى تقدم الكلام عنها وأخبره بها كاتب الحاكم الملك بيبرس فطلبه إلى القاهرة فحضر ومعه ولده وجماعة من أتباعه فأكرمه الملك الظاهر وبايعه بالخلافة

وطالت مدته وفى سنة ٦٩٩ ﻫ قصد غازان بن أرغون بن ايقان هولاكو كبير التتار دمشق بجيش عظيم فخرج السلطان اليه وتقابلا على ثلاثة فراسخ من حمص بواد حصل فيه واقعة فقتل فيها أكثر من عشرة آلاف من التتار وظهرت علامات النصر على المسلمين ثم انهزمت ميمنتهم فدخل التتار دمشق وعثوا فيها الفساد وبقى الحاكم بأمر الله إلى أن توفى بمصر سنة ٧٠٦ ﻫ ودفن بجوار السيدة نفيسة رضى الله عنها . وهو أول خليفة من العباسيين دفن بمصر

الثالث المستكفى بأمر الله

من سنة ٧٠٦ إلى سنة ٧٤٢ ﻫ

وهو أبو الربيع سليمان بن الحاكم بأمر الله بويع له بالخلافة بعهد من أبيه سنة ٧٠٦ ﻫ وعمره سبع عشرة سنة وخطب له على المنابر بمصر والشام وكان فاضلا كريما يحب العلم والعلماء ويعظم أهل الأدب ويقربهم اليه فى مجلسه وبعد أن أقام بالخلافة إحدى وثلاثين سنة حصلت فتنة بينه وبين الملك الناصر ترتب عليها خلع الخليفة ونفيه إلى قوص وهى قرية من صعيد مصر واستمر بها إلى أن مات سنة ٧٤٢ ﻫ

الرابع الواثق بأمر الله

من سنة ٧٤٢ إلى سنة ٧٤٣ ﻫ

وهو ابراهيم بن المستمسك بالله بايعه الناصر بعد موت المستكفى بأمر الله سنة ٧٤٢ ﻫ ، وكان قد عهد لولده أحمد بالخلافة فلم يلتفت السلطان لتنفيذ عهده وبايع ابراهيم واستمر فى الخلافة إلى أن حصلت وفاة السلطان الناصر فندم عند موته وعزل إبراهيم وجعل الخلافة لأحمد كما عهد والده . فخلع إبراهيم فى أول المحرم سنة ٧٤٣ ﻫ ، وكانت مدة حكمه سنة .

الخامس الحاكم بأمر الله « الثانى »

من سنة ٧٤٣ إلى سنة ٧٥١ هـ

هو أبو العباس أحمد بن المستكفى بالله بويع له بالخلافة بعد خلع ابراهيم بايعه الناصر والقضاة والعلماء وأرباب الدولة فقوى دعائم الخلافة وسلك مسلك آبائه واستمر كذلك إلى أن مات .

السادس المعتضد بالله

من سنة ٧٥١ إلى سنة ٧٦٣ هـ

هو أبو بكر بن المستكفى بويع له بالخلافة يوم موت أخيه بعهد منه وكانت سيرته حميدة وسار على نهج الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم أجمعين .

السابع المتوكل على الله

من سنة ٧٦٣ إلى سنة ٧٧٩ هـ

هو أبو عبد الله محمد بن المعتضد بويع له بعد موت أبيه بعهد منه وطال عمره حتى خلف نحو مائة ولد . وفى سنة ٧٧٣ حدثت العلامة الخضراء على عمائم الاشراف ليتميزوا بها عن غيرهم وذلك بأمر السلطان الملك الاشرف قنصوه بن محمد بن قلاوون وفى هذه السنة كان ابتداء خروج تيورلنك الأعرج الخبيث الذى خرب البلاد وأهلك العباد ، ثم خلع المتوكل على الله سنة ٧٧٩ هـ وبقى إلى أن توفى بالقاهرة سنة ٨٠٨ هـ

الثامن المعتصم بالله

سـنة ٧٧٩

وهو زكريا ابن ابراهيم بويع له يوم خلع المتوكل على الله سنة ٧٧٩ هـ وأقام نحو شهر وخلعوه ثم أعيد المتوكل بن المعتضد بالله بعد خلعه فأقام ست سنين وخلعه السلطان برقوق الشركسى ملك مصر سنة ٧٨٥ هـ .

التاسع الواثق بالله

من سنة ٧٨٥ الى سنة ٧٨٨ هـ

هو عمر بن ابراهيم بويع له بعد خلع المتوكل مرة ثانية فأقام ثلاث سنين وكان محمود السيرة وتوفى سنة ٨٨٨ هـ، وأعيد إلى الخلافة المتوكل على الله بن المعتضد بالله بويع مرة ثالثة فأقام سبع عشرة سنة وتوفى سنة ٨٠٨ هـ، وكان مجموع خلافته بمافيها من الخلع والحبس نحو خمس وأربعين سنة وخلف عشرة أولاد ذكور · تولى بعده الخلافة خمسة أولهم المستعين بالله .

العاشر المستعين بالله

من سنة ٨٠٨ إلى سنة ٨١٥

هو أبو الفضل العباس بن المتوكل بويع له بالخلافة يوم وفاة أبيه المتوكل بعهد منه فأقام فى الخلافة ست سنين ثم خلع ثم عاد وبقى ستة أشهر ثم خلع سنة ٨٥١ هـ وحبس بالاسكندرية وبقى بها إلى أن مات وبويع بعده المعتضد وهو الثانى من أولاد المتوكل .

الحادى عشر المعتضد بالله

من سنة ٨١٥ إلى سنة ٨٤٥ هـ

وهو أبو الفتح داود المتوكل بويع له يوم خلع أخيه فأقام بالخلافة ثلاثين سنة وكان حميد السيرة ممدوح الخصال سمحا كريما يميل الى مجالسة العلماء والفضلاء ، وبلغ بمصر من التعظيم والتكريم ونفوذ الكلمة مالم يبلغه خليفة فيها سواه وتوفى سنة ٨٤٥ هـ . واحتفل بجنازته سلطان مصر الملك الظاهر جقمق العلائى ومشى فى جنازته على قدميه إلى دفنه بالمشهد النفيدى وبويع بعده أخوه المستكفى بالله وهو الثالث من أولاد المتوكل .

الثانى عشر المستكفى بالله

٨٤٥ — ٨٥٥ هـ

وهو سليمان بن المتوكل بويع له يوم موت أخيه المعتضد فأقام فى الخلافة عشر سنين وكان عاقلا مدبرا حتى نال من العز والشرف والرفعة فوق أخيه وتوفى سنة ٨٥٥ هـ وحمل السلطان نعشه تعظيما وإجلالا له وبويع بعده أخوه القائم بأمر الله وهو الرابع من أولاد المتوكل .

الثالث عشر القائم بأمر الله

٨٥٥ — ٨٥٩ هـ

وهو حمزة بن المتوكل . بويع له يوم موت أخيه المستكفى فأقام أربع سنين وخلعه الملك الأشرف إينال سلطان مصر سنة ٨٥٩ هـ ، وأرسله إلى الاسكندرية محتجا بما أفتاه الشافعية فى عصره من أن السلطان له أن يخلع الخليفة وبويع بعده أخوه المستنجد بالله وهو الخامس من بنى المتوكل .

الرابع عشر المستنجد بالله

٨٥٩ — ٨٨٤ هـ

وهو يوسف بن المتوكل بويع له يوم خلع أخيه يوم الخميس السادس من شهر رجب سنة ٨٥٩ هـ وكان تقيا دينا ورعا وأقام بالخلافة خمسة وعشرين سنة وتوفى رحمه الله فى ١٤ المحرم سنة ٨٨٤ هـ ودفن بقرافة السيدة نفيسة رضى الله عنها بجوار المشهد النفيسى وهو السادس من بنى المتوكل وتولى بعده المتوكل على الله

الخامس عشر المتوكل على الله (الثانى)

٨٨٤ — ٩٠٣ هـ

وهو أبو العز عبد العزيز بن يعقوب بويع له يوم الاثنين ١٦ من محرم سنة ٨٨٤ هـ بعهد من عمه المستنجد بالله وكانت بيعته بحضرة السلطان (قايتباى) ملك مصر وكان محبوبا للخاص والعام لما اتصف به من مكارم الأخلاق وجميل الصفات ولم يزل يمثل الخلفاء الراشدين فى كل أحواله إلى أن توفى رحمه الله سلخ المحرم سنة ٩٠٣ هـ وتولى بعده المستمسك بالله .

السادس عشر المستمسك بالله

٩٠٣ — ٩٢٠ هـ

هو يعقوب بن عبد العزيز الملقب بالمستمسك بالله بويع له بعد موت أبيه وكان من خيرة بنى العباس عقلا ودينا وتوفى بمصر سنة ٩٢٠ هـ . وأعقبه المتوكل على الله

السابع عشر المتوكل على الله (الثالث)

٩٢٠ — ٩٤٥

هو محمد بن يعقوب وهو آخر العباسيين بويع له بعد موت أبيه بمصر وله شأن معلوم ومقام رفيع إلى أن حضر السلطان سليم بمصر وافتتحها وعند رجوعه أخذه معه سنة ٩٢٢ هـ وبقى عنده إلى أن توفى السلطان ثم رجع إلى مصر وأقام بها خليفة إلى أن مات سنة ٩٤٥ هـ وبموته انقرضت الدولة العباسية من جميع الأرض

ويقال إنه تنازل للسلطان سليم فى آخر حياته عن الخلافة . وعلى كل حال فانه لم يعقب أحدا يستحق الخلافة ولم يكن من هو أولى بها من آل عثمان فى ذلك الحين فصار السلطان بعد موته هو الحاكم الدينى والسياسى معا والحكم لله الواحد القهار فسبحان من لا يزول ملكه ولا يهن سلطانه

سبب انقراض الدولة العباسية بعد ما كان لها من العظمة والسلطان

لما أراد الله تقويض بنيان هذه الدولة التى أخذت مأخذا عظيما فى التقدم والفتوحات ووصلت فيها العلوم العقلية الى درجة عالية صرف الله ملوكها عن العصبية الدينية العربية فاستبدلوا غالب الجيوش والأمراء والقواد الذين كانت لهم الدراية والشوكة بغيرهم من المماليك التتارية حتى أنه فى زمن المعتصم بالله ثامن ملوكها استعمل خمسين ألفا من هؤلاء الجنود التتارية للمحافظة على الثغور وصاروا يزيدون شيئا فشيئا ويتغلبون على الوظائف العالية حتى تولوا فى أغلب الأقطار . ولما قويت شوكتهم اتحدوا وخلعوا الطاعة كما بينا ذلك فتفرقت بذلك الدولة . فابن طباطبا تغلب على اليمن وسيف الدولة تغلب على حلب وابن بويه تغلب على فارس وأحمد بن طولون تغلب على مصر وهكذا مازالت الدولة فى اختلال وانقسام إلى أن ظهرت الدولة السلجوقية وكان ظهورها فى خلافة القائم بأمر الله سنة ٤٢٣ ه ولم يتعرض لهم فى مبدأ أمرهم حيث كان يمكنه قمعهم بل تركهم حتى صارت لهم قوة عظيمة وشوكة قوية ففتحوا مدينة بغداد فى مدة خلافة المستعصم بالله بسبب ميل وزيره العلقمى إليهم وسلوا سيوفهم فيها أربعين يوما ففر من فر وقتل من قتل وأسر من أسر وقتلوا الخليفة وأولاده كما سبق بيانه وهذا الاضطراب الذى حصل كان سببا فى زوال الدولة العباسية من بغداد ثم حضر خلفاؤها إلى مصر فأقاموا بها بعد مبارحتهم بغداد ولكنهم لم يكن لهم فيها سوى الاسم كما تقدم وكانت الغلبة للمماليك الحاكمين إلى أن مات المتوكل على الله آخر خلفائهم وبموته انقرضت الدولة العباسية من جميع الأرض بعد ما كان لها من عظيم الشأن وغلبة السلطان وشامخ البنيان ما كان سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا .

الدولة الطولونية

(٢٥٧ — ٢٩٢ هـ)

هذه الدولة هى أول دولة تغلبت على مصر وأصل ملوكها من عمال الدولة العباسية عليها ثم استقلوا بها كما استقل غيرهم من العمال فى أنحاء الدولة العباسية بما فى أيديهم من الولايات عند ما ظهرت عليها علامات الضعف وقد دام حكمها نحو خمسة وثلاثين سنة وقام منها خمسة أمراء

أصلها

وتنسب إلى طولون والد مؤسسها وهو تركستانى أسر فى أحدى الوقائع الحربية وجىء به إلى نوح بن أسد السامانى عامل المأمون على بخارى وكان يدفع له جزية سنوية من المماليك والخيول وغيرها حسب عادة تلك العصور فأرسل طولون الى الخليفة ضمن المماليك الذين أرسلهم اليه وقد كان طولون متناسب الأعضاء قوى البنية فأعجب به المأمون وألحقه بحاشيته ومازال يرقيه حتى جعله رئيس حرسه ولقبه بأمير السفر وكان هذا المنصب وقفا على من يثق الخليفة بأمانتهم وأخلاصهم ويطمئن إلى مقدرتهم على المحافظة على حياته الشخصية وقد بقى طولون فى هذا المنصب أكثر من عشرين سنة مدة المأمون والمعتصم إلى أن مات فى أيام المتوكل على الله سنة ٢٣٩ هـ

أحمد بن طولون

٢٥٧ — ٢٧٠ هـ

ظهور أمره وتأسيس دولته

ولد أحمد بن طولون سنة ٢٢٠ هـ فرباه والده أحسن تربية فنشأ رضى الخلق كريم النفس واشتهر بين أقرانه بالعلم والتقوى والشجاعة وأحبه كثير من العلماء ومال إليه معظم الاتراك حتى أن يركوج أحد كبراء حرس الخليفة

المتوكل على الله زوجه أبنته التى رزق منها أبنه العباس واختاره الخليفة بعد وفاة والده طولون للقيام بوظيفة أبيه وولاه أمارة الستر بدلا عنه وعمره حينئذ تسعة عشرة سنة ولم تشغله هذه الوظيفة عن توسيع معارفه والتردد إلى طرسوس بآسيا الصغرى للتعلم بمدارسها فكان يذهب إليها كلما سنحت له فرصة مع استبقاء مركزه لدى الخليفة ولقبه ومرتباته كالعاده ولما وجهت ولاية مصر إلى بابكيال أحد رؤساء الأتراك من جهة الخليفة المعتز بالله بن المتوكل سنة ٢٥٤ﻫ لم يرغب بابكيال أن يترك بغداد مركز نفوذه وكل مصالحه ويذهب إلى مصر فاستخلف عليها أولا أحمد بن المدبر ثم أشرك معه أحمد بن طولون لما كان له من السمعة الحسنة وجعل ابن المدبر على الخراج وجباية الأموال وجعل ابن طولون على الإدارة وبقية الوظائف العسكرية واستعمله على مصر وحدها دون باقى الأعمال كالأسكندرية ورشيد والصعيد الأعلى وابن المدبر هذا كان ظالما شديدا الوطأة على الناس مكروها منهم لأنه أثقل الضرائب على الأهالى وقدر المغارم الفادحة وابتدع بدعا صارت سنة مرعية إلى يومنا هذا كأحاطته بالنطرون والملح وحجره عليهما بعد أن كانا مباحا للناس وتقريره على الكلأ الذى ترعاه الماشية مالا سماه المراعى وتقريره على مايطعمه الله من صيد البحر مالا سماه المصائد حتى كانت هذه الضرائب المحدثة وقرآ ثقيلا ومظلمة مرهقة فادحة فلما قدم أحمد بن طولون إلى مصر واستقر به منصب النيابة وجد الأحوال ملائمة لتثبيت مركزه وتعظيم هيبته ومنزلته وامتلاك القلوب وأخذ يعمل لكف يد ابن المدبر إلى أن خلع المعتز وبويع المهتدى سنة ٢٥٥ ﻫ فقتل المهتدى بابكيال المذكور واستعمل على مصر مكانه ياركوج التركى الذى هو صديق أحمد بن طولون وأبو زوجته فأبقى صهره على مصر واستعمله عليها جميعا منفردا سنة ٢٥٧ ﻫ بتقليد من الخليفة وكان هذا مبدأ ظهوره بمصر وقيام دولته بها .

أعمـــاله وأصلاحه

مازال ابن طولون بعد انفراده بأدارة مصر يعظم شأنه وتقوى شوكته إلى أن أظهر الاستقلال ومنع الخراج عن الخليفة ودعا نفسه سلطانا فى عهد المعتمد بالله فهو أول من تسلطن بمصر من ولاة العباسيين ولما تم له الأمر أخذ فى تصليح البلاد وتوفير أسباب عمرانها وأسقط الضرائب التى أحدثها ابن المدبر وكانت بمصر خاصة فى كل سنة مائة ألف دينار ثم شرع فى تحصينها وأكثر من الجند وآلات الحرب استعدادا للطوارىء وكان ابن طولون يسكن بدار الأمارة التى كانت فى ضاحية المعسكر ولما ضاقت بأتباعه وأدواته وآلات حربه ولم تتسع لها أسس مدينة جديدة عرفت بالقطائع الطولونية واتخذ بها ميدانا واسعا لجيشه وبنى فيه قصره وجعل فيه مقر سلطانه وتمتد القطائع من جبل يشكر إلى سفح المقطم وموضعها الآن من قلعة الجبل إلى جامع ابن طولون طولا ومن الرميلة إلى المشهد المعروف بزين العابدين عرضا وقد أقطع أرضها رؤساء جيشه وأصحابه وقسمها بينهم وكلفهم أن يبنى كل منهم فى قطيعته فسميت القطائع لذلك فبنوا فيها مساكنا رائقة وقصورا شاهقة وأكثروا من المساجد والطواحين والحمامات والأفران ومحال التجارة والأسواق فيها والقطائع فيها هى بمنزلة الحارات التى بالقاهرة فكل قطيعة لسكنى جماعة وتنسب إليها فيقال قطيعة السودان وقطيعة الروم وقطيعة الفراشين وهكذا ولم يمض زمن يسير حتى صارت القطائع مدينة كبيرة عامرة ومن آثاره جامعه المشهور المسمى بأسمه وهو من الجوامع العتيقة الأنيقة الصنعة الواسعة البنيان وموضعه يعرف بجبل يشكر وقد شرع فى بنائه سنة ٢٦٣ وأتمه سنة ٢٦٥ وبلغت نفقات بنائه مائة وعشرين ألف دينار ولايزال هذا الجامع عامرا إلى الآن وله مسجد فى أعلى جبل المقطم أيضا يعرف بمسجد التنور بناه سنة ٢٥٩ ﻫ فى موضع

يعرف بتنور فرعون لأنه كان يوقد له عليه إذا أراد الركوب فيعرف الناس بركوبه فيتخذون له مايلزم وله بالمغافر إلى الجنوب من الفسطاط بئرا وسقاية تعرف بمفصة الكبيرة يستق منها الناس لقلة الماء هناك وقناطر تعرف بقناطر ابن طولون تمتد بالقرافة الكبرى وقد أمر ببناء مستشفى بالمعسكر للمرضى والمحبوسين من المجانين ولم يكن قبل ذلك بمصر مستشفى ولما فرغ منه رتب له مايلزم من أدوية وأغذية وأطباء وغيرها وأجرى عليه الأرزاق وحبس عليه ما يضمن بقاءه من حبوس وقد كان كثير الاهتمام به يركب اليه كل يوم جمعة بنفسه يزور المرضى ويتفقد شؤونهم ولما رأى أن مياه النيل لا تصل الى الاسكندرية وأن الترعة التى توصلها اليها قد سدت بالرمال أمر باعادة حفرها كما أمر بترميم مقياس النيل الذى بالروضة

حروبه المعروف بالصوفى

فى سنة ٢٥٦ خالف الصوفى مأمور أقليم أسنا ووضع يده على البلاد التى حوله وقتل من قاومه فأرسل الجيوش لمحاربته ولكنه لم يظفر به إلا سنة ٢٦٠ فلما ظفر به نفاه الى المدينة وفى سنة ٢٦١ عصى أهل برقة وأخرجوا أميرهم فبعث اليهم جيشا تحت قيادة غلامه لؤلؤ فسار اليهم وحاربهم وقهرهم وقتل من كبرائهم وأسر وقفل راجعا ولما مات أماجور التركى عامل دمشق وقام مقامه ابنه تاقت نفس ابن طولون لأخذ بلاد الشام وضمها الى مصر فخرج اليها فى عسكر عظيم واستخلف بمصر ولده العباس فلقيه ابن أماجور بالرملة مطيعا فأقره على ما بيده ثم سار إلى حمص فملكها وملك كذلك حماه وحلب ونازل أنطاكيه حتى أخذها سنة ٢٦٥ ﻫ بعد قتال شديد ثم مضى إلى طرسوس فدخلها ثم خرج عنها واستخلف عليها وتقدم فى فتوحه فبلغه أن أبنه العباس خالف عليه بمصر وأخذ الأموال وسار إلى برقة فلم يكترث بذلك وبقى إلى أن تمم

أعماله وحفظ البلاد التى افتتحها ثم عاد إلى مصر وأرسل لابنه يلاطفه ويطلب منه الرجوع إليه فمنعه خوفه منه فأرسل جيشا إلى برقة قاتل جيش العباس وهزمه سنة ٢٦٧ ﻫ وأسر العباس وعاد به إلى والده وقد وقع النفور بين ابن طولون وبين الموفق بالله أخى الخليفة العباسى المعتمد (وقد كان متغلبا على الأمور كلها دون الخليفة) وطال أمر هذا النفور واشتدت العدواة بينهما حتى أفضت إلى أن أمر الموفق عماله بلعن أبى طولون على المنابر وفى سنة ٢٦٩ ﻫ حصل قتال بين عسكريهما ثم عادا فتصالحا وتناسيا ما كان ففرح الخليفة المعتمد لذلك لميله إلى ابن طولون وإيثاره على الموفق ولما بلغ ابن طولون أن نائبه بطرسوس عصاه سار إليها وحاصرها وضيق على أهلها ثم تركها لشدة البرد وعاد لأنطاكية ومرض بها.

موته

لما اشتد مرضه بانطاكية عاد إلى مصر فتزايد عليه المرض ومات سنة ٢٧٠ﻫ وقد ترك من الأولاد ثلاثين ثلاثة عشر ذكور وسبع عشرة أناث وخلف من الذهب العين عشرة آلاف دينار ومن المماليك سبعة آلاف ومن العبيد السود أربعة وعشرين ألفا ومن الخيول آلافا وكذلك من البغال والحمير ومن الجمال وخلف من المراكب الحربية والتجارية ألف مركب.

مناقبه

كان ابن طولون حازما سديد الرأى بلغت غلة مصر فى أيامه عشرة آلاف ألف من الدنانير فى السنة وقد غالى بعضهم حتى جعلها عشرة أمثال ذلك وقال أنها بلغت مائة ألف ألف دينار سنويا وهو أول من جلس بنفسه فى مصر للنظر فى مظالم الرعية فكان يجلس لذلك يومين فى كل أسبوع ينظر فى التظلمات وينصف أصحابها وكان تقيا يحترم الشعائر الدينية غاية الاحترام وكان كثير

المعروف والصدقة ينفق فى سبيل ذلك ألفى دينار شهريا سوى مايطرأ عليه من النذور وصدقات الشكر على تجديد النعم وسوى مطابخه المقامة كل يوم للصدقات يقصدها من يشاء فيجد مايحب ويشتهى من طعام

ابو الجيش خمارويه بن أحمد

٢٧٠ — ٢٨٢ ﻫ

تولى بعد موت أبيه وله من العمر عشرون سنة ولقب بأبى الجيش فجعل يتصرف فى الأمور على أحسن مايكون من الرفق بالرعية والنظر فى الظلامات ولم يغير شيئا مما كان فى أيام أبيه فأبقى أرباب المناصب فى مناصبهم ولم يكد يستقر فى ملكه حتى طمع فى أملاكه بالشام بعض عماله بها وخرجوا عليه واستولوا على بعض البلاد واستعانوا بالموفق العباسى المتقدم فأمدهم بجيش عليه أبنه أحمد الذى صار الخليفة المعتضد فيما بعد فجرد خمارويه الجيوش لقتالهم وخرج معها ومعه قائد جيوشه سعد الأيسر فكانت بين الفريقين موقعة عظيمة سنة ٢٧١ تدعى موقعة الطواحين (لأن خمارويه كان نازلا على الماء الذى عليه الطوحين) من أرض فلسطين أنتهت بهزيمة الخارجين وانتصار جيوش خمارويه ومازال خمارويه يقاتل الخارجين عليه بالشام حتى ثبت ملكه بها وسكنت الفتن ثم أخذ فى الاصلاح وأقبل على قصر أبيه فزاد فيه وجعل الميدان كله بستانا وزرع فيه جميع أنواع الرياحين وغرس فيه الأشجار الغريبة التى أحضرها من كل جهة إلى مصر وبنى ميدانا آخر أكبر من ميدان أبيه وبنى بالفسطاط محلا واسعا جمع فيه أصناف الحيوان وجعل لكل مسكنا وحوض ماء من رخام وقد اتسعت اصطبلات خمارويه فجعل لكل صنف من الدواب اصطبلا مفردا وكان له أيضا اصطبلات تنتج فيها الخيل لحلبة السباق وللرباط فى سبيل الله تعالى وقد بلغت أرزاق الجيش فى أيامه تسعمائة ألف دينار فى كل سنة وفى سنة

٢٧٩ مات الخليفة العباسى المعتمد وتولى مكانه المعتضد فاغتنم خمارويه الفرصة وتقرب اليه وأرسل اليه هدايا نفيسه ثم زوجه ابنته قطر الندى فزفت اليه سنة ٢٨١ وضربت بجهازها الأمثال وبنى لها والدها على رأس كل منزلة تنزل فيها من مصر إلى بغداد قصرا مفروشا بأفخر الرياش ووصلت إلى بغداد فى أول سنة ٢٨٢ هـ وفى تلك السنة خرج خمارويه بعساكره إلى الشام ودخل إلى دمشق فمات مقتولا بها فى ذى الحجة ونقلت جثته إلى مصر ودفنت بسفح المقطم مع جثة أبيه أحمد وسبب قتله أنه نمى اليه أن بعض نسائه كن يتقابلن مع بعض كبار خدمه وتحقق من ذلك فاتفقوا على قتله لينجوا الجميع من العقاب فقتلوه على فراشه فى ليلة من ليالى ذى الحجة من سنة ٢٨٢ هـ بعد أن حكم اثنى عشرة سنة واثنى عشر يوما وقيل فى سبب قتله غير ذلك .

أبو العساكر جيش بن خمارويه

(٢٨٢ — ٢٨٣ هـ)

بعد قتل خمارويه بويع ابنه جيش الملقب بأبى العساكر وكان صبيا لم يبلغ رشده فعكف على لذاته وقرب الأحداث والسفلة وتنكر لكبار الدولة ولما علم بعزمهم على الفتك به توعدهم وأطلق لسانه فيهم حتى فارقه بعضهم وسار إلى الخليفة وخرج عليه بعض آخر من كبار عماله وخلعوا طاعته فلما رأى الجند ذلك وثبوا عليه وقتلوه لتسعة أشهر من ولايته ثم نهبوا داره وعاثوا فى المدينة فنهبوا ماقدروا على نهبه ثم أحرقوها .

هرون بن خمارويه

(٢٨٣ — ٢٩٢ هـ)

وبعد قتل جيش أقاموا أخاه هرون مكانه وفى سنة ٢٨٤ هـ أختل حال هرون واختلاف القواد والعمال عليه وأنحل نظام مملكته فقام المعتضد الخليفة

العباسى يريد اغتنام الفرصة والاستيلاء على مصر وتقدم نحو قنسرين وتملكها فخاف هرون سوء العاقبة وتنازل عن قنسرين والعواصم كلها للمعتضد فتسلمها وكف عن قتاله ولما مات المعتضد سنة ٢٨٩ هـ وخلفه المكتفى بالله عزم على فتح مصر فبعث سنة ٢٩١ هـ جيشا تحت قيادة محمد بن سليمان فاستولى على دمشق وسار حتى دنا من مصر فاستعد هرون للمدافعة ألا أن غالب قواده غدروا به ولحقوا بعسكر الخليفة فخرج فيمن بقى معه وجرى بينه وبين محمد بن سليمان وقعات ثم وقعت فى عسكره خصومة أدت إلى قتال بعضهم بعضا فركب هرون لرد بعضهم عن بعض فأصيب بطعنة من أحد المغاربة فوقع ميتا سنة ٢٩٢ هـ وقيل قتله عمه شيبان أبو المغازى وقيل قتله عماه شيبان وعدى وهو فى سكره.

شيبان بن احمد الملقب بأبى المغازى سنة ٢٩٢ هـ

وانقضاء الدولة الطولونية

وفى يوم مرت هرون أقيم عمه شيبان بن أحمد ولما لم تمكنه المقاومة لضعفه وذهاب أكثر أمراء الجيش لمحمد بن سليمان يطلب الأمان فأمنه ثم هرب شيبان ليلا بعد أن حكم أثنى عشر يوما فاستولى محمد بن سليمان على مصر واعتقل بنى طولون وأرسلهم إلى بغداد فلم يبق منهم بمصر أحد يذكر وخلت منهم الديار وعفت الآثار وانتهت دولتهم وعادت مصر وسائر ولاياتها للعباسيين ثانية وصاروا يرسلون إليها العمال من قبلهم وبقيت كذلك إلى خلافة الراضى بالله ثم قامت بها الدولة الأخشيدية.

سبب زوالها وبعض ماقيل من الشعر فى رثائها

هذه الدولة لم تعش ألا أكثر من ثلث قرن بقليل ولكنها قد عظم أمرها وامتد ملكها خارج مصر إلى أقصى الشام وكان لبعض ملوكها المواقف المحمودة فى القتال وخلفت من الآثار مايدل على مقدار مابلغت من العز والشوكة والغنى

والرفعة وأسباب زوالها ترجع إلى ضعف ملوكها ابتداء من جيش وذهاب هيبتهم من النفوس واختلاف القواد عليهم وانضمامهم فى أكثر الأحيان إلى الخليفة العباسي وتفرقهم فيما بينهم فى أشد الأوقات حرجا وعندبلوغ الأزمات على ملوكهم أشدها وأن كان لهم بعض ظلم فى آخر أيامهم وترف وبذخ وانغماس في الملاذ فليس بالشيء الكثير وأكبر ماأخذ عليهم خروجهم على الخليفة العباسي واستقلالهم بما فى أيديهم وفتحهم هذا الباب لغيرهم من الولاة ، وقد بكاهم الناس كثيرا بعد زوال سلطانهم ورثاهم الشعراء ولسان الشعر انطق وأبقى فمن رثاهم من الشعراء المعاصرين أحمد بن محمد الحبيشى وأحمد بن يعقوب واسماعيل بن أبي هاشم وسعيد القاص وغيرهم فما قاله سعيد القاص من قصيدة طويلة

وفقد بنى طولون فى كل موطن — أمر على الاسلام فقدا من القطر
وكان أبو العباس أحمد ماجدا — جميل المحيا لايبيت على وتر

إلى أن قال

وتنور فرعون الذى فوق قلة — على جبل عال على شاهق وعر
بنى مسجدا فيه يرون بناؤه — ويهدى به فى الليل أن ضل من يسرى
تخال سنا قنديله وضياءه — سهيلا إذا مالاح فى الليل للسفر
وعين معين الشرب عين زكية — وعين أجاج للرواة وللطهر

إلى أن قال

ولا تنسى مارستانه واتساعه — وتوسعة الأرزاق للحول والشهر
ومافيه من قوامه وكفاته — ورفقتهم بالمعتفين ذوى الفقر

إلى أن قال

فمن يبك شيئا ضاع من بعد أهله — لفقدهم فليبك حزنا على مصر
ليبك بني طولون إذ بان عصرهم — فبورك من دهر وبورك من عصر

الدولة الأخشيدية

٣٢٣ — ٣٥٨ هـ

أسترد العباسيون مصر من الطولونيين فبقيت فى حكمهم أكثر من ثلاثين سنة (٢٩٢ — ٣٢٣ هـ) فى أيام المكتفى والمقتدر والقاهر والراضى وفى عصر الراضى أستقل محمد بن طغج الأخشيد بمصر وأسس بها دولته فنسبت اليه وقد دام حكمها نحو خمس وثلاثين سنة وقام منها خمسة أمراء

أصلها

أصل هذه الدولة من أولاد ملوك فرغانة كان الخليفة المعتصم بن هرون الرشيد الذى هو أول من أكثر من المماليك الأتراك قد علم بأن فى فرغانة جماعة من أقوياء الترك وأشدائهم وبينهم شاب من أولاد ملوكهم أسمه جف فسير فى طلبهم فقدموا وقدم جف المذكور معهم فلما رآه المعتصم مال إليه وأحبه وأدناه من بابه وأقطعه أقطاعا بسر من رأى عرف به ومازال وافى نعمة وافرة إلى أن مات ببغداد سنة ٢٤٧ هـ فخرج أولاده الى البلاد يتصرفون ويطلبون الرزق واتصل أحدهم وهو طغج أيام الدولة الطولونية بلؤلؤ غلام أحمد ابن طولون (ولؤلؤ هذا هو الذى كان محمد بن سليمان الذى أزال الدولة الطولونية كاتبا له فى أول أمره ولذا يقال له محمد بن سليمان الكاتب) فمال إليه لؤلؤ واستخدمه على بعض مصالح الدولة ثم اتصل بخمارويه أيام ولايته فقربه إليه وقدمه على جميع من عنده وولاه على دمشق وطبرية ولم يزل خمارويه إلى أن قتل فذهب إلى بغداد ولحق بالخليفة العباسى المكتفى بالله فأحبه وخلع عليه خلعة الرضا ولكنه لم يتذلل لوزيره يومئذ العباس ابن الحسن كغيره من أرباب المناصب فأوقع به عند الخليفة المكتفى فحبسه وحبس معه أبنه محمدا ومازال طغج فى السجن حتى مات وبقى محمد بن طفج

مسجونا مدة ثم أطلق وخلع عليه ولم يزل يرصد الوزير العباس ابن الحسن حتى أخذ بثأر أبيه منه وخرج هاربا إلى الشام سنة ٢٩٦ ﻫ .

بدء أمرها وكيفية ظهورها

وبعد هروب محمد بن طفج إلى الشام أقام متغربا بالبادية حولا كاملا ثم أخذ يتغلب فى الوظائف حتى كانت سنة ٣١٨ ﻫ ، فكتب إليه المقتدر بولاية دمشق فسار إليها ولم يزل بها إلى أن ولاه القاهر بالله ولاية مصر سنة ٣٢١ ﻫ ولكنه لم يذهب إلى مصر لاستلام هذا المنصب ولم يلقب به إلا مدة شهر فقط ثم عين الخليفة مكانه ابن كيغلغ ولما تولى الخلافة الراضى بالله بعد خلع القاهر أعاد محمد بن طفج إلى مصر مرة ثانية سنة ٣٢٣ ﻫ ، فلما رأى ماعليه الدولة العباسية من الانحلال وارتباك الأحوال طمع فيما فى يده وصرح باستقلال مصر ومنع خراجها عن الخليفة ودعا نفسه سلطانا عليها سنة ٣٢٤ ﻫ .

أبو بكر محمد بن طفج الاخشيدى

(٣٢٣ — ٣٣٤ ﻫ)

ولد محمد بن طفج الأخشيد سنة ٢٦٨ ﻫ ببغداد ونشأ شجاعا باسلا كثير التيقظ حسن التدبير فنال شهرة وعم ذكره الآفاق حتى هابه الملوك وتقربوا منه وقد استقل بمصر سنة ٣٢٤ ﻫ كما تقدم ولما صرح باستقلاله بها اضطر الخليفة إلى تثبيته وضم إليه البلاد الشامية والجزيرة والحرمين وقد قدم أبو الفتح الفضل ابن جعفر من قبل الخليفة بالخلع لمحمد بن طفج فلبسها ثم زاد فى نعمته ولقبه سنة ٣٢٧ ﻫ بالأخشيد ودعى له به على المنابر والأخشيد لقب أجداده ملوك فرغانة (ومعناه ملك الملوك) وكان هذا اللقب عندهم ككسرى عند الفرس وقيصر عند الرومان وخاقان عند الترك والنجاشي عند الحبشة وقد أشتهر بهذا اللقب حتى نسبت إليه دولته.

مقاومته لجيش الفاطميين

وكان لمحمد بن طغج حروب مع أصحاب أحمد بن كيغلغ انكسروا فيها وخرجوا من مصر على أقبح وجه واتصلوا بالقائم بأمر الله الفاطمى بالمغرب وحرضوه على أخذ مصر وهونوا عليه أمرها فأعد جيشا وأرسله إليها ولما بلغ ذلك الأخشيد حصن الحدود الغربية وجعل فيها حامية قوية ألا أن ذلك لم يمنع جيوش القائم بأمر الله من التقدم وفتح الاسكندرية واحتلال قسم كبير من الصعيد ولما صعب عليها أتمام الفتح عادت من حيث أتت وأجلت ذلك إلى فرصة أخرى.

حروبه مع ابن رائق

طمع محمد بن رائق فى فتح الشام وقدم إليها يريد التغلب عليها وتقدم حتى وصل إلى دمشق وكان عليها بدر بن عبد الله من قبل الأخشيد فأخرجه ابن رائق منها وملكها وسار لمهاجمة مصر حتى بلغ العريش فالتقى بعساكر الأخشيد التى كانت قادمة لقتاله وكانت بينهما موقعة عظيمة انكسرت فيها ميمنة الأخشيد وثبت هو فى القلب ثم حمل بنفسه على أصحاب ابن رائق فهزمهم وأسر كثيرا منهم وأما ابن رائق فقد نجا فى قليل من أصحابه ووصل إلى دمشق مهزوما فبعث اليه الأخشيد أخاه أبا نصر الحسين بن طغج فى جيش فبرز اليهم ابن رائق وقاتلهم وهزمهم وقتل أبو نصر فى المعركة فعز على ابن رائق قتل أخى الأخشيد فحنط جثته وكفنها وأرسلها مع ابنه مزاحم إلى الأخشيد بمصر وبعث معه كتابا يعزيه ويعتذر اليه ويحلف له أنه ما أراد قتله وأنه أرسل ابنه مزاحما اليه ليفتديه به أن أراد فتلقى الأخشيد مزاحما بالترحاب والقبول وخلع عليه الخلع السنية وعامله بكل جميل ورده إلى أبيه ثم اصطلحا على أن تكون الرملة وماوراءها الى مصر للأخشيد وباقى الشام لمحمد بن رائق ويحمل اليه الأخشيد

عن الرملة عن كل سنة مائة وأربعين ألف دينار وأن كلا منهما يطاق أسرى الآخر ولما تم هذا الصلح بينهما عادت عساكر الأخشيد الى مصر سنة ٣٢٩ هـ ثم بقى الأمر على ذلك إلى أن قتل ابن رائق سنة ٣٣٠ هـ فى واقعة حصلت بينه وبين بنى حمدان بالموصل فسار الأخشيد الى الشام مسرعا لاسترجاعها وعاد إلى مصر سنة ٣٣١ هـ بعد أن استولى على دمشق وماجاورها وفى هذه السنة أوصى بالحكم من بعده لابنه أبى القاسم محمود الملقب بأنوجور

حروبه مع سيف الدولة ابن حمدان

وفى سنة ٣٣٣ هـ حصلت محاربات بين سيف الدولة بن حمدان وجيوش كافور قائد عسكر الأخشيد وانهزم كافور وملك سيف الدولة حمص وحاول الاستيلاء على دمشق وحينئذ خرج الأخشيد الى الشام ووقع القتال بينه وبين سيف الدولة بن حمدان ثم اصطلحا على أن يكون لسيف الدولة حلب وأنطاكية وحمص وللأخشيد مابقى من الشام وتأييداً لهذا الصلح تزوج سيف الدولة بنت الأخشيد ولكن لم يدم هذا الصلح طويلا وعاد النفور بينهما مرة ثانية فأرسل الأخشيد جيشا عظيما لقتال سيف الدولة مع خادمه كافور وأبى شجاع فاتك الملقب بالمجنون وخرج خلفهم وسار حتى لقى سيف الدولة وقهره وأخذ منه حلب

موته

وبعد انتصاره على سيف الدولة عاد إلى دمشق ولبث بها أياما فمرض ومات سنة ٣٣٤ هـ ثم نقل إلى بيت المقدس ودفن هناك وقد خلف عدة ذكور

صفاته ومناقبه

كان حازما عارفا بأساليب الحرب يقظا فى مصالح دولته مكرما لجنده شديد البطش ذا هيبة عظيمة متجملا فى مركبه وملبسه فكان موكبه يضارع موكب

الخليفة بلغت عدة مماليكه ثمانية آلاف وعدد جيوشه أربعمائة ألف وكان يكره سفك الدماء شديد التحرز على نفسه فكانت تحرسه مماليكه بالمناوبة فاذا نام حرسه ألف مملوك ويضع الخدم بجوانب خيمته إذا سافر وقد بلغ خراج مصر فى أيامه ألفى ألف دينار سوى ضياعه التى كانت ملكا له خاصة

أبو القاسم محمود الملقب بانوجور

(٣٣٤ — ٣٤٩ هـ)

وبعد وفاة أبى بكر الأخشيد تولى ابنه أبو القاسم أنوجور (معناه بالعربية محمود مقامه) وكان صغيرا فأقيم كافور الأخشيدى وزير أبيه أتابكا له (كانت تطلق لفظة أتابك على مربى أولاد الملوك ثم استعملت فيمن يتولى الصدارة العظمى أو قيادة الجنود) فكان يدير المملكة نيابة عن أناجور بأمانة ونشاط وليس لأناجور من الملك سوى الاسم ولما علم سيف الدولة بموت الأخشيد ومغادرة ابنه أناجور لدمشق اغتنم الفرصة وسار بجيوشه الى دمشق واستولى عليها فلما علم كافور بذلك سار بالجيش ومعه أنوجور وتلاقى الجيشان فى الرملة وبعد قتال شديد انهزم سيف الدولة الى الرقة وأعاد كافور دمشق إلى مصر وفى سنة ٣٤٥ هـ أغار ملك النوبة على مصر العليا فبعث كافور جيشا مع القائد محمد بن عبد الله الخازن من طريق البر وأنفذ أسطولا فى نهر النيل وآخر فى البحر الأحمر فنزل على الساحل من وراء النوبة لقطع خط رجعتهم فتضايق النوبيون وهربوا فاستولى المصريون على حصن أبريم ثم كبرت سن أبى القاسم أنوجور ودام الاستقلال بالأمر وأزالة كافور بذلك قتله فمات مسموما سنة ٣٤٩ هـ

ابو الحسن على

(٣٤٩ — ٣٥٥ هـ)

وبعد موت أنوجور بن الاخشيد تولى أخوه أبو الحسن على مكانه ولم يكن له من حظ الملك فى جانب كافور غير ماكان لأخيه أنوجور وبقى مغلوبا على أمره والتدبير كله لكافور وفى سنة ٣٥١ هـ حصل بمصر قحط لعدم وفاء النيل وتعاقب ذلك تسع سنوات فاشتد الحال بالناس واضطربوا وكثر النهب والسلب ثم فسد مابين أبى الحسن وبين كافور ووقع النفور بينهما وفى خلال ذلك قدم روم القسطنطينية تحت قيادة أمبراطورهم الى سوريا واستولوا على مدينة حلب (التى كانت حينئذ مع سيف الدولة) وهزموا سيف الدولة فأسرع حاكم دمشق من قبل الاخشيد لمساعدة سيف الدولة بعشرة آلاف مقاتل فلما علم أمبراطور الروم بذلك آثر الرجوع وقد مرض أبو الحسن على بن الاخشيد ومات سنة ٣٥٥ هـ بعد أن أقام نحو خمس سنوات

كافور الاخشيدى

(٣٥٥ — ٣٥٧ هـ)

كافور هذا من موالى محمد الاخشيد ارتقى لدى سيده حتى وثق به الثقة التامة وكان عبدا أسود خصيا مثقوب الشفة السفلى بطينا جاب الى مصر سنة ٣١٠ هـ وعمره عشر سنين فما فوقها فباعه الذى جلبه لمحمد بن هاشم وباعه ابن هاشم لابن عباس الكاتب فأرسله ابن عباس الكاتب ذات يوم بهدية إلى محمد بن طغج الأخشيد وهو يومئذ أحد قواد تكين أمير مصر فأخذ كافورا ورد الهدية وألحقه بخدمته فترقى عنده حتى صار من أخص خدمه ثم تقدم لعقله ورأيه إلى أن صار من كبار القواد ثم لما مات سيده صار أتابك ولده

بأنوجور أيام حكمه كما تقدم وأمتدت به الأيام حتى استقل بالأمر دون بنى الأخشيد فبلغ مالم يبلغ أحد من الخصيان وقد مدحه المتنبي بقوله :

قواصد كافور توارك غيره ومن قصد البحر استقل السوافيا
فجاءت بنا إنسان عين زمانه وخلت بياضا خلفها ومآقيا

وهجاه حين غضب بقوله :

من علم الأسود المخصى مكرمة أقومه البيض أم أباؤه الصيد
وذاك أن الفحول البيض عاجزة عن الجميل فكيف الخصية السود

ولما أستبد كافور بالأمر دون بنى الأخشيد بعد موت أبى الحسن طلب من الخليفة العباسى المطيع لله أن يقره على ما كان للأخشيديين فكتب له المطيع بعهده على مصر والشام والحرمين وكناه العالى بالله فلم يقبل الكنية تواضعا منه وتلقب بالأخشيدى واستوزر أبا الفضل جعفر بن الفرات فعادت سلطة العباسيين إلى مصر من ذلك الحين وصار يدعى لكافور على منابر مكة والحجاز جميعه ومصر وبلاد الشام من دمشق وأنطاكية وحلب وغيرها ولم تطل أيامه ومات بمصر سنة ٣٥٧ هـ فكانت مدة تصرفه سنتين وأربعة أشهر وقد كان من أعاظم الملوك جوادا ممدوحا كبير السياسة كثير التبصر فى العواقب عظيم الخشية لله والخوف منه وكان يدارى المعز العبيدى صاحب المغرب ويهاديه كما يهادى صاحب بغداد وصاحب اليمن وكان يجلس للمظالم فى كل سبت إلى أن مات وقد بلغت الرواتب فى أيامه خمسمائة ألف دينار فى السنة لارباب النعم والمستورين وأجناس الناس ليس فيهم أحد من الجيش ولا من الحاشية ولا من المتصرفين فى الأعمال .

ابو الفوارس احمد بن الاخشيد

(٣٥٧ — ٣٥٨ هـ)

وانتهاء الدولة الأخشيدية

لما مات كافور اجتمع أهل الدولة وولوا بعده أبا الفوارس أحمد بن على ابن محمد الأخشيد ولم يكن له من العمر أكثر من أحدى عشرة سنة فلم يقره الخليفة العباسى المطيع لله فى الحكم وقام بتدبير أمره الحسن الأخشيدى ابن عمه واستوزر كاتبه جابر الرياحى وفوض أمر مصر إليه ثم أنقسمت الأسرة الأخشيدية على نفسها وارتبكت أحوال الدولة من كثرة الفتن التى كانت تنبىء بقرب انقراضها ولكثرة ماحل بمصر من الأضطراب سئم المصريون وملوا ذلك واستنجدوا الفاطميين أصحاب المغرب فكان ذلك جل أمنيتهم وبعث المعز لدين الله قائده جوهر الصقلى الكاتب إلى مصر سنة ٣٥٨ هـ على رأس مائة ألف مقاتل فسار بهم جوهر من القيروان إلى مصر مارا ببرقة ذلك وملك الأسكندرية ثم الجيزة ثم جاز إلى مصر وحاصرها وبها أبو الفوارس الأخشيدى وأهل دولته ثم فتحها بلا قتال ولا مشقة فى السنة المذكورة وقتل أبا الفوارس وكل من خاف منه وبعث بالأموال والغنائم الى القيروان وأصحبها بوفد من علماء وقضاة مصر وانقرضت بذلك دولة بنى طفج المعروفة بالأخشيدية فتم للفاطميين فتح مصر وأخراجها من حوزة العباسيين ومن ذلك الوقت قامت بمصر الدولة الفاطمية

سبب زوالها

قد كان للأخشيد مؤسس هذه الدولة ولكافور من بعده المواقف المحمودة

فى القتال والبلاء الحسن فى الفتح مما شرف مصر ورفع قدرها ومد نفوذها خارج حدودها إلى أقصى الشام شمالا والى الحجاز جنوبا ولن يجد الباحث من سبب لانقضاء أيامها وزوال سلطانها أكثر من حداثة سن بعض ملوكها وضعفهم وتغلب أعوانهم ووزرائهم عليهم ثم تفرق كلمة أعضاء الأسرة الأخشيدية أخيرا وانقسامهم فيما بينهم حتى ساعدوا أعدائهم والفاتحين لمصر على أنفسهم والله غالب على أمره وتلك الأيام نداولها بين الناس

الدولة الفاطمية بمصر

٣٥٨ — ٥٦٧ هـ

تنسب هذه الدولة للسيدة فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ وزوج على ابن أبى طالب ويقال لخلفائها الفاطميون لأنهم يدعون أنهم من نسلها كما يقال لهم العلويون وتنسب أيضا لرأسها ومؤسسها عبيد الله المهدى فيقال لها الدولة العبيدية وقد دام حكمها ٢٧١ سنة (٢٩٦ — ٥٦٧ هـ) منها ٦٢ سنة بالمغرب (٢٩٦ — ٣٥٨ هـ) و ٢٠٩ سنة بمصر (٣٥٨ — ٥٦٧ هـ) وقد قام منها أربعة عشر خليفة ثلاثة منهم حكموا بالمغرب وكان مقرهم القيروان ثم المهدية (جنوبى تونس) وأولهم عبيدالله المهدى وأحد عشر حكموا بمصر والشام وكان مقرهم القاهرة وأولهم المعز لدين الله .

ماقيــل فى نسبها

اختلف المؤرخون فى نسب عبيد الله المهدى مؤسس هذه الدولة فمنهم من يجعل نسبه إلى على بن أبى طالب والسيدة فاطمة زوجه وبنت رسول الله ويقول أنه عبيد الله المهدى بن محمد الحبيب بن جعفر الصادق بن محمد المكتوم بن جعفر الصادق بن محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب وهناك فريق ينفى عنه هذا النسب ويرجع نسبه الى اليهودية ويقول أنه ابن

يهودى حداد وآخرون يقولون أنه ابن مجوسى والمعول عليه هو صحة نسبه إلى على بن أبى طالب ويظهر أن هذه الأقوال قد دسها عليهم العباسيون ونشروها وأثبتوها من طريق باطل وتبعهم فى ذلك دعاتهم لما كان بينهم وبين الفاطميين من العداوة والبغضاء خوفا على زلزلة أركان ملكهم وتقويض بنيانه لأن الفاطميين زاحموهم فيه فى كثير من الجهات وقد كان الفاطميون فى أول أمرهم يوجسون خيفة من العباسيين ويحذرون بطشهم ودائما يتوقعون الغدر منهم فلاذوا بالاختناء وما كادوا يعرفون حتى تسمى أحد أجداد عبيدالله بالمكتوم سماه بذلك الشيعة لاخفائهم أمره خوفا عليه من المتغلبين عليهم .

أصلها ومبدأ ظهورها

لم يزل من بقى من نسل سيدنا على بن أبى طالب مذ خرجت عنهم الخلافة وهم يدعون أنهم أهلها وأنهم أحق بها من سواهم وأن خلافة غيرهم باطلة وقد تشيع لهم كثير من الناس وتبعوهم فى هذا الرأى ثم ابتدعوا لهم مذاهب خاصة بهم فسموا بالشيعة وأنكر عليهم ذلك بقية المسلمين وخالفوهم فيما رأوه وذهبوا إليه فدعوا بأهل السنة والجماعة وقد دأب العلويون فى نشر دعوتهم هذه بعد موت الحسن وقتل الحسين أيام بنى أمية وبعض أيام بنى العباس إلا أنهم كانوا لا يلاقون إلا الحبس والقتل والتشريد وقتل من يخرج من أئمتهم ولم يكن ذلك بمثبط لهمتهم وازدادوا مجاهرة بمطالبهم حتى نال بعضهم ما بقى على طول الأيام وبلغ أمارة وملكا وأصل هذه الدولة قوم من الشيعة وطائفة من غلاتهم وأول من ظهر منهم عبيدالله المهدى ظهرت كلمته وعرفه الدعاة بالشام ونادى فى الناس أن الحق فى الخلافة لنسل فاطمة ولما شاع خبره عند الناس أراد الخليفة المكتفى بالله القبض عليه فهرب إلى الحجاز واجتمع هناك على بعض الحجاج من أهل المغرب ورافقهم عند عودتهم إلى مصر ولما رأوا فيه أنه ذو ذكاء لحوا

عليه بالسفر معهم الى المغرب فقبل دعوتهم وسافر معهم ولما وصل إلى المغرب صار ينتقل من مكان إلى آخر حذرا وخوفا على نفسه وأخيرا قبض عليه وسجن فى سلجماسة بالمغرب الأقصى وقد كان أبو عبدالله الشيعى الذى هو أحد دعاته قد ذهب إلى بلاد المغرب منذ سنة ٢٨٠ ﻫ ليقوم بنشر الدعوة له هناك وكان له علم ومكر ودهاء فاستمال اليه الأهالى وبمساعدتهم تمكن من الوقوف أمام جيش الأغالبة ومقاتلتهم (وهم حكام أفريقية (تونس) من قبل العباسيين) ومازال يقوى أمره ويعظم شأنه حتى هزم جيوش الأغالبة فى عدة وقائع فخرج آخر أمير منهم (وهو أبو مضر زيادة الله) هاربا إلى المشرق وانتهت أيام بنى الأغلب بتونس سنة ٢٩٦ﻫ وأما أبوعبدالله فدخل رقادة بالقرب من القيروان ونزل بقصرها ولما استقرت له الأمور فى رقادة وسائر بلادأفريقية خرج قاصدا سلجماسة وأخرج المهدى وابنه من سجنها وعادوا إلى أفريقية وبويع للمهدى البيعة العامة ٢٩٧ ﻫ وكان هذا مبدأ الدولة الفاطمية أو العبيدية

عبيدالله المهدى

(٢٩٧ — ٣٢٢ﻫ)

وبعد أن استولى على ملك بنى الأغلب بأفريقية وتلقب المهدى أميرالمؤمنين بث دعاته فى الناس فأتوه طائعين ثم دون الدواوين وجبى الأموال وبعث العمال على البلاد وأيضا على صقلية التى خضع له واليها الذى كان عليها من قبل بنى الأغلب ولما استقرت له الأمور وقويت شوكته وخشى أن ينازعه أبو عبد الله فى السلطة قتله مع أنه هو الذى كان سببا فى توطيد خلافته كما قتل من قبله جعفر المنصور أبا مسلم الخراسانى الذى وطد دعائم دولة العباسيين بشمال افريقية وضرب عليهم الجزية ومد سلطانه من المحيط الأتلانطيق إلى حدود مصر وجعل مقامه فى مدينة رقادة بالقرب من القيروان وفى سنة ٣٠٣ ﻫ شرع فى

بناء مدينة سماها المهدية نسبة إليه على نحو مائة ميل من تونس وأتمها سنة ٣٠٦ﻫ بعد ثلاث سنوات وجعلها مقر ملكه واتخذ بها دار صناعة لأنشاء السفن وقد كان من أكبر أماني عبيد الله المهدي فتح مصر وضمها إلى أملاكه الواسعة لما هي عليه من الثروة والخصب فأرسل الجيوش لغزوها والاستيلاء عليها ثلاث مرات وكان القائد في مرتين منها ابنه وولي عهده (أبو القاسم) ولكنها لم تنجح في كل مرة وعادت مهزومة ثم شغل بالأمور الداخلية باقي حياته حتى مات سنة ٣٢٢ ﻫ بعد أن حكم ٢٤ سنة وشهراً واحداً.

القائم بأمر الله أبو القاسم محمد

(٣٢٢ — ٣٣٤ﻫ)

بعد موت عبيد الله خلفه ابنه الأكبر القائم بأمر الله أبو القاسم محمد فتبع سيرة أبيه وبعد أن أطفأ الفتن والثورات وجه همته للغزو والفتح فأرسل أسطولاً ضخماً لغزو ساحل أوروبا فأغار على شواطئ إيطاليا وفرنسا والأندلس وبعث جيشاً إلى مصر هزمه الأخشيد وفي سنة ٣٣٣ ﻫ خرج عليه أبو زيد الخارجي وكان على مذهب طائفة من الخوارج يرى تكفير أهل الملة واستباحة دمائهم وأموالهم فاشتدت شوكته وكثر أتباعه وهزم جيوش القائم غير مرة وملك بعض المدن وحاصر القائم في المهدية وكان يغلبه عليها وبعد طول حصارها رحل عنها إلى القيروان وفي تلك الأثناء مات القائم سنة ٣٣٤ﻫ بعد أن حكم ١٢ سنة وستة أشهر.

المنصور اسماعيل

(٣٣٤ — ٣٤١ﻫ)

وبعد وفاة القائم خلفه ابنه المنصور اسماعيل فكتم موت أبيه خوفاً من أن يعلم أبو يزيد فتتزايد فتنته وأبقى الأمور على حالها ثم سار بنفسه إلى

القيروان لقتال أبي يزيد واستردها منه سنة ٣٣٥ هـ وهزم جيشه ومازال يتعقبه من بلد إلى آخر وهو يفر أمامه حتى ظفر به وحمل إليه وبقي أسيرا عنده إلى أن مات من جراحه سنة ٣٣٦ هـ وأراح الله أهل المغرب من فساد بدعته ثم التفت لأمر الملك بعد أن أعلن موت والده فوطد أركانه وقوى بنيانه ومازال يتصرف حتى مات سنة ٣٤١ هـ وهو ثالث من ظهر ومات بالمغرب من الفاطميين وكان خطيبا بليغا يرتجل الخطبة لوقته شجاعا عاقلا .

المعز لدين الله أبو تميم معد

(٣٤١ — ٣٦٥ هـ)

تولى بعد وفاة أبيه المنصور واتبع في سياسته خطة أسلافه فأخذ يوطد الأمور في بلاده ويوسع نطاقها حتى دانت له جميع رؤساء القبائل المغربية وامتد سلطانه على جميع شمال أفريقية من برقه الى المحيط الأتلانطيق وعلى معظم جزائر البحر الأبيض المتوسط من صقلية وسروانية ومالطة وغيرها وكان أخضاع أقاصي المغرب سنة ٣٤٦ هـ على يد وزيره جوهر الصقلي

فتحه لمصر

ثم صرف همته لفتح مصر وانتهز فرصة الشقاق الذي كان بين الأخشيديين واشتغال الدولة العباسية بما يحيط بها من الفتن عن مساعدتها فسير لفتحها أكبر قواده جوهر الصقلي (وجوهر هذا مملوك رومي من موالي المنصور عظم أمره وارتقى إلى رتبة الوزراء) في مائة ألف مقاتل ووضع تحت تصرفه أربعة وعشرين ألف ألف دينار فما زال جوهر في طريقه إلى مصر حتى دخلها بلا ضرب ولا طعن سنة ٣٥٨ هـ كما تقدم وسلمت له الفسطاط والاسكندرية وجميع بلاد مصر فابتدأت الدولة الفاطمية بمصر من ذلك العهد ثم نزل الفسطاط بمن معه وصلى بجامع عمرو وأقام الخطبة للخليفة المعز ثم أمر المؤذنين أن يؤذنوا

بحي على خير العمل كأذان الشيعة وشرع فى الحال فى توطيد الأمور بمصر وأصلاح حالها حتى بلغ خراجها فى السنة التى دخلها فيه ٣٤٠٠٠٠٠ دينار بعد ماكانت فى اسوأ الأحوال

بناء القاهرة والجامع الأزهر

ولما استتبت الراحة والأمن بأرض مصر ومكن جوهر بها سلطة الفاطميين شرع فى بناء حاضرة جديدة لهم بها ليفاخر بها بغداد حاضرة العباسيين فاختط القاهرة سنة ٣٥٩ ﻫ فى الموضع الذى نزل به الجند يوم جاء لفتح الفسطاط (وهو شمالى الفسطاط وشرق النيل على نحو ميل منه) وموقعها الآن وسط مدينة القاهرة الحالية وقد أحاطها بسور منيع فيه أبواب بناه من اللبن وبنى فى وسطها حيث الجهة المعروفة الآن ببيت القاضى قصرين لسكن الخلفاء قصر كبير شرقى وهو منزل لسكنى الخليفة وحرمه وأسرته وفيه الدواوين وبيت المال وخزائن السلاح وغير ذلك وقصر صغير غربى تجاهه وموضعه الآن المارستان الكبير المنصورى (مارستان قلاوون) ويتحول إليه الخليفة فى أيام النيل للنزهة على الخليج وعلى البساتين القريبة منه وكان بين القصرين ميدان عظيم يكفى لاستعراض عشرة آلاف جندى مابين فارس وراجل وقد تم بناؤها سنة ٣٦٢ بعد نحو ثلاث سنوات وانما سميت القاهرة لوضع أسسها عند توسط المريخ المعروف عند العرب بالقاهر وقد أسس أيضا جوهر بأمر المعز أول جامع بنى بالقاهرة وهو الجامع الأزهر الشريف شرع فى بنائه سنة ٣٥٩ وأتمه سنة ٣٦١ وجعل به دار كتب عظيمة تجمع أشهر المؤلفات وخصص له العلماء والمدرسين فى كل علم حتى صار مدرسة تدرس فيه جميع العلوم النقلية والعقلية وقد أخذت شهرته من أيام المعز تنتشر فى الآفاق وقصده الطلاب من جميع الأقطار الاسلامية لطلب العلم (ولم يزل كذلك حتى الآن) فصارت بذلك القاهرة مقراً للعلوم

والمعارف كبغداد وقد طرأ عليه بعد ذلك كثير من التجديد فجدده الحاكم بأمر الله وجعل له أوقافا ثم جدده المستنصر ثم جدده الحافظ وبنى فيه مقصورة بجوار الباب الغربى وهؤلاء جميعهم من الفاطميين ثم جدده الظاهر بيبرس وزاد فى بنائه وهكذا مازال الأزهر معتنى بتجديده والزيادة فى بنائه من الملوك والولاة معمورا بالعبادة وتدريس كثير من الفنون الدينية وغيرها إلى أن اعتنى به اعتناء تاما خديوى مصر السابق عباس حلمى باشا وبنى به الرواق العباسى المنسوب اليه وأزال ماحوله من الحوانيت ولم يزل موضع رعاية من أتى بعده من ملوك مصر إلى الآن

انتشار نفوذه خارج مصر واتساع دولته

بعد أن استقامت الأمور لجوهر أرسل جيشا إلى الشام فوصل الرملة وملكها ثم سار إلى طبرية فوجد أهلها قد أقاموا الدعوة للمعز قبل وصوله ثم ملك دمشق بعد حرب وقتال ونشر عقيدة الشيعة فيها على كره من أهلها الذين كانوا شديدى الكراهة للشيعة منذ خلافة معاوية وقد اعترف للمعز الأمير الحمدانى الوالى على شمال الشام بالسيادة على حلب كما امتد نفوذه الى الحجاز وخطب له فى مكة والمدينة

قدوم المعز من المغرب إلى مصر

فى سنة ٣٦١ هـ عزم المعز على المسير إلى مصر فمهد الأمور فى بلاد المغرب وأناب عنه من يدير شؤونها فسار اليها فى موكب حافل ومعه عشيرته وحاشيته وأمواله وأمتعته وسار إلى طرابلس وخرج منها إلى الاسكندرية وتلقاه أعيانها فأكرمهم ثم سار إلى القاهرة فدخلها سنة ٣٦٢ هـ ونزل بالقصرين وصارت القاهرة مقر ملكه ومقر ملك الخلفاء الفاطميين من بعده إلى آخر دولتهم

القرامطة وتهديدهم مصر

القرامطة طائفة من الشيعة لها مذهب مخصوص ظهرت بالعراق آخر القرن الثالث الهجرى وكان ديدنها التخريب والتدمير وتنسب إلى رجل اشتهر بقرمط وهو صاحب مذهبها وقد كان لهم ضريبة يأخذونها من دمشق كل سنة ولما استولى الفاطميون عليها كما تقدم منعت عنهم فغضبوا لذلك وأغاروا على دمشق وأخرجوها من يد الفاطميين سنة ٣٦٠ هـ ثم ساروا بجيوشهم الى مصر فهزمهم جوهر أمام القاهرة وفروا هاربين وفى سنة ٣٦٧ هـ زحف القرامطة على مصر ثانية وحصلت حروب هائلة بينهم وبين جيوش المعز فضعف عن مقاومتهم ولم يستطع المعز الانتصار عليهم إلا بالتفريق بينهم واستمالة أحد رؤسائهم من البدو بمائة ألف دينار أرسلها اليه وكان أكثرها زائفا

مـوته

وفى سنة ٣٦٥ هـ مات المعز من حمى أصابته ومدة خلافته ٢٣ سنة منها سنتان وستة أشهر بمصر والباقى ببلاد المغرب

صفاته ومناقبه

يمتاز بالعلم والفضل والجود والشجاعة وله دراية عظيمة بكثير من اللغات يجيد اللغات البربرية والسودانية والرومية وتعلم اللغة الفارسية أيضا وكان سياسيا حكيما محبا للعدل والأنصاف بين الرعية مغرما بالنجوم يقول الشعر العربى (ومما يؤثر عنه أنه سئل مرة من بعض الأشراف عن نسبه فقال لهم سنعقد مجلسا نجمعكم فيه ونسرد عليكم نسبنا ثم جمع الناس فى مجلس فى قصره وسل نصف سيفه وقال هذا نسبي ونثر عليهم ذهبا كثيرا وقال هذا حسبي فقالوا جميعا سمعنا وأطعنا) وقد بذل غاية وسعه فى استجلاب محبة الناس فكان يرأس بنفسه حفلة قطع الخليج ويرسل كسوة فاخرة للكعبة كل عام ويمنع جنده من

البقاء فى المدينة بعد الغروب إجتنابا لما عساه أن يحدث منهم من هياج وألغى نظام جباية الخراج بواسطة الملتزمين لما كان يترتب عليها من الأضرار فزاد الخراج من غير أن يضر بمصالح المزارعين وأما ثروة مصر وغناها فى أيامه فحدث ولا حرج فعصره فى مصر من أزهى العصور وأيامه مبدأ عصر جديد فى تاريخ الفاطميين .

العزيز بالله أبو منصور نزار

(٣٦٥ — ٣٨٦ هـ)

تولى بعد وفاة أبيه فسادت فى عهده السكينة فى البلاد واستقامت أحوالها فدل ذلك على حسن أدارته وأكثر حروبه كانت فى سوريا ولم تفقده شيئا بل عظمت هيبته وكان شديد التسامح مع المسيحيين وهو الذى بدأ بناء الجامع الذى يعرف بجامع الحاكم (لأن الحاكم هو الذى أتمه) بجوار باب الفتوح وهو أول من استخدم من الخلفاء الفاطميين جند الترك وأول من سار فى موكب إلى الجامع فى كل يوم جمعه من رمضان للصلاة بالناس وكان مغرما بالأكثار من الأساطيل كريما شجاعا عظيم العفو مولعا بالصيد ماهرا فيه وقد مات ببلبيس سنة ٣٨٦ هـ وحمل إلى القاهرة ودفن فى تربة القصر بعد أن حكم أحدى وعشرين سنة وخمسة أشهر .

الحاكم بامر الله أبو على المنصور

(٣٨٦ — ٤١١ هـ)

تولى بعد وفاة أبيه وكان عمره أحدى عشرة سنة فقام بتدبير مملكته وزيره برجوان كما أوصى والده (وكان برجوان هذا خصيا أبيض حسن التدبير) وما زال يدير الأمور ويمهد العقبات ويثبت سلطة الحاكم بأمر الله و يفتح

الفتوحات الكبار حتى أبغضه الحاكم وأراد التخلص منه فقتله سنة ٣٨٩ هـ
ثم علت كلمة الحاكم بأمر الله فسير الجيوش للغزو واشتد على القواد وكبار القبائل بمصر وأكثر فيهم القتل فخرج عليه الوليد المعروف بأبي ركوة وكبار القبائل وأكثر القواد فانتصر عليهم بعد حروب كثيرة كان النصر فيها متبادلا (وأبو ركوة هذا رجل أدعى أنه من نسل بني أمية وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر حتى كثر جمعه وكنى بأبي ركوة لركوة كان يحملها في أسفاره كسنة الصوفية) ولما صفت له الأمور كثر شره وكبر ظلمه وعظم أفساده وطغيانه وصار لايستقر على أمر مضطربا في كل شيء على طرفي الغلو في كل أعماله فإذا عاقب أفرط وسفك الدماء وقتل الأعوان والأقارب والعلماء وإذا أثاب أو أحب بذل مالم يبذله ملك يفعل اليوم ماينقضه غدا وأفعاله تشهد عليه بالجنون فقد أمر الناس بسب الصحابة زمنا وكتب سبهم على أبواب المساجد ثم منع سبهم ومحا الكتابة ومنع صلاة التراويح عشرة سنين ثم أباحها وأمر بهدم كنيسة القمامة ثم عاد فبناها على نفقته الخاصة وبنى المدارس وجعل فيها المعلمين ثم عاد فقتلهم جميعا وخربها وأمر الناس بأغلاق الأسواق نهارا وفتحها ليلا فامتثلوا زمنا ثم رجع وأمرهم بأقفالها ليلا ومنع النساء من الخروج إلى السوق والحمام وسد الحمام على بعضهن حتى متن فيه وانتهى به الامر أن أدعى أنه يعلم الغيب مع أن ذلك كان من جواسيس تطلعه على الأخبار وقد أتى عليه وقت اضطهد فيه اليهود والنصارى وأحرق كنائسهم حتى كان ذلك من الاسباب التي ولدت الحروب الصليبية ومع سفهه هذا ونزقه كان شديد العناية بجمع الكتب ومعاضدة العلم أقام بالقاهرة دار كتب المطالعة تشبه دار الكتب الملكية الآن ودعاها دار العلم أو دار الحكمة وأتم الجامع المسمى بأسمه بين باب الفتوح وباب النصر سنة ٤٠٤ هـ وأراد تحويل الطلبة من الأزهر اليه فلم تنجح مساعيه ولما عظم شره واشتد على

الناس بلاؤه ركب يوما حماره وخرج على عادته الى جبل المقطم بناحية حلوان للخلوة بنفسه ولينظر فى النجوم فلم يعد ووجدوا جثته بعد أيام بثيابه مضرجة بالدماء وحماره مجروحا فعلموا أنه قد قتل وقيل أن أخته عملت على قتله وذلك سنة ٤١١ ﻫ

الظاهر لاعزاز دين الله أبو الحسن على

(٤١١ - ٤٢٧ ﻫ)

تولى بعد وفاة أبيه ولقب بالظاهر لأعزاز دين الله وكان عمره حينئذ ست عشرة سنة فلم يكن بالرجل الذى يرجى منه انتشال البلاد مما أصابها من جراء أعمال والده وكان فى أول أمره فى قبضة عمته أخت الحاكم وهى التى تقوم بتدبير المملكة والنظر فى أمور الدولة إلى أن ماتت سنة ٤١٥ﻫ بعد أربع سنين ثم غلبه على أمره بعد ذلك نفر من وزرائه واستأثروا بتصريف الامور والقيام بالأحكام ومنعوا الناصحين من الوصول الى الخليفة ومن هذا العهد ابتدأت دولة الفاطميين فى الانحطاط وأخذت قوة خلفائهم فى الاضمحلال وتحولت جميع السلطة من أيديهم إلى الوزراء ولم يبق لهم إلا أبهة الملك وكان هؤلاء الوزراء كلما مات خليفة اختاروا مكانه من أسرته من كان أكثر لينا وأقرب إلى التشكل فى أيديهم حسب أهوائهم وفى أيامه حصلت مجاعة كبيرة فى البلاد سنة ٤١٥ ﻫ واشتد الغلاء وكاد المصاب يكون عظيما لولم يتدارك الله الناس بسنة ٤١٧ ﻫ بارتفاع النيل وزيادته عن العادة كذلك قامت فى عهده عدة فتن بالشام وثورات ضد الفاطميين فتغلب عليها منتخب الدولة الحاكم الفاطمى لفلسطين واسترد حلب ودمشق ومعظم شمال الشام وأعاد جميع ذلك لحكم الفاطميين ولما كان سنة ٤٢٦ ﻫ كثر الوباء بمصر وقد مات الظاهر سنة ٤٢٧ فكانت مدته خمس عشرة سنة وثمانية أشهر وقد كان مع جميل سيرته منهمكا فى اللذات

عاكفا على الملاهي وكانت مملكته بأفريقية ومصر والشام والحجاز

المستنصر بأمر الله أبو تميم معد

(٤٢٧ — ٤٨٧ ﻫ)

توفى المستنصر بأمر الله بعد وفاة والده وله من العمر سبع سنين فطالت مدته حتى بلغت ستين سنة وهى مدة لم يحكمها خليفة غيره إلا أن عصره هذا على طوله كان عصر تدهور سريع فى الدولة الفاطمية وأيامه كانت أسوأ الأيام وأشدها على الأهالى بؤساوضنكا كانت أيام قحط وغلاء وفتن وحروب داخلية وخارجية انقضت أيامه الأولى فى مشاحنات بين عدة وزراء تعاقبوا على الحكم (٤٢٧ — ٤٤٢) وفى مدتهم خرجت ولايات شمال افريقية من يد فراطم ورفضت التشيع وخطبت للخليفة العباسى بدل الخليفة الفاطمى وعادت سنية وابتدأ خروج ولايات الشام عن حكمهم وانقسامها إلى عدة ولايات حتى افتتحها الاتراك السلجوقيون ووقعت غنيمة باردة فى يدهم سنة ٤٦٩ واستولوا على دمشق وبيت المقدس ولم يكفهم ذلك وهاجموا مصر ولكنهم ردوا عنها كما خرجت فى سنة ٤٥٣ جزيرة صقلية من يدهم وقد هدأت حالة البلاد نحو ثمانية أعوام بعد ٤٤٢ وكان القابض فيها على زمام الأمور وزير عامل يدعى (البازوردى) فقام ببعض اصلاحات ولكن الحال رجعت بعده إلى ما كانت عليه من الفوضى والنزاع بين الوزراء ثم قامت الفتنة وتأججت نيرانها بيد الاتراك ضد الدولة والسودانيين أتباع المستنصر وغلمانه الذين عليهم معتمده وقد كانوا كثيرى العدد ووالدة المستنصر تجنح اليهم لأنها سوداء مثلهم وأخيرا انهزم السودانيون وفروا إلى الصعيد فازدادت قوة الترك وبالغ رئيسهم ناصر الدولة القائد العام للجيش فى الظلم والاستبداد واستبد الخليفة وأراد أن يخلعه وفى ذلك الوقت نزل بمصر غلاء عظيم وأصابتها مجاعة شديدة

وقحط هائل دام سبع سنين (٤٥٧ — ٤٦٤ ﻫ) حتى مات الناس فيها جوعا وكاد يأكل بعضهم بعضا وقد حدث فيها من الويلات والأذى مالم يسلم منه الخليفة نفسه إذ اضطره قواد حرسه من الاتراك الى اخراج ما فى قصره من النفائس والذخائر التى ورثها عن آبائه وأجداده مما لا يدخل تحت حصر فقسموا بعضها على أنفسهم وباعوا الآخر بأبخس الأثمان بل نهبوا ما كان فى خزانة الكتب من الكتب النفيسة وبلغت به الفاقة مبلغا عظيما وكابد من آلامها مالا يكاد يصدق وأما ناصر الدولة فما زال يضرم نيران الفتن فى البلاد حتى قتل سنة ٤٦٥ ﻫ ولكن لم تنقطع بموته مفاسد الاتراك فسئم ذلك الخليفة وأرسل إلى بدر الجمالى الارمنى الاصل حاكم عكا يسأله القدوم الى مصر لتنظيم أمورها واصلاح ما فسد فيها فقبل بدر الجمالى ودخل مصر فى جيش من أهل الشام سنة ٤٦٧ ﻫ فقلده وزارة مصر الادارية والعسكرية ولقبه بأمير الجيوش ففتك بالقواد الاتراك ثم انصرف الى تسكين الاضطرابات الداخلية واصلاح البلاد واحياء ما ذهب من العمران حتى ساد الأمن وأزداد الخراج وعم الخير جميع الناس وقد كان سور القاهرة الذى بناه جوهر القائد لأول مرة قد تهدم فأعاد بناءه مرة ثانية سنة ٤٨٠ ﻫ وزاد فيه زيادة كثيرة ومازال بدر يتصرف فى الأمور ولا كلمة فوق كلمته حتى وافته منيته سنة ٤٨٧ ﻫ بعد أن قضى فى مصر عشرين عاما امتلأت فيها البلاد هدوءا وسلاما وقد أقام المستنصر مكانه ابنه الأفضل فباشر الأمور قليلا ثم مات الخليفة المستنصر فى السنة عينها وقد كان ضعيف الرأى

المستعلى بالله أبو القاسم أحمد

(٤٨٧ — ٤٩٥ ﻫ)

تولى المستعلى بعد وفاة أبيه دون أخويه أقامه الأفضل وكان الأمر بيده فبادر لمبايعته وأخضاع أخيه الأكبر نزار الذى خالف عليه وفى زمنه ابتدأت الحروب الصليبية وهى حروب شنها مسيحيو أوروبا على المسلمين لأخذ بيت المقدس من أيديهم فدامت نحو قرنين وقد ساعدهم على أثارتها وأطمعهم فى القيام بها الضعف الشديد الذى صارت إليه كل من الدولتين العباسية والفاطمية وهما الدولتان الكبيرتان اللتان كانتا تتنازعان زعامة المسلمين فى ذلك الوقت وانما سميت بالصليبية لأن المسيحيين الذين قاموا بها اتخذوا الصليب شعارا لهم ورسموه على ملابسهم وأعلامهم وقد كانت فرقة من الاتراك السلجوقيين استولت على معظم آسيا الصغرى وكونت فيها دولة فلما دخل الصليبيون آسيا الصغرى فى طريقهم الى الشام اجتمع الامراء السلجوقيون لمقاومتهم والدفاع عن دولتهم فانتهز الافضل هذه الفرصة وزحف على القدس واسترجعها من السلجوقيين سنة ٤٨٩ بعد أن تملكوها عشرين سنة وكان الصليبيون حينئذ قد تقدموا فى الشام وهزموا عساكر المسلمين فقصدوا بيت المقدس وهو فى حوزة مصر وانقضوا عليه وافتتحوه سنة ٤٩٢ بعد سنة من استرجاعه وغنموا منه غنائم لاتحصى وقتلوا من أهله مايزيد على سبعين ألف مسلم وقد حاول الافضل استرجاعه منهم وسار بالجيوش الى عسقلان فأسرعوا اليه وهزموه قبل أن يصل اليهم ومن ذلك العهد بقى الافضل فى حروب معهم انتهت بتراجع المصريين من الشام ثم مات المستعلى بالله سنة ٤٩٥

الآمر باحكام الله بن المستعلى

(٤٩٥ — ٥٢٤ ﻫ)

تولى بعد وفاة المستعلى ابنه أبو على المنصور ولقب بالآمر بأحكام الله وكان عمره خمس سنين لم يل منهم أصغر منه فقام بتدبير المملكة الأفضل مدبر دولة أبيه وفى أيامه نجح الصليبيون وملكوا كثيرا من حصون الشام لاضطراب أحوال مصر حينئذ ولم تأت سنة ٥٠٤ حتى كانوا قد ملكوا عكا وطرابلس وصيدا وغيرها ولم يبقوا للمصريين فى الشام سوى عسقلان وفى سنة ٥١١ أغار بقدوين الاول ملك بيت المقدس على مصر نفسها فأحرق الفرما ووصل إلى تنيس ثم لحقه مرض فرجع ومات بالقرب من العريش ولم يزل الأفضل منكبا على أصلاح أحوال مصر حتى ثقلت وطأته على الحاكم فوضع له من قتله سنة ٥١٥ ﻫ ثم ولى مكانه المأمون بن البطايحى وقتله سنة ٥١٩ ﻫ وصلبه وفى مدته عظم أمر الطائفة المعروفة بالباطنية وبالاسمعيلية ووضعو يدهم على بعض البلاد المجاورة لدمشق وسعى أميرهم فى قتل الآمر بأحكام الله وأرسل إليه من رجاله من قتله فى ذى القعدة سنة ٥٢٤ ﻫ وقد كان منهمكا فى اللذات والملاهى سىء السيرة مولعا باللهو والطرب يقرض الشعر قليلا وكانت مدة حكمه تسعة وعشرين سنة وخمسة أشهر .

الحافظ لدين الله بن محمد

(٥٢٤ — ٥٤٤ ﻫ)

تولى بعد موت الآمر ابن عمه عبد المجيد بن محمد المستنصر فاستوزر احمد ابن الأفضل بن بدر الجمالى فغلبه على أمره وحجر عليه واستقل بالأمر وقام به أحسن قيام ولم يزل كذلك إلى أن قتل فى المحرم سنة ٥٢٦ ﻫ وبمجرد قتله أخرج جنود الحافظ وبايعوه وقد أتخذ الحافظ هذا اليوم عيداً سماه عيد النصر

وقد استراحت مصر فى أيامه، من غوائل الصليبين لاشتغالهم بقتال مسلمى الشام والعراق ولكن ظهر له عدو آخر وهو روجر ملك جزيرة صقلية فقد شاع خبر قدومه بأساطيله إلى الأسكندرية فاضطربت مصر لذلك وكان قد استولى على جزء من سواحل أفريقية وفى أثناء ذلك مات الحافظ فى منتصف سنة ٥٤٤ ﻫ وكان حازماً كثير المداراة جماعا للمال يغلب عليه الحلم

الظافر بامر الله أبو منصور اسماعيل

(٥٤٤ — ٥٤٩ ﻫ)

تولى بعد موت الحافظ ابنه الظافر بأمر الله وكان منهمكا فى اللذات غريقا فى الشهوات مستقلا بها عن تدبير الملك وفى أيامه ملك الصليبيون مدينة عسقلان سنة ٥٤٨ ﻫ وانتزعوها من مصر وفى السنة نفسها جاءت مراكب صقلية إلى دمياط وأغارت على السواحل المصرية وأحرقت تنيس وفى سنة ٥٤٩ مات الظافر قتيلا قتله وزيره العباس جرأه عليه اشتغاله بالشهوات وأعراضه عن الملك

الفائز بنصر الله أبو القاسم عيسى

(٥٤٩ — ٥٥٥ ﻫ)

بعد قتل الوزير العباس للظافر أقام ابنه الفائز بنصر الله مكانه وكان عمره خمس سنين فاستبد هو بتدبير الملك حتى قبض على أزمة الوزارة طلائع ابن رزيك بعد قليل وتلقب بالملك الصالح وكان قويا حازما شهما فأخذ يدير الأمور ويصلح الأحوال ويعمل لحفظ مصر وصيانة حدودها من أعدائها الذين يتطلعون للاستيلاء عليها فقد كانت مصر فى ذلك الوقت فى غاية من الضعف يتحفز للاغارة عليها جاران قويان وهما « نور الدين » و « صاحب بيت

المقدس » ولم يمنع أحدهما من الاغارة عليها ألا خوفه من الآخر ولم يزل الفائز بنصر الله لا كلمة له والحكم للملك الصالح حتى مات الفائز سنة ٥٥٥ هـ فكانت مدته ست سنوات ونحو شهرين

العاضد لدين الله

(٥٥٥ — ٥٦٧ هـ)

وانقراض الدولة الفاطمية

بعد موت الفائز بنصر الله بويع بالخلافة للعاضد لدين الله عبد الله بن يوسف بن الحافظ وعمره لايتجاوز إحدى عشرة سنة فاستبد الصالح بالأمور وأكثر من عزل العمال وضيق على أهل القصر حتى مات مقتولا سنة ٥٥٦ هـ فولى العاضد مكانه ابنه رزيك ولقب بالعادل فحسنت سيرته فى الناس ولكن لم تطل أيامه وقد كانت الدولة الفاطمية فى هذه الأيام مشرفة على الزوال والفتن والخطوب لاتنقطع بين الطامعين فى منصب الوزارة فوزير يثب ويقاتل حتى يتبرأ الوزارة وآخر يعزل ويقتل وليس للخلفاء الذين يولون فى صغر سنهم فى الأمر من شىء.

شاور وضرغام

بعد تولى العادل رزيك للوزارة قام نزاع كبير بشأن تولى الوزارة أدى أخيرا إلى انقراض الدولة الفاطمية وذلك أن شاور بن مجير السعدى الذى كان واليا على قوص ثار على العادل رزيك بن طلائع وقبض عليه وقتله وأجلس نفسه وزيرا مكانه سنة ٥٥٨ هـ ولم يلبث شاور فى منصب الوزارة طويلا حتى ثار عليه ضرغام أحد القواد (وصاحب الباب يومئذ) وتغلب عليه واستبد بالوزارة ففر شاور إلى دمشق ملتجئا إلى نور الدين محمود بن زنكى وطلب منه مساعدته على الرجوع إلى منصبه ووعده بأن يكون له ثلث دخل البلاد

متى تم له ذلك فتردد نور الدين فى الأمر أولا لوجود الصليبيين فى الطريق وخوفا من عدم وفاء شاور بما وعد به وفى تلك الأثناء قام خصام بين ضرغام وصاحب بيت المقدس (أمورى الأول) بشأن جزية سنوية كان يدفعها من قبل ضرغام من الوزراء لصاحب بيت المقدس حتى أغار أمورى على مصر بجيوشه ورجع عنها بعد أن أرضاه ضرغام .

ذهاب شيركوه لمصر لأول مرة

فلما علم نور الدين بذلك بادر بإرسال جيش من الأتراك إلى مصر تحت قيادة أسد الدين شيركوه ومعه صلاح الدين ابن أخيه (وكان حينئذ صغير السن) وصحبهم شاور فدخلوا القاهرة سنة ٥٥٩ ﻫ بعد أن هزموا الجيوش التى أرسلها إليهم ضرغام فى بلبيس وهزموا ضرغام نفسه على أبواب القاهرة وحينئذ انفض الناس من حول ضرغام وقتلوه وعادت الوزارة إلى شاور ولما تمكن منها واستقامت له الأمور نقض عهده مع نور الدين وطلب من شيركوه الذى نصره مغادرة مصر إلى الشام فلم يجبه شيركوه واستولى على بلبيس فاستغاث شاور بأمورى صاحب بيت المقدس ليخلصه من نفوذ نور الدين فأرسل إلى مصر الجيوش بسرعة فصدها شيركوه نحو ثلاثة أشهر ثم عقد هدنة وخرج بجيشه تاركا لمصر للجيوش المصرية وحلفائهم من الصليبيين .

ذهاب شيركوه لمصر لثانى مرة

لم تأت غارة شيركوه على مصر فى المرة الأولى بالفائدة المرجوة ولكنها مكنته من الوقوف على أحوالها فوصفها لنور الدين بعد عودته وهون عليه أمرها ولم يزل به حتى أرسله فى جيش آخر لفتحها سنة ٥٦٢ ﻫ ومعه صلاح الدين أيضا فى هذه المرة وبعد قدومه إلى مصر أسرع اليها أمورى فى جيوشه لينجد حلفاءه المصريين ثم طال القتال بينه وبين شيركوه وانتهى الأمر باتفاقهما

على أن يخلى كل منهما وأن يتركوا مصر للمصريين وعاد شيركوه إلى الشام كما أتى

ذهاب شيركوه إلى مصر لثالث مرة

بعد أن رجع شيركوه إلى الشام فى المرة الثانية طمع الصليبيون فى مصر ورأوا الفرصة سانحة لوضع يدهم عليها فرجع أمورى اليها بجيش آخر يريد غزوها لا للدفاع عنها وفتح بلبيس سنة ٥٦٤ هـ ونهبها وذبح كل من فيها ولما علم شاور بذلك أمر باحراق الفسطاط كى لا يأوى اليها الصليبيون ثم تقدمت جيوش أمورى نحو القاهرة وحاصرتها فاستغاث العاضد أثناء ذلك بنور الدين وطلب منه أن ينجد ويخلص مصر من عساكر الصليبيون فلم يتردد وأرسل لثالث مرة أسد الدين شيركوه بجيش جرار مقصده الحقيق غزو مصر لا مساعدة المصريين وخرج معه فى هذه المرة أيضا صلاح الدين وهو كاره

شيركوه فى مصر وزوال الدولة الفاطمية

ثم دخل شيركوه مصر بجيوشه سنة ٥٦٤ هـ وانضم إلى الجيوش المصرية وطرد الصليبيين من مصر ثم دخل القاهرة ظافرا ورحب به الناس وخلع عليه الخليفة اعترافا بجميله ولما شك فى اخلاص شاور قتله وعين شيركوه وزيرا ولكنه لم يتمتع بالوزارة ومات بعد شهرين فخلفه فى منصب الوزارة ابن أخيه صلاح الدين ولقب بالملك الناصر فكف يد العاضد عن كل شىء بالتدريج ثم قطع الخطبة للعاضد وهو مريض ودعا للمستضىء العباسى ثم مات العاضد سنة ٥٦٧ هـ وبموته انقرضت الدولة الفاطمية واستولى صلاح الدين على مصر مع تابعيته تابعية اسمية للخليفة العباسى أولا ولنور الدين ثانيا وابتدأت الدولة الأيوبية

عظمة الدولة الفاطمية وغناها

كانت الدولة الفاطمية مع شذوذها فى العقيدة وتشيعها من أعظم دول الاسلام ملكا وأكبرها غنى وأرقاها حضارة وأشدها تعظيما للعلم والعلماء وهذه آثار خلفائها بمصر وماخلفوه فى تصورهم بعد زوال دولتهم ألسنة ناطقة بذلك ودالة على أن مصر فى عهدهم والقاهرة بلغتا من الرخاء والعظمة مبلغا فاقتا فيه العراق وبغداد فمن آثارهم الباقية إلى الآن مدينة القاهرة المعزية وباب زويله وباب النصر وباب الفتوح والجامع الأزهر وجامع الحاكم والجامع الأقمر (بالنحاسين) أنشأه الآمر بأحكام الله سنة ٥١٩ ﻫ وكانت سفن أسطولهم فى أول دولتهم تعد بالألوف وكانت عنايتهم بالعلم كبيرة كانت لهم دور كتب جمعت أكثر من ستمائة ألف مجلد مفتحة الأبواب للخاصة والعامة من أشهرها دار الحكمة التى كانت بين القصر الغربى والأزهر (مابين السكة الجديدة والصنادقية الآن) ومما يدل على عظم ثروتهم وتأنقهم بجمع التحف والذخائر النفيسة من آنية الذهب والفضة والأحجار الكريمة وغيرها مما لم يسمع بمثله أن أحدى بنات المعزلدين الله ماتت وتركت وراءها مايعادل ألف ألف دينار وأخرى خلفت بعد موتها خمسة أكياس من الزمرد ومقادير وافرة من الأحجار الكريمة الأخرى وثلاثة آلاف أناء فضى مطعم وأن المؤرخين الثقاة أجمعوا على أن ماحمل إلى صلاح الدين من قصر الخلافة بعد موت العاضد من الاعلاق النفيسة والأشياء الغريبة والجواهر لكثرته يخرج عن الاحصاء مع أن هذا هو الباقى بالقصر بعد ماأصابه فى فتنة المستنصر وغيرها وكان لهم اهتمام وعناية بالاحتفال بالمواسم والأعياد أحدثوا فى مصر كثيرا منها بقى أغلبها إلى وقتنا هذا فمن مواسمهم التى كان يحتفلون بها يوم رأس السنة الهجرية وعاشوراء ومولد النبى ﷺ وسيدنا على بن أبى طالب

وأبنيه الحسن والحسين وأمهما فاطمة الزهراء والخليفة الحاضر صاحب الشأن

أسباب زوال دولتهم

وترجع أسباب زوال دولتهم إلى أمور كثيرة منها :

(١) كانوا شيعة متغالين وجيرانهم وكثير من الداخلين فى حكمهم سنيين معتدلين فتفرقت منهم القلوب وناوأهم الممالك المجاورة لهم وعملوا على محو دولتهم واستقل عنهم بعض أطراف بلادهم

(٢) وقعوا فيما وقع فيه العباسيون من قبلهم فاستهانوا بأهل دعوتهم والحماة الاولين من عرب وبربر وأكثروا من مماليك الترك والديلم والسودان والارمن والصقالبة وقدموهم على سواهم حتى كثرت المنافسة بين هذه الطوائف وقامت بينها الثورات والحروب الداخلية التى خربت البلاد واهلكت العباد وأذلت الخلفاء فى قصورهم

(٣) تولى الأطفال للخلافة فى آخر أيامهم مما سهل على الوزراء وأمراء الجيوش وغيرهم الاستبداد بالملك وأثار فيما بينهم التزاحم على الوزارة والقتال لأجلها والاستعانة بالأجانب أحيانا

(٤) خروج الصليبيين وإغارتهم على الشام ومصادفة ذلك لأيام ضعفهم وكثرة الأوبئة والمجاعات فى أيامهم

بعض الشعر فى رثائها

وقد رثاها الفقيه أبو محمد عمارة اليمنى بقصيدة لم يسمع فى دولة بعد انقراضها أحسن منها وأتى فيها على كثير من مزاياها وآثارها قال فى مطلعها

رميت يادهر كف المجد بالشلل — وجيده بعد حسن الحلى بالعطل

ومنها

ياعاذلى فى هوى أبناء فاطمة — لك الملامة أن قصرت فى عذلى

بالله در ساحة القصرين وابك معى   عليهما لا على صفين والجمل

ساحة القصرين أو بين القصرين هى الميدان الذى تقدم وصفه والقصران هما القصر الكبير الشرقى والقصر الصغير الغربى وقد تقدما .

وقل لأهليهما والله ما التحمت   فيكم جراحى ولا قرحى بمندمل

ومنها :

مررت بالقصر والأركان خالية   من الوفود وكانت قبلة القبل

فملت عنها بوجهى خوف منتقد   من الأعادى ووجه الود لم يمل

ومنها :

دار الضيافة كانت أنس وافدكم   واليوم أوحش من رسم ومن طلل

(دار الضيافة كانت برسم الرسل الواردين من الملوك ويقال لمتوليها النائب لكونه ينوب عن صاحب الباب فى لقاء الرسل والوافدين) .

وقطرة الصوم إذ أضحت مكارمكم   تشكو من الدهر حيفا غير محتمل

(أنشأ المعز دارا سماها دار الفطرة يعمل فيها الطعام على أختلاف ألوانه من أول رجب إلى نصف رمضان ويفرق فى جميع الناس) .

وكسوة الناس فى الفصلين قد درست

ورث منها جديد عندهم وبلى

كانوا يخرجون من خزائن الكسوة إلى جميع خدمهم وحواشيهم ومن يلوذ بهم كسوات الصيف والشتاء من فاخر الثياب ونفيس الملبوس .

وموسم كان فى يوم الخليج لكم   يأتى تجملكم فيه على الجمل

وأول العام والعيدين كم لكمو   فيهن من وبل جود وليس بالوشل

وآخرها :

والله مازلت عن حبى لهم أبداً   ما أخر الله لى فى مدة الأجل

الدولة الأيوبية

هذه الدولة حكمت بمصر سنة ٥٦٧ هـ ومدة حكمها ٨١ سنة وعدد ملوكها ثمانية رجال وأصلهم من الاكراد الذين كانوا فى خدمة السلطان نور الدين زنكى ملك الشام وكان أرسلهم الى مصر لما استغاث به العاضد وكان قائدهم أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين يوسف الايوبى ولما سمعت الأفرنج بمجيئهم ارتحلوا عن الديار المصرية وقبض أسد الدين على شاور الوزير الذى أشار بحرق المدينة (مصر القديمة والقطائع) وصلب بأذن العاضد فخلع العاضد على أسد الدين الوزارة فلم يلبس أن مات بعد شهرين فولى العاضد مكانه ابن أخيه صلاح الدين يوسف الأيوبى وقلده الأمور فلقبه بالملك الناصر فبذل لله همته وأعمل حيلته وأخذ فى اظهار السنة واخفاء البدعة فثقل أمره على الخليفة فأبطن له فتنة كانت غايتها ظهور أمر صلاح الدين حتى ضيق على الخليفة وحبس أقاربه وقتل أعيان دولته واستولى على مافى القصور من الاموال والذخائر التى استمر البيع فيها عشر سنين سوى ما اصطفاه صلاح الدين لنفسه وخطب للمستضىء العباسى بمصر وسير البشارة بذلك الى بغداد فمات العاضد قهرا بعد أن حكم ١٤ سنة وكان ذلك سنة ٥٦٧هـ كما سبق وتم الامر للملك الناصر صلاح الدين.

الأول من ملوك الدولة الايوبية

الملك صلاح الدين يوسف الأيوبى

كانت ولايته على مصر سنة ٥٦٧ هـ ولما تم له الأمر أظهر السنة وأخفى البدعة وطهر الأقاليم من التشيع وكان هذا الملك شجاعا عاقلا كريما مدبرا حسن الاخلاق صبورا على الشدائد وفتوحاته الكثيرة تدل على ذلك قد عمر

المساجد والمدارس التى خربتها يد العدوان حين دخلوا الأفرنج البلاد وهدم كل ماصنعوه من الكنائس سوى كنيسة القمامة اقتداء بعمر بن الخطاب رضى الله عنه وأخذ فى استخلاص ماتغلب عليه الافرنج من السواحل وبيت المقدس وسار حتى فتح أغلب بلاد الشام وفتح فتوحات كثيرة سواها فاتسع ملكه إلى أقصى بلاد الهند واليمن ومن طرابلس الغرب إلى النوبة وهو الذى أنشأ قلعة الجبل وسور القاهرة العظيم وكان المشرف على عماراته بهاء الدين قراقوش ولم يزل معروفا بالعدل موصوفا بالشهامة والفضل وكثرة الخيرات والعمارات إلى أن مات بقلعة دمشق سنة ٥٨٩ ﻫ ودفن بشمال الجامع الأموى ومدة خلافته ٢٢ سنة وعمره ٥٧ سنة رحمه الله رحمة واسعة .

الثانى عزيز عماد الدين

تولى بعد أبيه صلاح الدين وكان ملكا عادلا محبا للعلم والعلماء كثير الخيرات واسع الكرم محسنا إلى الناس معتقدا فى أرباب الخير والصلاح غير أنه كان ضعيف الرأى ولذا أشار عليه بعض الناس بهدم الاهرام وأغراه أن بها ذخائر كثيرة فأرسل عمالا واستمر على هدمها مدة ستة عشرة شهرا فكانوا لايهدمون فى اليوم الواحد أكثر من أربعة أحجار وبعد أن صرف على هذا العمل أموالا كثيرة تركه ورجع صفر اليدين ولم ينل شيئا ولما قبض على زمام المملكة حصلت حروب بينه وبين أخيه الملك الأفضل لفتنة حصلت بينهما فاستولى فيها على دمشق وفى سنة ٥٩٤ ﻫ منع ما كان يحصل فى موسم خليج القاهرة وكان الناس قد اعتادوا ذلك من مدة مديدة فعظم الأمر عليهم وحصل الاضطراب والهرج حتى هموا بخلعه والخروج عن طاعته لولا ما بلغهم من مرض موته ولم يزل كذلك حتى مات سنة ٥٩٥ ﻫ وكانت مدته نحو ست سنين ودفن بتربة الامام الشافعي رضي الله عنه وأعقبه ابنه المنصور

الثالث المنصور

تولى بعد أبيه سنة ٥٩٥ هـ ، وفى مدته اشتدت الفتن لأنه تولى الملك وعمره ثمان سنين وكان القائم بأمور الدولة فى عهده بهاء الدين قراقوش الأسدى الأتابكى (عبد خصى) فاختلف عليه الأمراء وكاتبوا عمه الملك الأفضل فقدم من (صرخد) واستولى على مهام الأمور فلم يبق للمنصور معه سوى الاسم وأراد الأفضل أخذ دمشق من عمه الملك العادل فجهز الجيوش اليها وحصلت بينهما حروب كانت غايتها هزيمة الأفضل فدخل العادل مصر وأعاد الأفضل إلى (صرخد) وقام بكفالة المنصور ثم خلعه بعد ذلك سنة ٥٩٦ هـ وحبسه بالقلعة حتى مات وانفرد بسلطنة مصر والشام .

الرابع الملك العادل

تولى بعد خلع الملك المنصور سنة ٥٩٦ هـ وعظم أمره حتى جعل جميع من بقى من الحكام الايوبيين تحت رايته فعادت مملكة مصر كما كانت عليه فى مدة الملك صلاح الدين وفى سنة ٥٩٨ هـ أرسل ابنه أبا الفتح موسى الملقب بالملك الاشرف الى الرها فتملكها وتملك أيضا على حوران ولم يزل يفتح فى بلاد الشام حتى استولى على معظمها وفى سنة ٦١٥ هـ جاء الافرنج الى مصر وحاصروا دمياط فى رابع ربيع الأول منها وبعد حصارها ستة أشهر وأياما ملكوها ثم اجتمعت عساكر الشام وغيرها عند الكامل بن العادل وحاربوا الافرنج وكانوا قد تحصنوا بدمياط بعد أن ملكوها وبعد ذلك اضطروا لتسليمها فى التاسع من رجب سنة ٦١٨ هـ لما شدد عليهم الحصار وبقى العادل يفتح فى البلاد ويقهر الاعداء بصبره وجسارته حتى مات سنة ٦١٥ هـ وكانت مدة ملكه بدمشق ٢٣ سنة وبمصر ١٩ سنة وكان ميمون الطالع منصورا فى مغازيه حسن الحظ حتى أنه رزق أولادا لم يخلف مثلهم أحد من الملوك .

الخامس الملك الكامل

تولى بعد أبيه العادل ولما تم له الأمر شرع فى تتميم بناء قلعة الجبل وأنشأ بها الدار السلطانية فى أثناء نيابته عن أبيه سنة ٦١٥ هـ ولما مات أبوه انتقل من دار الوزارة الكبرى بالدرب الأحمر اليها وجعلها مسكنا له فهو أول من سكنها من الملوك ومن ذلك الوقت أخذ الناس فى تعمير ماحولها من الدرب الاحمر والمحجر وجهة القطائع والصليبة بعد أن كان بعض تلك الجهات بساتين وبعضها مقابر وبنى القبة التى على ضريح الامام الشافعى وأنشأ فى القاهرة المدرسة الكاملية التى كانت تعرف بعد ذلك بدار الحديث ورتب لها أوقافا وكان محبا للسنة مبيدا للبدعة وكان يبيت كل ليلة جمعة جماعة من الفضلاء يباحثهم ويسائلهم عن كل أمر أشكل عليه وهو بينهم كأحدهم وبنى مدينة المنصورة وحارب الافرنج واسترد منهم دمياط سنة ٦١٨ هـ، ولم يزل مجدا فى أعماله ساعيا فى الخير لأهل مملكته الى أن مات بدمشق سنة ٦٣٥ هـ وكانت مدته فى الملك ٢٠ سنة .

السادس سيف الدين الملقب بالعادل

لما مات الكامل قام بالامر بعده ابنه أبو بكر سيف الدين ولقب بالملك العادل الأصغر ولما جلس على سرير الملك وقع بينه وبين أخيه الملك الصالح نجم الدين منازعات انتهت بخنقه بيد الامراء لاستيائهم منه لكونه كان عاكفا على اللهو والطرب غريقا فى بحار الشهوات وكان موته سنة ٦٣٧ هـ ودفن عند الامام الشافعى رضى الله عنه وأعقبه على سرير الملك أخوه الملك الصالح .

السابع الملك الصالح

تولى بعد موت أخيه سيف الدين العادل الأصغر وفى أيامه حضر الافرنج وملكوا دمياط فاستمر يحاربهم أربعة عشر شهرا وكان القائد لهم لويز التاسع

ملك فرنسا وهو المعروف عند مؤرخى الاسلام باسم إفرنسيس وكان الملك الصالح مريضا فاستمر يحاربهم إلى أن مات والحرب قائمة بعد أن حكم سنة وشهورا فأخفت زوجته شجرة الدر موته ودبرت الأمور وأمضت بإمضائه حتى حضر ابنه توران شاه .

الثامن توران شاه

ملك بعد أبيه وكان عند موت أبيه غائبا بحصن كيفا بديار بكر فحارب الفرنج وأسر ملكهم لويز التاسع فى واقعة فارسكور وسجنه بالمنصورة بمحل يعرف بدار لقمان ووكل بحفظه خصيا يقال له صبيح وبقى أسيرا إلى ولاية شجرة الدر وقتل توران شاه المذكور بعد أن حكم شهرين وقلدت شجرة الدر الملك .

شجرة الدر

امرأة الملك الصالح وكانت حسنة السياسة والتدبير فأطلقت لويز التاسع ملك فرنسا الذى كان قد أسره توران شاه واشترطت عليه أن يسلم لها دمياط ويعطى للمسلمين مالا عوضا عما نهب منهم ويطلق ما عنده من أسرى المسلمين فقبل ذلك كله بعد أن أقامت بيدهم دمياط أحد عشر شهرا ثم تزوجت بنائبها عز الدين أيبك التركمانى فاتفق الامراء على أن يتسلطن الملك الاشرف موسى ابن الملك الصالح ويشركوا معه اسم شجرة الدر وذلك سنة ٦٤٨ فخلعت شجرة الدر نفسها بعد ثلاثة أشهر ومن ذلك الوقت عظم أمر المماليك البحرية وتسلطنوا على الديار المصرية وكانوا ألف مملوك قد اصطفاهم الملك الصالح لنفسه واشتراهم بماله واتخذ منهم جندا وبنى لهم قلعة الروضة وأسكنهم بها وجعل لهم سفنا فى البحر فيها ذخائر وآلات حربية وما يحتاجون إليه وسماهم البحرية وبخلع شجرة الدر نفسها قد انتهت الدولة الأيوبية .

والحقيقة أن الدولة الايوبية قد انتهت بقتل المماليك للملك المعظم توران شاه سنة ٦٤٨ ﻫ وهو آخر ملك أيوبى فتكون مدة حكم الدولة الايوبية ٨١ سنة من سنة ٥٦٧ ﻫ إلى سنة ٦٤٨ ﻫ

دولة المماليك البحرية

حكمت هذه الدولة سنة ٦٤٨ ﻫ وعدد ملوكها أربعة وعشرون ملكا ومدة حكمهم (١٣٦) سنة .

أولهم الملك عز الدين أيبك

وسبب استيلائه على مصر هو أن الأشرف موسى كان صغيرا وبلغ أهل مصر قدوم التتار فأجمعوا على توليته منفردا فدبر المملكة أحسن تدبير ولما صفا له الوقت وتمكن من الدولة خطب بنت صاحب الموصل فسمعت بذلك زوجته شجرة الدر فتغيرت عليه فلما رأى ذلك منها عزم على قتلها فبلغها ذلك وخافت على نفسها فاتفقت مع محسن أغا الجوهرى على قتله فقتلوه فى الحمام فلما بلغ مماليكه الخبر دخلوا على شجرة الدر ليقتلوها فقابلتهم زوجة أخرى له كانت أم ولد فقتلوها ظانين أنها شجرة الدر وكان عز الدين ملكا شجاعا .

الثانى الملك المظفر
نور الدين على بن عز الدين أيبك

تولى الملك بعد موت أبيه سنة ٦٥٥ ﻫ وكانت سنه عشر سنين وجعل الأمير سيف الدين قونوزو نائبا عنه وفى أيامه أخذت التتار بغداد وقتلوا الخليفة المستعصم كما تقدم وزحفوا على الشام فلما علم بذلك قونوزو قبض على الملك ووالدته وإخوته باستشارة الأمراء فخلع الملك نفسه بعد أن حكم سنتين واستولى على الملك نائبه قونوزو ولقبه بالملك المظفر وحارب التتار بالشام

وانتصر عليهم وفى أثناء رجوعه إلى الديار المصرية قتله ركن الدولة بيبرس البندقدارى واستولى على ملك مصر فى أواخر سنة ٦٥٨ هـ

الثالث الملك بيبرس البندقدارى

هذا الملك تولى سنة ٦٥٨ هـ وحصلت فى زمنه الفتوحات العظيمة وأصله تركى اشتراه الملك الصالح نجم الدين أيوب وأعتقه ولا زالت الأقدار تساعده حتى وصل إلى ماوصل إليه وتربع فى دست الملك وكان شجاعا يغزو بنفسه وله مع التتار وقائع كثيرة ومع الافرنج كذلك وفتح بلاد النوبة ودنقلة وجدد عمارة الجامع الأزهر بعدأن تطرق إليه الخراب وانقطعت منه الخطبة مدة طويلة فأعادها فيه وله خيرات كثيرة وأوقاف شتى وبنى الجامع الكبير المعروف باسمه إلى الآن وأكمل عمارة المسجد النبوى من حريق كان قد أصابه وغسل الكعبة بماء الورد بيده وبنى مدرسة تجاه المارستان وقنطرة السباع أمام السيدة زينب وهو أول من رسم موكبي المحمل والكسوة الشريفة بمصر وذلك سنة ٦٧٥ هـ ومات الظاهر بدمشق بعد أن حكم (١٧) سنة وعدة أشهر . وتولى بعده ابنه الملك السعيد

الرابع الملك السعيد

تولى سنة ٦٧٦ هـ ولقب بالملك السعيد فمكث سنتين وعدة أشهر واختلف عليه الأمراء وأرادوا قتله فمانعهم الحاكم بأمر الله الخليفة العباسى إلا أنهم أجمعوا على خلعه فخلع فى ربيع الأول سنة ٦٧٨ هـ . وتولى بعده أخوه الملك العادل شلامش

الخامس الملك العادل شلامش

تولى بعد خلع أخيه الملك السعيد وتلقب بالعادل وكانت سنه سبع سنين وجعل سيف الدولة قلاوون الألفى مشيراً له فاستبد بالأحكام وخلع شلامش بعد خمسة أشهر وجلس هو على سرير الملك

السادس الملك المنصور قلاوون الالفى الصالحى النجمى

لما جلس على سرير الملك فى جمادى الاولى سنة ٦٧٨ هـ قام بالأمر حق القيام ولقب نفسه بالملك المنصور وعامل الناس بالمعروف ورفع كثيرا من المكوس والمظالم وقسم الوظائف بين الامراء وولى جماعة من مماليكه وزاد فى الرواتب والاقطاعيات وجعل عز الدين أيبك الصالحى نائبا على مصر ثم أعفاه وولى حسام الدين طرنطاى مكانه وأقر الوزير برهان الدين فى وزارته وبعد أن تمكن من الملك عزله وولى مكانه فخر الدين ابراهيم بن لقمان سنة ٦٨٣ هـ وسافر إلى الشام فملك الحصون وعاد إلى قصره وجهز النائب طرنطاى مع العساكر لحصار الكرك لما وقع من شلامش وخسرو من الانتقاض فسار وحاصرهم حتى استأمنوا وجاء بشلامش وسيروا إلى السلطان قلاوون فركب للقائهم وبالغ فى إكرامهم ولما ساءت سيرتهم استراب منهم وعذبهم وبقى مجتهدا حتى فتح أغلب بلاد الشام وفى أيامه حضرت التتار إلى الاقطار الشامية فحاربهم بالقرب من حمص وهزمهم شر هزيمة واضطره الحال لحرق مدينة حمص فحرقها وجدد غيرها وسماها باسمها وهى الموجودة الآن

وهو صاحب الفتوحات بسواحل البحر الأبيض ففتح طرابلس واستخلصها من يد الافرنج وفتح جبلة واللاذقية ، وفى سنة ٦٨٦ هـ سير عساكره إلى بلاد النوبة مع علم الدين سنجر وكان عاقبة ذلك ضرب الخراج على أهلها وادخالهم تحت الطاعة وله خيرات كثيرة بمصر والشام فهو صاحب البيمارستان والجامع المشهور باسمه إلى الآن والمدرسة والقبة التى دفن بها وكمل هذه العمارة سنة ٦٨٢ هـ ووقف عليها أوقافا وضياعا بمصر والشام وجلس فى المارستان فى يوم مشهود وشرب قدحا من الأشربة الطبية وقال وقفت هذا البيمارستان على من كان مثلى فمن دونى من أصناف الخلق فكان ذلك من صالح آثاره ومخلداً

لأخباره ومات سنة ٦٨٨ ومدة حكمه احدى عشرة سنة وتولى بعده ابنه الملك الأشرف

السابع الملك الأشرف خليل بن قلاوون

تولى بعد موت أبيه سنة ٦٨٩ ﻫ وكان ملكا ذا همة عالية وسياسة مرضية وفى أيامه كانت الحرب قائمة بينه وبين الافرنج فى السواحل الشامية وبحسن تدبيره وعلو همته أجلاهم عنها وفتح عكا وغيرها من المدائن ثم سافر إلى اليمن ثم إلى الكرك ثم عاد إلى مصر وفى أيامه بلغ عدد المماليك عشرة آلاف وسمح لهم بالخروج إلى خارج البلد نهارا ويبيتون بالقلعة ليلا وفى سنة ٦٩٣ ﻫ قتل وسبب ذلك أنه كان قد خرج إلى الصيد فتبعه الأمير بيدرة ومعه جماعة فقتلوه وحكم هذا الأمير بعده وسمى نفسه الملك القاهر وملك يوما واحدا ثم قتلوه

الثامن الملك الناصر محمد بن قلاوون

تولى سنة ٦٩٣ ﻫ وعمره سبع سنين وجعل له كفيلا وهو الامير كتبغا المنصور فقتل قتله الملك الاشرف وقبض على بعضهم وولى عقوبتهم بيبرس الجاشنكر وآل أمرهم إلى تقطيع أيديهم وأرجلهم وعلقت فى أعناقهم وشهروا بهم ثم اختلف عليه بعد ذلك مماليكه وأحدثوا فتنة كبيرة قبض من أجلها على كثير منهم وصلب منهم رجالا وعلقهم بباب زويلة ولكن هذه الفتنة قد أطمعت كتبغا فى الملك وتمكن من انتزاعه من السلطنة سنة ٦٩٤ ﻫ ورجع إلى السلطنة ثانيا وعزل مرة أخرى ورجع ثالثا ومكث مهددا فى ملكه حتى مات سنة ٧٤٠ ﻫ ومدة ولايته (٤٣) سنة وتولى بعده كتبغا

التاسع الملك العادل كتبغا زين الدين المنصورى

تولى سنة ٨٤٠ ﻫ وأصله من مماليك السلطان قلاوون وحصل فى مدته قحط شديد حتى أكل الناس الجيف ووفد على مصر طائفة من المغول يدعون باسم الاويرانية ونزلوا بالحسينية وبنوا بها المساكن والدور وكان السلطان ينزل من القلعة إلى الميدان فلم ير أحدا من الناس لاشتغالهم بأمر معايشهم وشدة ماهم فيه من الوباء والغلاء واشتد خوفه فمال إلى الايرانية لأنهم كانوا من جنسه وظن أنهم يكونون عونا له وأنصارا إذا اشتدت الفتنة واستمرت الحرب وخاف الاويرانية منه أن يوقع بهم وتقاعد عن المسير إلى الشام لحرب التتار فقام بعض الامراء عليه وساعدوهم وتركوا الملك فهرب إلى بلاد الشام وأقام بدمشق وتولى بعده السلطان حسن بن قلاوون .

العاشر السلطان حسن بن قلاوون

لما جلس على سرير الملك كان عمره ثلاث عشرة سنة ولذلك عهد بأمور الدولة إلى الامير منجك اليوسفى بالوزارة فلم يعدل ونقص الرواتب وارتشى فعزله وسلب ماله وفى مدته حصل طاعون بالديار المصرية فأهلك العباد وخرب البلاد وحصلت فى مدته فتنة فقبضوا عليه وحبسوه بالقلعة ثم أعيد ثانيا

ومن آثاره جامعه الرفيع الشأن الشاهق البنيان المعروف باسمه إلى الآن وهو بنهاية شارع محمد على من جهة القلعة صرف عليه أموالا كثيرة حتى قيل إنه كان يصرف عليه كل يوم ألف مثقال من الذهب ولذلك جاء من أعظم غرائب الدهر ومن أحسن ماصنعته يد الإنسان وهو يدل على ما كان له من الاخلاص فى خدمة الدين وقوة اليقين ، ومن آثاره أيضا أنه بنى الجامع المعروف بجامع شيخون ومدرسة بالرملة وغير ذلك من المبانى المفيدة والخيرات العديدة ولم يزل مجدا فى عمل الخير مجتهدا فى العمارات إلى أن قتل سنة ٧٦٢ ﻫ

وكانت مدة حكمه عشر سنين وشهرا تخللها خلعه وحبسه . وجاء بعده ابن أخيه محمد بن حاجى .

الحادى عشر محمد بن حاجى

ولى الأمر بعد قتله عمه السلطان حسن ولقب بالملك المنصور وفى مدته توفى الخليفة المعتضد بالله العباسى سنة ٧٦٣ ﻫ وخلفه ابنه المتوكل على الله وفى شعبان سنة ٨٦٤ ﻫ خلع الملك المنصور محمد بن حاجى ووليه ابن عمه شعبان ابن السلطان حسن .

الثانى عشر أبو المعالى زين الدين شعبان

تولى سنة ٨٦٤ ﻫ ولقب بالملك الأشرف الثالث ولما جلس على سرير الملك كان فى العاشرة من عمره وجعل مدير مملكته الأمير بلبغا العمرى وكثرت فى أيامه الفتن والثورات وتعاظمت الخطوب وهو الذى جعل للأشراف العلامة الخضراء ليتميزوا بها عن غيرهم وفى ذلك قال بعض الشعراء :

جعلوا لأبناء الرسول علامة　　　إن العلامة شأن من لم يشهر
نور النبوة فى كريم وجوههم　　　يغنى الشريف عن الطراز الاخضر

وفى سنة ٧٧٦ ﻫ قصد الأشرف الحج وخرج من مصر فى أبهة ملكه وعظمة سلطانه ولما بعد عنها بمراحل ثار عليه بعض أمراء دولته فرجع ثانيا إلى القاهرة ملتجئا إليها فوجدهم قد أقاموا ابنه عليا عوضا عنه ولقبوه بالملك المنصور فنزل بغية القصر فعلم به هؤلاء الأمراء فأرسلوا إليه فوجدوه قد هرب هو بلبغا الناصرى وبعد يومين عثروا به فقبضوا عليه وخنقوه ، وكان ذلك فى ذى الحجة سنة ٧٧٨ ﻫ . وكانت مدة حكمه أربع عشرة سنة وشهرين .

الثالث عشر على بن شعبان الملقب بالمنصور (السادس)

تولى بعد أبيه وهو صغير السن لم يتجاوز السابعة وكان وصيه حين توليته برقوق مؤسس دولة الشراكسة وبقى أربع سنين وشهورا وتوفى سنة ٧٨٣ ﻫ وتولى بعده أخوه الملك الصالح

الرابع عشر الملك الصالح حاجى بن شعبان

تولى بعد موت أخيه ولقب بالملك الصالح الثالث وكان سنه حين جلس على سرير الملك لايتجاوز العاشرة ولذلك لم يكن له فيه سوء الاسم وكان أمر الدولة بيد وزيره برقوق فكثرت الاضطرابات فى الدولة فتنازع الأمراء فى شأن الرياسة وعظمت الفتن وفسدت الأحوال فقام عليه برقوق فى لفيف من العساكر وهجم على أبواب القلعة واستحضر الخليفة الموجود بذلك العهد وهو المتوكل على الله والقضاة والامراء. واتفقوا على خلعه وتولية برقوق بعد أن حكم سنة وأشهرا وبخلعه انقرضت دولة المماليك البحرية وكان خلعه سنة ٧٨٤ ﻫ ، وكانت مدتهم كلها فتن وشدائد لاقى فيها الناس الويل وإن كان قد حصل فى زمنهم تجديد عمارات كثيرة ومبان رفيعه وبعدانقراض هذه الدولة قامت دولة الجراكسة .

دولة المماليك الجراكسة

حكمت هذه الدولة من سنة ٧٨٤ ﻫ إلى سنة ٩٢٣ ﻫ عبارة عن (١٣٩) سنة وعدد ملوكها أربعة وعشرين ملكا وأصلهم من المماليك الجراكسة وسبب دخولهم فى الملك أن أواخر ملوك الدولة البحرية قد أكثروا من شرائهم اقتداء بأسلافهم وبعد أن تربوا وصارت لهم قوة وعصبية ويد فى الملك انقلبوا عليهم وانتزعوا الملك منهم كما فعل غيرهم بسابقيهم وأول من جلس منهم على سرير الملك السلطان برقوق .

الأول السلطان برقوق

تولى من سنة ٧٨٤ ﻫ إلى سنة ٧٩١ ﻫ . وكان هذا الملك فطنا صاحب دهاء وحيل وكان له براعة فى كثير من الفنون ولذلك ترقت به الأحوال من كونه مملوكا إلى أن صار ملكا وكان محبا للخير وهو الذى أسس مجد هذه الدولة ونزع الملك من يد آخر المماليك البحرية كما سبق التنبيه عليه وقد حاربت جيوشه جيوش تيمورلنك ومن أعماله أنه بنى مدرسة بين القصرين وجامعا معروفا باسمه إلى الآن بالقرب من المارستان وبنى جامعا كبيرا أيضا خارج باب النصر بالصحراء الشرقية بساحة المقابر وجعل قبره بها ثم خلعه الأمراء بعد أن حكم ثمان سنوات وتولى بعده ابنه فرج

الثانى فرج بن برقوق

تولى وعمره عشر سنين فقام عليه الأمير أيتمش وأراد خلعه فلم يتمكن من ذلك ففر هاربا إلى الشام وأقيم بدله بيبرس السيفى فسكنت الفتنة وكان أيتمش لما فر إلى الشام نهب وسلب وأثار الفتنة فجهز له جيشا وحاربه وقتله ورجع إلى مصر فى موكب عظيم وعلق رأسه على باب زويله وفى هذا الوقت كان تيمورلنك قد أشعل النار فى حلب وغيرها من البلاد الشامية بعد وقائع قتل فيها مالا يحصى عدده حتى قيل أنه بنى من الرءوس منارات وأبراج والملك لاه عنه بشهواته ولذاته ولذلك قام عليه بيبرس السيفى وصمم على قتله فهرب وخلع وولى أخوه عبدالعزيز

الثالث الملك المنصور عبد العزيز بن برقوق

تولى بعد خلع أخيه سنة ٨٠٨ ﻫ ومكث نحو شهرين وأعيد أخوه فرج مرة ثانية ولذلك لما عاد اجتهد فى الغزو فغزا دمشق وفتحها وفتح كثيرا غيرها من البلاد الشامية وفى سنة ٨١٣ ﻫ حصلت فتنة بمصر قتل فيها وكان ذلك فى

المحرم سنة ٨١٥ هـ وكانت مدته الثانية ست سنين وتسعة أشهر وبموته بايع الجند الخليفة المستعين بالله العباسى ولقب بالملك العادل وأصلح الأمور وأجرى الأحكام وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر وأكثر العطاء فأحبه الناس وبعد ذلك خلعه المماليك قبل أن يتم السنة التى حكم فيها بمواطأة الشيخ المحمودى الذى جعله نائبا عنه للسلطنة وكان خلعه فى ربيع الأول سنة ٨١٥ هـ .

الرابع الشيخ المحمودى

تولى بعد خلع المستعين بالله وأصله من مماليك الظاهر برقوق ولقب بالملك المؤيد وبويع بالخلافة داود أخو المستعين بالله ولقب بالمعتضد بالله وكان شجاعا مقداما ماكرا مدبرا خرج إلى الشام مرتين ليمهد ملكها وكان من أشهر الفرسان العارفين بضروب الحروب وكان محبا للعلم والعلماء معظما للشريعة الغراء كثير العبادة ومن مآثره الجامع المعروف باسمه للآن داخل باب زويله بدأ فيه سنة ٨١٧ هـ وانتهى منه سنة ٨٢٠ هـ وكان له مدرسة بجواره وعصى عليه نواب الشام فسار اليهم فولوا الأدبار خوفا منه فعزلهم وولى بدلهم وعاد إلى القاهرة وصفا له الوقت فأكثر من شراء المماليك فوقع فى زمنه وباء عظيم وكان محسنا إلا أنه كان سفاكا للدماء قتل كثيرا من نوابه وقتل ابنه إبراهيم لما بلغه تصميمه على نزع السلطنة منه ودفنه بجامعه المعروف ثم مات بعد أن حكم ثمانى سنين وخمسة أشهر وكانت وفاته فى المحرم سنة ٨٢٤ هـ ودفن بجوار ابنه بمدفنه الذى بناه بجامعه المشهور .

الخامس الملك المظفر أحمد بن الملك المؤيد

تولى بعد وفاة أبيه وكان سنه دون السنتين فمكث إلى شوال من سنة توليته وتنازل عن الملك لوصيه تتر فتولى الملك .

السادس الملك الظاهر سيف الدين تتر

جلس على سرير الملك ثلاثة أشهر ثم مات ودفن بالقرافة بجوار الإمام الليث فتولى بعده ابنه .

السابع الملك الصالح محمد بن تتر

تولى بعد موت أبيه ولقب بالملك الصالح فلم يمكث بالملك إلا أربعة أشهر ثم خلعه وصيه سيف الدولة برسباى سنة ٨٢٥ هـ ولم يزل بعد خلعه فى شقاء وعناء إلى أن مات .

الثامن الملك الأشرف برسباى

تولى بعد خلع محمد بن تتر فى ربيع الأول سنة ٨٦٥ هـ ولقب بالملك الأشرف وحارب الفرنج وتغلب عليهم مرارا واستولى على جزيرة قبرس ثم عقد مع ملوك الافرنج وآل عثمان معاهدات تدل على ما كان عليه من قوة التدبير ومكانة الملك ومن آثاره المدرسة الأشرفية بالقاهرة والشركسية خارج باب النصر والجامع المعروف بجامع الأشرفية ، وكان هذا الملك من أعظم ملوك الجراكسة قدرا وأرفعهم ذكرا وأشدهم بطشا يشبه الملك المؤيد فى كثير من أحواله وتوفى فى ١٣ ذى الحجة سنة ٨٤١ هـ بعد أن تولى الملك نحو (١٧) سنة .

التاسع الملك العزيز يوسف

تولى بعد وفاة أبيه برسباى ولقب الملك العزيز ولم تطل مدته فإنه بعد ثلاثة أشهر من مبايعته تخاصم مع مماليكه ومع سيف الدين جقمق أتابك جيشه خصاما كانت نهايته عزل ابن برسباى ومبايعة جقمق .

العاشر الملك الظاهر جقمق

تولى بعد خلع الملك العزيز فى ١٦ ربيع الأول سنة ٨٤٢ ﻫ وفى مدته حصل طاعون بمصر عم فى جميع أرجائها ، وفى مدته أيضا توفى الخليفة المعتضد بالله سنة ٨٤٦ ﻫ وبويع أخوه المستكفى بالله وكانا بارين فأحبهما الملك ثم بويع القائم بأمر الله ولم يكن كذلك فأبغضه السلطان ثم تنازل السلطان جقمق لابنه فخر الدين عثمان سنة ٨٥٧ ﻫ بعد أن حكم (١٤) سنة وتسعة أشهر وله عمارات كثيرة وكان محبا للفقراء كثير الخيرات والمبرات .

الحادى عشر الملك المنصور عثمان

تولى بعد تنازل أبيه له سنة ٨٥٧ ﻫ ولم تطل مدته بل أنه خلع بعد شهر من حكمه بايعاز من الخليفة .

الثانى عشر الأشرف إينال

تولى بعد خلع الملك المنصور عثمان ولقب بالملك الأشرف وجعل مقر الخليفة مدينة الاسكندرية حتى يكون بعيدا عن دس الدسائس للملوك وتوفى فى ١٥ جمادى الأولى سنة ٨٦٥ بعد أن حكم ثمان سنين وشهرين . وتولى بعده ابنه أحمد بن إينال

الثالث عشر أحمد بن إينال

تولى الملك بعد أبيه ولقب بالملك المؤيد وكان يباشر كثيرا من الأحكام فى حياة أبيه ولم تطل مدته فانه عزل بعد أربعة أشهر من توليته فى ١٩ من رمضان سنة ٨٦٥ ﻫ التى تولى فيها . وتولى بعده خوش قدم

الرابع عشر خوش قدم

لما عزل أحمد بن اينال بويع بعده الملك الظاهر خوش قدم الملقب بالناصرى نسبة إلى الملك الناصر لأنه من مماليكه ولقب بالملك الظاهر وكان حسن الصفات

كريما محسنا مشيدا أركان العدل مقربا لأهل العلم والفضل وكانت وفاته فى ربيع الأول سنة ٨٧٢ هـ بعد أن حكم سنتين وخمسة أشهر ووليه الملك الظاهر بلباى .

الخامس عشر الملك الظاهر بلباى

جلس على سرير الملك بعد وفاة الملك الظاهر خوش قدم ولقب بالظاهر أيضا ولم يكن أهلا للملك لأنه كان جبارا عنيدا مستبدا برأيه، لاتأخذه فى ظلمه لومة لائم ولذلك خلع بعد شهرين من حكمه فى ١٧ جمادى الأولى سنة ٨٧٢ هـ .

السادس عشر الملك الظاهر طاربوغا

ولى الملك بعد خلع بلباى وكان حظه فى الملك كحظ سابقه فلم يمكث به إلا نحو شهرين وخلع فى رجب من سنة توليته التى هى سنة ٨٧٢ هـ وكانت وفاته بمدينة الاسكندرية ودفن بها وتولى بعده قايتباى .

السابع عشر الملك الاشرف قايتباى

جلس على سرير الملك سنة ٨٧٢ هـ وأصله من مماليك جقمق ولقب بالأشرف وحارب العثمانيين وكانت الحرب بينهما سجالا ثم اصطلحا سنة ٨٨٦ هـ ثم مات قايتباى بعد هذا الصلح بخمس سنين وكانت وفاته فى ذى القعدة سنة ٩٠١ هـ ومدة حكمه تسع وعشرون سنة وأربعة أشهر وأيام وبنى جامعه المعروف باسمه بالقرافة خارج القاهرة وله جامع آخر بالروضة وكان من أجل الملوك قدرا وأعلاهم همة وأطولهم يدا

الثامن عشر محمد بن قايتباى

تولى بعد أبيه فى أواخر ذى القعدة سنة ٩٠١ هـ ولقب بالناصر وخلع بعد ستة أشهر من حكمه فى جمادى الأولى سنة ٩٠٢ هـ . وتولى بعده الملك الاشرف قانصوه

التاسع عشر الملك الأشرف قانصوه خمسمائة
(لأنه اشترى بخمسمائة)

تولى بعد خلع محمد أبي السعادات ولقب بالملك الأشرف ومكث ستة أشهر ثم تنازل عن الملك ووليه محمد بن قايتباى مرة ثانية ومكث سنة ونصفا وذبح فى ربيع الأول سنة ٩٠٤ ﻫ وكان متوحشا يأتى بأمور فظيعة لا يأتى بها أحد من العقلاء. منها أن والدته جهزت له يوما جارية أدخلتها عليه فقفل الباب وسلخ جلدها وهى على قيد الحياة وحشاه تبنا ثم خرج يفتخر بذلك ويعرف الناس أنه بارع فى السلخ فهكذا تكون الملوك وهكذا يكون حسن السلوك إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى إن إلى ربك الرجعى.

العشرون الملك الظاهر قانصوه الأشرف

تولى بعد قتل الناصر محمد بن قايتباى فى ربيع الأول سنة ٩٠٤ ﻫ وسار سيرا حميدا ولكنه خلع بعد سنة وأشهر وتولى بعده قانصوه جملاط.

الحادى والعشرون الملك الأشرف
قانصوه الثالث جملاط

أصله من مماليك قايتباى تولى بدون رضا الجند إلا أنه قام بنصرته طومان باى أحد أمرائهم فلما سار فى الناس سيرة غير مرضية وظلم وصادر الناس فى أموالهم وارتكب متن الشطط وسار فى طريق العسف غضب منه طومان باى وانضم إلى أعدائه فحاربوه وقهروه وخلعوه وكان انتهاء ملكه سنة ٩٠٦ ﻫ وتولى بعده طومان باى.

الثانى والعشرون طومان باى الأول

ولقب بالملك العادل وفرح الناس بولايته لما كان لسابقه من الظلم والحيف ولكنه لم تطل مدته فان المماليك قد قاموا عليه وقتلوه فى الشهر الرابع من

توليته ولكنه قد بنى فى هذه المدة القصيرة المدرسة المعروفة بالعادلية بحارة باب النصر وكانت وفاته فى ذى القعدة سنة ٩٠٦ هـ ودفن بمدرسته التى خربها الفرنسيس عند دخولهم فيما خربوا .

الثالث والعشرون الملك الأشرف قانصوه الغورى

تولى بعد طومان باى سنة ٩٠٦ هـ وهو من مماليك قايتباى أيضا وفى عهده قدم إلى مصر كركود أخى السلطان سليم الأول بن بايزيد ملتجئا إليه متخاصما مع أخيه على الملك فرحب به الغورى وجهز له جيشا لحرب أخيه فلم يفلح فجهز السلطان سليم جيشا وسار به لفتح سورية وأرسل يهدد الغورى فاتحد مع ملك الفرس على السلطان سليم بعد أن سعى فى الصلح فلم تنجح مساعيه وكانت عاقبة ذلك الحرب بينهما فجهز كل منهما جيشا والتقى الجيشان بالشام بموضع يقال له مرج دابق فانهزم المصريون شر هزيمة ووقع قانصوه قتيلا تحت سنابك الخيل وكان ذلك فى الخامس والعشرين من رجب سنة ٩٢٢ هـ ، وبعد موته ملك السلطان سليم حلب بدون أدنى معاناة ولما عادوا بعد الهزيمة ولوا طومان باى .

وكان الغورى ذا دهاء وسياسة عالية ولذلك أمكنه أن يقمع المعتدين عليه يقمع الأمراء الذين كانوا معه فى الملك غير أنه كان ظالما سفاكا للدماء ومن ظلمه أنه منع الأخذ بالمراريث وصار يأخذ أموال الناس بالباطل ومن آثاره جامعه المشهور المنسوب إليه ونسبت إليه الغورية أيضا والمدرسة والمدفن المقابلين له وكثير غير ذلك .

الرابع والعشرون طومان باى

تولى بعد عمه الغورى سنة ٩٢٢ هـ وكان شجاعا قويا فاستعد لحماية مصر وسار السلطان سليم إليها فى ذلك الحين والتقيا شمال القاهرة ودافع دفاعا عظيما

ولكنه لم يستطع رد هجمات العثمانيين فدخلوا مصر بالرغم عنه وخطب للسلطان سليم فيها وفر طومان باى وجهز جيوشا أخرى فلم تغن عنه شيئا سوى أن ذلك كان سببا فى شدة أذى العثمانيين للشراكسة والمصريين فقتلوا كثيرا ونهبوا وسلبوا وبعد ذلك قبضوا على طومان باى فشنق وعلق على باب زاوية ثلاثة أيام ، وبموته انتهت الثلاقل كما انتهت دولة الشراكسة به ، وكانت مدته ثلاثة أشهر وخمسة عشر يوما .

وملوك هذه الدولة وإن كان لهم آثار كثيرة وخيرات عديدة ومساجد ومدارس ومعاهد علمية وملاجىء للفقراء بمصر والشام فإنهم كان لهم مظالم لاتحصى وشرور لاتستقصى فكم برىء قتلوا وكم أعانوا ظالما وكم سلبوا مالا لإطلاق أيديهم وعدم قدرة الناس على مما نعتهم فالقول ماقالوه والأمر ما أبرموه والحكم ما أصدروه وكثيرا ما انتقم الله منهم بأيديهم وسلط بعضهم على بعض وكان ذلك موجبا للدمار وزوال دولتهم والحكم لله الواحد القهار .

الدولة العليـــة

ومصر تحت رعايتها

هذه الدولة من أجل الدول قدرا وأرفعها ذكرا وأقواها شوكة وأشدها بأسا وأكثرها آثارا وأجلها افتخارا قائمة على دعائم العدل مؤسسة على الحكمة والفضل وقد اختلف المؤرخون فى أصل ملوكها والحق أن أصلهم من التركمان وينتهى نسبهم إلى يافث بن نوح عليه السلام وعدد ملوكها خمسة وثلاثين ملكا أولهم ببلاد الروم السلطان عثمان الغازى بن الأمير أرطغرل بن سليمان جاه وكان السلطان سليمان جاه أميرا على ميرة وهى مدينة قريبة من بحر الخزر والتركستان وأصل منشؤه بمدينة ماهان بجوار بلخ ولما ظهر جنكيز خان ملك المغول وتغلب على مملكة خوارزم وتفرق أهلها وترك البلاد مع من تركم معه وقصد بلاد الروم وكان قـــد سمع بالدولة السلجوقية وعظم شوكتها سار هو ومن معه حتى وصل إلى أذربيجان ومنها الى حلب وبعد مدة أراد الرجوع إلى بلده فعند رجرعه وعبوره نهر الفرات ولم يكن يعرف المخاضة غرق فيه وتوفى رحمه الله ودفن بجوار قلعة جعبر ويعرف قبره للآن بتركمزارى يزار ويتبرك به وكان ذلك سنة ٦٢٩ هـ وكان له أولادا أربعة فرجع منهم اثنان إلى خراسان بعد غرق أبيهم وبقى أرشدهم أرطغرل هو وأخوه الأصغر دندار ومن معهما من عشيرتهما فاستأذن أرطغرل من علاء الدين السلجوقى ملك قونيه فى الدخول إلى بلاده وطلب منه موضعا ينزل فيه فعين له جبال أرميناك فنزل هو ومن معه وكانوا نحو أربعمائة عائلة وأقاموا ببلدة هناك تسمى قورجه طاغ وبعد أن أقام زمنا عزم على التوجه إلى جهة الغرب عسى أن يرى بها جهة أخصب من الجهة التي هو فيها فبينما هو سائر إذ رأى جيشين يتحاربان وكان

أحدهما للتتار وثانيهما لعلاء الدين السلجوقى فانضم هو لأقلهما ونصره فاذا هو جيش علاء الدين السلجوقى ففرح بذلك علاء الدين وأقطع أرطغرل الأراضى الواسعة الواقعة على نهر صيخاريوس وأراضى قورجه طاغ شرق جبل أولمبه بالقرب من مدينة أنقره بالأناضول وذلك سنة ٦٦٣ هـ وزاد فى اقطاعاته فكانت تلك الأراضى هى منبع الدولة العثمانية ثم لما تحارب علاء الدين مع التتار ثانيا لتعرضهم لبعض بلاده فوض أمر قلعة كوتاهين لنزيله أرطغرل ففتحها بعد عناء شديد وجهد جهيد فزادت منزلته عند علاء الدين ولم يزل يجاهد حتى توفى سنة ٦٩٦ هـ . ولما أخبر السلطان علاء الدين بوفاته أسف عليه أسفا شديدا وعين ابنه عثمان خان الغازى خلفا له ولما رأى علاء الدين جده واجتهاده وحزمه وشجاعته وجهه للجهاد كوالده وأمده بامداده وأرسل اليه الراية السلطانية وخلع عليه الخلع السنية فلما رأى ضرب الدفوف بين يديه نهض قائما على قدميه تعظيما للسلطان ومجازاته الاحسان بالاحسان ومن ذلك الوقت صارت هذه العادة بين العساكر العثمانية عند سماعهم دق الطبول يقفون تعظيما لسلطانهم وأعطاه أيضا لقب بك وسمح له بضرب الدراهم باسمه وأن يخطب له على المنابر وبذلك صار عثمان بك ملكا لا ينقصه غير اللقب

ولما حصلت اغارة المغول الثالثة فى مدة علاء الدين وفر هاربا تجزأت مملكته بين أمراء دولته واستقل كل واحد منهم باقليم فكان نصيب الأمير عثمان منها جزءا من مملكة (بورسا) وجميع البلاد التى كانت حول جبل أولمبة بالأناضول فأقام دعائم الدولة العثمانية وأسسها سنة ٦٩٩ ولقب نفسه باديشاه آل عثمان وجعل مقر ملكه مدينة يكى شهر فهو أصل الشجرة العثمانية المباركة التى استظلت الرعية تحت ظلها وباتت آمنة مطمئنة بتيقظها وعدلها وها هو موجز سيرته

الأول السلطان الغازى عثمان خان الأول

(٦٩٩ — ٧٢٦ هـ)

بويع له سنة ٦٩٩ هـ ولما تم له الأمر زحف على مدينتى أزميد(١) وأزنيك(٢) فلما لم يستطع فتحهما عاد إلى مقره ثم عرض على أمراء الروم فى آسيا إحدى خصال ثلاث إما الاسلام أو الجزية أو الحرب فأسلم بعضهم وانضم اليه وصار عونا له ودفع بعضهم الجزية واستعان بعضهم بالتتار فجهز لهم جيشا جرارا بقيادة ابنه أورخان فسار اليهم مع كثير من أمراء الروم الذين زينوا بالاسلام فشتت شمل التتار ثم حاصروا بورصة (٣) سنة ٧١٧ هـ ودخلها عنوة وكان ملك القسطنطينية قد أمر عامله عليها بمبارحتها وتركها لأهلها يحكمون أنفسهم بأنفسهم فى مقابلة جزية يدفعونها وأسلم حاكمها أفرانوس الذى صار بعد ذلك من أكابر قواد العثمانيين ولم يزل السلطان مجاهدا حتى فتح ناحية مرمرة واستقر فى بكى شهر وأسكن فيها الجند وجعلها مقر ملكه كما تقدم وفتح حصونا كثيرة ثم مرض السلطان مرض موته ولما احتضر أوصى ولده أورخان بثلاث وصايا مفيدة أولها التمسك بالشريعة الغراء وعدم الاستقلال بالرأى ثانيها إعطاء كل ذى حق حقه من التعظيم والتكريم والانعام لاسيما العلماء الاعلام ثالثها التعظيم لأوامر الله تعالى والانقياد له والشفقة على خلق الله وأوصى له بالملك وكانت

---

(١) هى مدينة يونانية قديمة بآسيا الصغرى أصل اسمها نيكوميدس

(٢) مدينة يونانية قديمة بآسيا الصغرى أيضا أصل اسمها نيقة شرق مدينة برسه وهى مشهورة بعمل السجاجيد الجيدة والخزف .

(٣) مدينة جيدة الهواء عذبة الماء يرحل اليها الناس فى الصيف لجودة هوائها والاستنشاق بمائها .

وفاته فى ٢١ رمضان سنة ٧٢٦ هـ ومدة ولايته (٢٦) سنة تقريبا ثم تولى بعده ابنه السلطان أورخان بوصية منه .

الثانى السلطان أورخان الغازى

(٧٢٦ — ٧٦١ هـ)

ولى بعد موت أبيه سنة ٧٢٦ هـ ولما تم له الأمر صرف همته فى سن القوانين وتقرير أحوال المملكة وترتيب نظامها وجعل العساكر نظامية وألبسها الملابس التى تمتاز بها وأوجد فرقة الانكشارية وجعل علاء الدين باشا وزيراله وقسم إيراد الدولة إلى قسمين قسم خاص بالخزينة السلطانية والأسرة المالكة ونفقات الديوان السلطانى وقسم خاص بالعساكر وضباطهم ومايلزمهم من آلات حرب وغير ذلك وبعد أن استعد استعدادا تاما شرع فى الغزو والتفت للفتح ففتح قلعة أيون حصار وفتح سنة ٧٣١ هـ مدينة أزتيك وبفتحها سقط نفوذ الروم فى آسية وضم إلى مملكته مابقى من آسيا الصغرى واجتهد فى بناء المساجد والملاجىء وفتح المدارس وغزا الروم حيث إنهم نقضوا العهد مرارا وفتح كثيرا من بلادهم تحت قيادة ولده الاكبر سليمان ثم توفى سليمان هذا سنة ٧٦٠هـ وآلت ولايته العهد إلى مراد وولى منصب الصدارة خير الدين باشا الذى كان قد اقترح تربية الشبان الذين يؤسرون فى الحرب تربية إسلامية فقبل الملك ذلك فذهب بهم إلى الحاج بكتاش ليدعو لهم فدعالهم بالنصر وسماهم يكجارى أى الجيش الجديد وهم الانكشارية المعروفون بالشهامة والقوة ولم يزالوا كذلك حتى فتك بهم السلطان محمود الثانى فى تاسع ذى القعدة سنة ١٢٤١ هـ لما أكثروا العصيان وزادوا فى التمرد والطغيان ثم توفى السلطان أورخان سنة ٧٦١ وله من العمر (٨٢) سنة ودفن بمدينة بورصة وكانت مدة حكمه خمسة وثلاثين سنة وكانت

سيرته حميدة وأفعاله مرضية وهو أول من بنى المدارس من ملوك الدولة العثمانية كما تقدم

الثالث السلطان الغازى مراد الأول

(٧٦١ — ٧٩١ ﻫ)

تولى الملك بعد وفاة أبيه ٧٦١ ﻫ وكان من أجل الملوك قدرا وأرفعهم ذكرا وكان شجاعا مهيبا محبا للفتح والغزو ولذلك كان يباشر الفتح بنفسه فى أغلب فتوحاته ولما استقر له الأمر بدأ فى الجهاد ففتح قلعة أنقرة مقر سلطنة القرمان سنة ٧٦٢ ﻫ وأخذها من علاء الدين ملك القرمان نكاية له لأنه كان يكيد للدولة العثمانية ويمكر بها ويشعل نار الفتنة ضدها ويغرى عليها الملوك ثم اصطلحا بعد ذلك وتعاهدا وفتح مدينة أدرنة (اسمها بالرومية أدريانوبوليس نسبة للامبراطور آدريان الرومى لأنه أجرى فيها كثيرا من التحصينات فنسبت اليه) وجعلها عاصمة ملكه وبقيت كذلك إلى فتح القسطنطينية ثم فتح مدينة فيلبة قاعدة الروملى الشرقية سنة ٧٦٥ ﻫ (واسمها بالرومية فيلوبولبس أى مدينة فلبس نسبة لمؤسسها فلبس والد الاسكندر المقدونى) وفتح أيضا سائر البلاد الروملية الجنوبية فأصبحت القسطنطينية محوطة بالأملاك العثمانية من جميع جهاتها ولذلك اضطر الملوك المسيحيون للاستنجاد بملوك أوربا الغربية فوصلت إمداداتهم إلى ملك الصرب الذى هاجم أدرنة أثناء اشتغال السلطان مراد بحصار بيجا فى آسيا الصغرى بالقرب من بروسه ففاجأهم العثمانيون فى ظلام الليل وفتكوا بهم فتكا ذريعا ومن بقى ولى مدبرا وذلك سنة ٧٦٦ ﻫ واتحد ملك الصرب والبلغار على العثمانيين فعجزا وأبرما مع السلطان صلحا على أن يتزوج بنت أمير البلغار وأن يقوما له بدفع جزية سنوية ثم تأخروا عن دفعها بعد ذلك فحاربهما وأدخلها تحت الطاعة وفتح مبستر وبور لوبتا واستيب وصوفيا

بعد حصارها ثلاث سنين وفتح خير الدين باشا الصدر الأعظم سلانيك سنة ٧٨٦ هـ وتمرد علاء الدين فقهره وأسره ثم رده إلى مقره بشرط أن يدفع له جزية سنويةواستولى على ولاية قرمان وسواها من البلادوكانت مستقلة وتواطأ ملك الصرب وملوك الأفلاق وأمراء بلماسيا على محاربته فلم يفلحوا وحاربهم وانتصر عليهم فأصبحت البلغار والروملي وآسيا الصغرى تابعة للدولة العلية وغزا الصرب وقهرهم وجعلهم تحت طاعته وبينما كان يمر بين القتلى إذ نهض جندى صربي يدعى ميلوك وطعنه طعنة قضت عليه وكان ذلك فى النصف من شعبان سنة ٧٩١ هـ ومدة حكمه نحو ثلاثين سنة وتولى بعده ابنه السلطان بايزيد الأول .

الرابع السلطان الغازى بايزيد خان الأول

(٧٩١ — ٨٠٥ هـ)

تولى الأمر بعد موت أبيه سنة ٧٩١ واقتدى به فى الفتح والغزو ففتح كثيرا من البلاد وكان ذا همةعالية وشجاعة تامة فتح الاشهروبلادليديا فى آسيا وكانت آخر مدينة للروم بها وامتلك امارة آيدن بلا قتال وترك له علاء الدين جزءا من أملاكه وفى سنة ٧٩٥ هـ استولى على إمارات سيواس وطوقات وقسطنطمونى وغيرها ثم عاد إلى برسه وكتب إلى صاحب القسطنطينية أمانيول إما أن تخرج من البلاد وتسلمها وإما أن نسير إليك فخاف وعقد معه صلحا بأن يدفع له جزية سنوية وأن يبنى للمسلمين داخل المدينة خطة يسكنونها ويجعل لهم جامعا وقاضيا ولم يزل بايزيد يفتح فى البلاد ويضيق على ملوك الطوائف حتى هربوا منهم جماعة واستعانوا عليه بتيمورلنك الأعرج الباغى وحسنوا له الوصول إلى بلاد الروم فوصل لبلاد الشام وسفك الدماء وسبى الذرارى والنساء ثم توجه إلى بلاد الروم حتى التقى مع بايزيد وكانت بينهما

واقعة تشيب من هولها الولدان ثم إن بايزيد قد خلعه عساكره وانهزموا عنه ولم يبق معه إلا قليل من المشاة فثبت شاهرا سيفا بتارا ولم تزعزعه هذه الألوف المؤلفة وقارب على تيمورلنك قاصدا قتله لولا ماصنعوه معه من الحيلة وذلك أنهم ألقوا عليه بساطا وأمسكوه به فوقع فى قبضة الأسر ولاشتداد غضبه وتأثره حصل له حمى فمات رحمه الله فى نصف شعبان من سنة ٨٠٥ ﻫ بالغامن العمر (٤٤) سنة فبئست هذه الدنيا الغدور والدهر العسوف .

ماصفا الدهر لشخص نصف يوم وأتمه

وتوفى رحمه الله عن سبعة أولاد فحصل بينهم النزاع على مابقى من بلاد الدولة وصار الأعداء يدفعون بعضهم على بعض ليضعفوا شوكتهم وينهكوا قوتهم حتى يتمكنوا من أغراضهم ولم يلبث محمد أحد أولاده مدة حتى أعاد وحدة السلطنة وجمع مقاليدها بيده وفتك بمنازعيه حتى تم له الأمر.

الخامس السلطان محمد الأول بن بايزيد

(٨١٦ — ٨٢٤ ﻫ)

لما تم له الأمر وتربع فى دست المملكة عقد الصلح مع الدول الأوربية وصرف جل عنايته إلى إصلاح داخلية البلاد وانتقض عليه ملك الأفلاق وملك المجر فسار بنفسه لمحاربتهما حتى أرجعهما إلى الطاعة بحزمه وهمته وقوته وشجاعته واجتهد فى تسكين الفتن التى قامت فى البلاد التى استقلت وكان مشهورا بالحلم والعفو ولذلك قد عفا عن أمير القرمان الذى أقسم ألا يخون الدولة ثم حنث فى قسمه وعن قره جنيد حاكم أزمير الذى عفا عنه لما ظفر به وفى أيامه ظهر رجل يسمى بدر الدين بما يشبه مذهب الاشتراكيين فى هذا الزمان وتبعه خلق كثير وعدد غزير فعظم الخطب واشتدت الفتن ولم يزالوا متبعين حركاته حتى قبض عليه بدمشق سنة ١٤١٧ م وما كاد يطمئن خاطر السلطان ويهدأ باله

حتى خرج عليه أخوه مصطفى وطالبه بالملك وانضم إليه قره جنيد فحارباه فانهزما فالتجأ مصطفى إلى سلانيك وطالب تسليمه إليه من ملك الروم فأبى واعدا بحفظه والأمن من جهته مادام حيا فقبل ذلك وجعل لأخيه مرتبا يأخذه سنويا على قدر احتياجاته ونفقاته ثم عفا عن قره جنيد وبقى السلطان إلى أن توفى سنة ٦٢٤ هـ بأدرنه بعد أن بلغ من العمر (٥٢) سنة وهو أول من أرسل إلى مكة أموالا من العثمانيين لتوزع على فقراء مكة والمدينة المعروفة بالصرة وأوصى بعده بالملك لابنه مراد

السادس السلطان مراد الثانى

(٨٢٤ — ٨٥٥ هـ)

كان ملكا عظيما مقداما مطاعا عارفا بالأمور ذا سياسة عالية وحكمة سامية ولذلك لما جلس على سرير الملك شرع فى عقد الصلح بينه وبين أمير القرمان ومهادنة ملك المجر ليتفرغ للإصلاح فى داخلية بلاده ويتمكن من إرجاع ولايات آسيا ولكن ملك أمانويل طلب منه تسليمه أثنين من أخوته تأمينا على عدم المحاربة وتهدده باطلاق عمه محمد فلم يقبل ولم يكترث بذلك التهديد فأطلق الأمير مصطفى أخا السلطان بايزيد الذى كان قد أختفى من وجه أخيه ولجأ إلى سلانيك وبقى فيها إلى ذلك العهد فجهز له ملك الروم أسطولا مكونا من عشر سفن حربية وبعثه يحارب ابن أخيه ليأخذ منه الملك فلم يفلح حيث أنه حاصر جاليبولى ثم سار بجيشه إلى أدرنه فهزم وسلم إلى السلطان مراد فشنقه ثم أراد نكاية ملك الروم فحاصر القسطنطينية فى رمضان سنة ٨٢٥ هـ ثم تركها لعصيان أخيه عليه مع أمراء آسيا فهزمهم وقتله وعاد إلى طاعته الولايات التى أعطاها تيمورلنك استقلالها ولما تم أمره فى آسيا كاف ملك المجر بالتوقيع على معاهدة تقضى عليه بترك ماله من البلاد التى على شاطىء الدانوب الأيمن بحيث يكون

هذا النهر حدا بين أملا كهما ولما أشتد بأسه وقوى سلطانه تقرب إليه ملك الصرب وزوجه أبنته ماريا وسار يدفع إليه جزية سنوية ويمده بفرق من جنوده فى الحرب وتنازل عن مدينة كروسيفالنس وهى واقعة فى وسط بلاده لتكون مركزا الحامية العثمانية ثم فتح سلانيك التى تنازل الروم عنها للبندقية بعد حصارها خمسة عشر يوما ثم استولى على ألبانيا واضطر أمير الأفلاق أن يعترف بسيادة الدولة عليه ولكنه لم يلبث أن ثار مع أمير الصرب بناء على تحريض ملك المجر فحاربهما وهزمهما شر هزيمة وهاجم المجر وعاد منها بنحو سبعمائة ألف أسير وعصى أمير الصرب فى السنة التالية فغزاه السلطان وفتح من بلاده سمندرية وحاصر بلغراد فاحتمى أميرها بألبير الذى خلف سجمون على المجر ثم أغار على ترنسلفانيا وهرمان ستار التابعة للمجر وكان هو نياد حاكما عليها فحارب العثمانيين وقهرهم إلى مايلى الدانوب فتخلى السلطان عن سيادة الأفلاق ورد مدائن الصرب إلى أميرها وعقد فى ٢٦ ربيع الثانى سنة ٨٤٨ﻫ هدنة عن الحرب عشر سنين مع المجر وبعد ذلك نزل عن الملك لأبنه محمد واعتزل فى أيدين للعبادة فأخل المجر بشروط الهدنة لتقرير الكردينال سيزاديني الذى أفهمهم بأن عدم رعاية الذمة مع المسلمين لا تعد غدرا ولا ذنبا فرجع السلطان إليهم وقتل ملكهم المدعو لادسلاس فى رجب سنة ٨٤٨ ﻫ ثم عاد إلى العزلة كما كان فاستخف الانكشارية بابنه محمد ونهبوا أدرنة فأخمد فتنتهم وساقهم إلى بلاد اليونان ليشغلهم بحربهم وكانت مملكة الروم وقتئذ منقسمة بين أولاد أمينو ل فكانت القسطنطينية لأبنه يوحنا وموريا وجزء من تساليا لأبنه قسطنطين فلما علم قسطنطين بعزم السلطان على حربه حصن بلاده بحصون منيعة فسلط السلطان عليها مدافعه فأحدثت فيها ثلمة دخلت منها الجيوش فاستولت على مدينة كورنثة ثم توفى السلطان فى الخامس من المحرم سنة ٨٥٥ ﻫ . وله من العمر تسع

وأربعون سنة ، وكان صاحب خيرات كثيرة وكان يرسل للحرمين الشريفين فى كل سنة ستة آلاف دينار إلى غير ذلك من الخيرات والمبرات وتولى بعده ابنه محمد الذى تنازل عن الملك اليه

السابع السلطان محمد الفاتح الثانى

(٨٥٥ — ٨٨٦ هـ)

تولى الملك بعد أبيه وكان من أعظم الملوك قدرا وأجلهم شهرة وفضلا وكان لايخاف الردى ولا يهاب الموت وكان مع هذه الصفات فى غاية الصلاح والتقوى وكان يحسن العربية والفارسية واللاتينية وغيرها من اللغات ويقرب أهل العلم ويخدم أولى الفضل والأدب على اختلاف أجناسهم ومذاهبهم ونحلهم ومللهم ويميل إلى الصنائع الجميلة ويفرح بالأعمال الجديدة ولما تمهد له أمر الملك شرع فى فتح مالم يكن للدولة فى حسبان كالقسطنطينية والبوسنة وألبانيا ولكنه خشى أن تمدها مملكة طرابزون وأقام قلعة على الشاطىء الأوروبى من البوسفور فعرض عليه ملك الروم الجزية فأبى وحاصر القسطنطينية فى شهر ابريل سنة ١٤٥٣ م بجيش جرار (٢٥٠ ألف جندى) و (١٨٠) سفينة حربية ، (١٤) بطارية (مجموعة من المدافع) صنعها رجل من المجر يدعى أوربان وكان من إحدى عجائب الدهر فى صنعها فكانت تقذف مقذوفات من الحجر الذى القطعة منه إثنى عشر قنطارا إلى مسافة ميل وأثناء هذا الحصار استكشف قبر سيدى أيوب الانصارى رضى الله عنه الذى استشهد فى حصارها سنة ٥٢ هـ فى مدة معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنهما ثم بنى له مسجدا يتقلد فيه كل سلطان عثمانى عند ولايته سيف السلطان ومازالت هذه العادة مستمرة إلى الآن فاستنجد قسطنطين بأوربا فوافته عدة سفن بحرية لم تجد نفعا

ثم طلب منه السلطان تسليم المدينة طوعا فلم يقبل فهجم عليها هجوم الأسد

وكان ذلك فى عشرين جمادى الأولى سنة ٨٥٧ هـ بنحو (١٥٠) ألف جندى ودخل المدينة وبقى قسطنطين يدافع حتى قتل وقد حوصرت القسطنطينية مرارا ولم يحصل على هذا الظفر العظيم سوى هذا السلطان الفاتح الكبير

وكان دخوله اليها ظهرا فأمر بالأذان فى كنيسة أيا صوفيا وأن ينادى فى المدينة بعدم المعارضة فى إقامة شعائر الدين المسيحى

واتخذ من المسيحيين بطريقا اعتمده رئيسا عليهم وأمر بالاحتفال بتثبيته فى منصبه الجديد تطمينا لخواطرهم . ويقال إن من معتقدات الروم أن السلطان محمد الفاتح لما دخل القسطنطينية ودخل أيا صوفيا كان البطريق يصلى فشقت له الحائط فدخل فيها هو والصور المقدسة وأنه باق وسيرجع ويتمم صلاته عند طرد العثمانيين منها ورجوعها اليهم

وبعد ذلك قصد السلطان موره وتعهد أميراها ديمتريوس وتوماس أخو قسطنطين بدفع الجزية صاغرين فقبل منهما حقنا للدماء وشفقة ورحمة وعاد إلى الصرب فصد هونياد المجرى مقدمة جيشه عنها إلا أن الصربيين رفضوا مساعدة المجريين والتجئوا إلى الصلح مع السلطان على دفع جزية سنوية فقبل منهم ذلك وبعد ذلك حاصر بلغراد وكان فيها هونياد فدافع عنها دفاعا شديدا اضطر السلطان لرفع الحصار عنها مؤقتا ولكنه مات بعد ذلك بنحو عشرين يوما فأتم الصدر الأعظم محمود باشا فتح الصرب ودخلت تحت رعاية الدولة العثمانية

ولما تم فتح مورة وجزائر بحر الروم استولى السلطان على أماستريس وسينوب وطرابزون سنة ١٤٦١ م ثم مات فلاد أمير الأفلاق الذى كان يلقب بالشيطان وكان قد خالف شروط معاهدة سنة ١٣٩٣ م المبرمة بينه وبين الدولة أيام السلطان بايزيد فأرسل إليه رسولين يسألانه عن صحة ماشاع عنه من اتحاده مع ملك المجر فقتلهما شر قتلة بوضعهما على خوازيق وأغار على

البلغار وأسر منها خمسة وعشرين ألف أسير فكتب له السلطان أن يخلى سبيلهم فلما أتاه الرسل أمرهم بكشف رءوسهم تعظيما له فأبوا فأمر بتسمير عمائمهم على رءوسهم بمسامير من حديد فاستشاط السلطان غيظا واشتد غضبا من هذه الأفعال الوحشية الدنيئة التى تأباها الانسانية وسار فى (١٣) ألف مقاتل إلى بخارست لمحاربته ومعاقبته حتى يذوق العذاب كما فعل بغيره فالتجأ إلى ملك المجر بعد أن قتل من قتل من أسراهم فنادى السلطان بعزله وتولية أخيه راوولول خلفا له وفى سنة ١٤٦٢ م استولى العثمانيون على بوسنه فأراد متياس كرفن ملك المجر استخلاصها منه فهزم ثم ضم بوسنه إلى الأملاك السلطانية

ثم قامت الحروب مع البنادقة بسبب رقيق فر إليهم فطلب منهم فامتنعوا من تسليمه بدعوى أنه اعتنق الدين المسيحى وانجلت هذه الحروب عن فتح العثمانيين جزيرة نجر بنت وانتصارهم على البنادقة فى أماكن كثيرة ثم شرع السلطان فى فتح البغدان سنة ١٤٧٥ م فقهر أميرها اسطفان الرابع الجنود العثمانية فى غابة مجهولة مسالكها عليهم ففرح به البابا فلقبه بحامى حمى النصرانية ثم أغار السلطان على بلاد البنادقة ثانيا سنة ١٤٧٧ م فاضطروا لعقد الصلح معه بأنهم يتركون للدولة مدينة اشقودرة وعقدوا بذلك معاهدة فى ٥ ذى القعدة سنة ٨٨٣ هـ وبعد هذا الصلح سار العثمانيون لفتح المجر فغلبوا بالقرب من كارلسبرج وكان المجريون يمدون الموائد فوق جثث الموتى ويأكلون ويشربون وتحتهم من يعانى حرارة الموت وفتح أحمد باشا أمير البحر بمراكبه مدينة أوترنت مقدمة لفتح إيطاليا وكان ذلك سنة ١٤٨٠ م ثم توفى السلطان محمد الفاتح فى رابع ربيع الأول سنة ٨٨٦ هـ وله من العمر (٥٣) سنة فتح فيها من البلاد ما استحق به أن يلقب بالفاتح رحمه الله وعفا عنه

الثامن السلطان بايزيد خان الثانى

(٨٨٦ — ٩١٨ ﻫ)

تولى بعد أبيه سنة ٨٨٦ ﻫ وكان حسن الأخلاق متواضعا ولما توفى والده كتم الصدر الاعظم محمد باشا عنه هذا الخبر ليتمكن أخوه جم حاكم القرمان من الحضور واستلام مقاليد الملك فلما علم الانكشاريه ذلك قتلوا الصدر الأعظم وأرسلوا أليه بالحضور وكان حاكما باماسيا فحضر بغاية السرعة فقابله الانكشارية وطلبوا منه الانعام عليهم بمال فأجاب طلبهم وأنعم عليهم فصارت هذه العادة عادة لهم فى أولية كل ملك إلى أن أبطلها السلطان عبدالحميد الأول ومع كون السلطان بايزيد كان غير ميال للحرب فانه قضت عليه الظروف به لأن أخاه جم استولى على برسه وطلب منه الصلح على أن تكون له أملاك الدولة فى آسيا فلم يقبل ذلك وحاربه وقهره بالقرب من يكى شهر وكان ذلك سنة ٨٨٦ ﻫ فلجأ إلى حدود مصر وقضى عامه عند سلطانها قايتباى ثم عاد إلى حلب واتفق مع أحد أمراء القرمان على أخذ قونية عاصمة القرمان القديمة فصدهما عنها فاستنجد جم برئيس رهبانية القديس يوحنا بريدوس فقبله متعهداً للسلطان باستبقائه عنده مدة حكمه بشرط عدم تعرضه للجزيرة ثم أرسلوه بعد ذلك الى ملك فرنسا ثم إلى ألمانيا ليجعلوه آلة ضد الدولة ولم يزل طريدا حتى توفى بمدينة نابلى ودفن فى بلدة جابيت بايطاليا فى ١٨ جمادى الاولى سنة ٩٠٠ ﻫ بالغا من العمر (٣٦) سنة ثم نقلت جثته بعد ذلك الى بورصة حيث دفن فى قبور آبائه وأجداده واستمر قاسم بك القرمانى فى ايقاد نار الفتن ضد الدولة الى أن انضم اليه أمير بلاد ذى القدرية وحارب الجيوش العثمانيه حتى كاد يعظم الفشل بين الأمتين التركية والعربية لولا توسط حاكم تونس فى الصلح بينهما ثم أخذت العلائق فى التحسين بين الدولة وبين الروسيا وبولونيا

والبابا اسكندر وملك نابلى ودوق ميلان وجمهورية فرنسا حيث كان كل يسعى للفوز بمحالفة العثمانيين ليستعين بهم على عدوه ولكن قد وقع ذلك وقعا سيئا عند جمهورية البندقية حتى كانت نتيجة استيلاءهم على ثغور مودون وكورون وناروين وبينما السلطان يتجهز لاذاقتهم كأس المذرن إذ خرج عليه أولاده كركود وأحمد وسليم طمعا فى الملك فبايع السلطان سليم لنفسه فى أدرنه فأرسل إليه والده من أحضره إليه مقهورا فألح الانكشارية عليه بالعفو عنه لأنهم كانوا يودون ويرغبون أن يكون هو القائم بأمر الملك ولم يلبثوا أن يسألوا السلطان التنازل عن الملك فتنازل له عنه فى الثامن من شهر صفر سنة ٩١٨ هـ وقصد ديمرتيقيا ليقضى بها بقية حياته فتوفى قبل أن يصل إليها وكانت وفاته فى العاشر من ربيع الأول سنة ٩١٨ هـ وله من العمر (٦٧) سنة رحمه الله رحمة واسعة .

التاسع السلطان سليم الأول

(٩١٨ — ٩٢٦ هـ)

كان هذا السلطان شديد البأس سفاكا للدماء تولى الملك وله منازع فيه وهو أخوه أحمد الذى كان أكبر منه سنا وغيره من أخوته الذين هم أصغر منه سنا فلم يهدأ له بال حتى قتل جميع منازعيه إلا من فر هاربا وهو أول من ملك مصر من العثمانيين وكان دخولها فى حوزتهم فى ربيع الأول سنة ٩٢٣ هـ كما تقدم وكان مولعا بالتاريخ بارعا فى اللغات الفارسية والرومية والعربية والتركية وكان مغرما بالاطلاع على جميع الاحوال ولذلك كان يتجسس بالليل والنهار بنفسه مستخفيا وحارب العجم وقهرهم ولما فتح مصر عفا عمن بقى من الجراكسة وأبقى لهم أمرالهم وأملاكهم ورتب الحكومة ترتيبا يكفل له عدم عصيانه ثم رجع إلى مقر سلطنته وأخذ معه الخليفة العباسي وبمرته أو تنازله له انتهت

الخلافة العباسية وصار السلطان هو الحاكم السياسى والدينى من ذلك الوقت وصارت مصر تابعة للدولة ترسل اليها الولاة من قبلها

ولاته على مصر

وكان أول ولاتها عليها هو خاير بك أحد كبراء رجال الدولة وكان من القواد الذين انضموا إلى العثمانيين من جيش الغورى فى واقعة مرج دابق فولاه السلطان سليم على مصر وأعطاه لقب بك ولكنه لم يتركه فى البلاد يتصرف فيها كما شاء بل إنه جعله يحكم بمقتضى مجلس تحت رآسته وأعضاؤه من أمراء الجند وترك فى مصر لحفظها ١٢٠٠٠ من الجند ستة آلاف من المشاة وستة آلاف من الفرسان وأمره أن يقيم بالقلعة ولا يخرج منها لأى سبب كان وبقى بمصر إلى أن توفى سنة ٩٢٨ هـ بعد وفاة السلطان بسنتين

وكانت مصر منقسمة الى اثنى عشر قسما كل قسم يحكمه سنجق من السناجق وكان الذى يتولى حفظ القاهرة وادارة شؤونها يسمى شيخ البلد وله النفوذ التام وبقى الحال على هذا المنوال إلى سنة ١١٨٣ هـ فى عهد السلطان مصطفى الثالث فاستبد بمصر على بك الكبير كما سنبينه

وفى أثناء اقامة السلطان سليم فى مصر جاء اليه ابن أبى البركات شريف مكة المكرمة وقدم له بيده مفاتيح الحرمين الشريفين طائعا مختارا وصارت الخطب تتلى فى المساجد أيام الجمعة باسم السلطان بزيادة خادم الحرمين الشريفين وكذلك قدم له الطاعة خير الدين أمير بلاد البربر فتم بذلك أمر الخلافة الى العثمانيين ، ولما عزم الرحيل من مصر زار مساجدها وبرازخها وأسدى النعم الكثيرة على العلماء ثم بارحها فوصل الى الاستانة فى سابع عشر رجب سنة ٩٢٤ هـ ، بعد ذلك قصد أدرنة وفى أثناء اقامته فيها جاء اليه سفير من اسبانيا يستأذنه فى زيارة المسيحيين لبيت المقدس ويدفعون للدولة مقدار ما كانوا

يدفعونه لملوك مصر المماليك أيام أن كانت تابعة لهم فقبل ذلك ، وبينما هو مجد في الغزو محفوف بالنصر إذ أدركته منيته في التاسع من شوال سنه ٩٢٦ ﻫ وله من العمر (٥١) سنة ورجع إلى ربه

كل ابن انثى وان طالت سلامته   يوما على آلة حدباء محمول

العاشر السلطان سليمان الأول القانوني

(من سنة ٦٢٩ الى سنة ٩٧٤ ﻫ)

هذا الملك تولى بعد أبيه وهو من أجل الملوك العثمانيين وقد بلغت الدولة في زمنه مبلغا عظيما من الرفعة والتقدم حتى هابه الملوك والرعية ، ولما جلس على سرير الملك كانت باكورة أعماله أنه سن القوانين ووضع النظامات الحربية وعين مربيه قاسم باشا مستشارا خاصا له وبلغ الولايات جلوسه على سرير ملكه بخطابات رسمية استهلها بالآية الكريمة وهي قوله تعالى (إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم) ولما بلغ خبر توليته الى والى الشام عمد الى الثورة وحرض عليها والى مصر فأجابه بأنه لايشترك معه فيها إلا إذا استولى على حلب ثم بعث كتابه الى السلطان وكان السلطان قد أرسل اليه جيشا فقهره فقطعت رأسه وأرسلت الى السلطان وبعث السلطان في طلب الجزية من ملك المجر أو ينازله القتال فقتل ملك المجر الرسول فبلغ السلطان ذلك فبعث اليه جيشا ففتح مدينة شابش بالقرب من بلجراد

وكان ذلك في شعبان سنة ٩٢٧ ﻫ وأجلى عنها المجريين في الخامس والعشرين من شهر رمضان سنة ٩٢٧ ﻫ ودخلها السلطان وصلى الجمعة بإحدى كنائسها ثم عاد إلى الإستانة فأبرم معاهدة مع جمهور البنادقة في شهر محرم سنة ٩٢٨ ﻫ وكان لها أهمية عظيمة لأنها أساس الامتيازات القنصلية في بلاد الدولة العلية وفتح رودس والمشرع في فتحها عرض على رئيس الرهبان الموجود بها أن

يهاجر مع المسيحيين الذين يريدون المهاجرة فأبى ظانا أنه يستطيع المدافعة فارسل السلطان لمحاصرتها فدافع الرهبان عنها بقدر استطاعتهم حتى كانت تساعدهم النساء والصغار بالقاء الأحجار وصب الزيوت الحارة على رءوس المحاصرين ولم يجد هذا كله نفعا فاضطر رئيسهم (روبيل آدم) إلى تركها وكان ذلك سنة ٩٢٩ ﻫ وقابل السلطان فاحترمه وأكرمه واجتهد (فرنسو الأول) ملك فرنسا فى محالفة الدولة ليستنجد بها على شارلكان ملك اسبانيا والنمسا (وهولندة) وألمانيا وغيرها وبعث رسولا من قبله فى ذلك إلى السلطان فحظى بمقابلته فى ٦ ديسمبر سنة ١٥٢٥ م وعرض الأمر عليه فوعده بالمساعدة وكتب بذلك كتابا إلى ملك فرنسا ووفاه بوعده الذى وعده به وقد حارب المجر وهزمهم شر هزيمة وقتل ملكهم وأرسل أهل بودا (مدينة قديمة على الطونة تجاه مدينة بست وتبعد عن مدينة ديانة نحو مائتى كيلو متر وهى معتبرة تخت المجر مع انضمامها فى العموميات إلى أمبراطورية النمسا ولذلك يلقب امبراطور النمسا بملك المجر) مفاتيح مدينتهم فدخلها السلطان فى ذى الحجة سنة ٩٣٢ ﻫ ثم عاد منها بعد أن عين عليها ملكا وهو (جان زابولى) ملك ترنسلفانيا ثم بعد ذلك سار ملك النمسا لمحاربة زابولى طمعا فى ملكه فاستغاث بالسلطان فأغاثه وزحف على بودا وكان ملك النمسا قد احتلها ففر منها الى فينا وسلمت جنوده المدينة بلاقتال ولانزال وبعد استقرار زابولى وتوطيد ملكه استصحبه السلطان إلى فينا ليفتحها وترك حامية من جنوده فى بودا فحاصرهم وهدم جزءا عظيما من أسوارها بمدافعه إلا أن الجنود العثمانية قد اشتد عليها البرد ونفد زادها فخاف عليها الهلاك فكر راجعا مارا ببودا وبلجراد ثم عاد لفتحها مرة ثانية سنة ١٥٣١ م ومعه ٢٠٠٠٠٠ مقاتل إلا أنه لم يتمكن من فتحها كذلك لأنه رجع عنها لما بلغه استعداد شارلكان وخاف قرب الشتاء . وبينما هو كذلك إذ أقبلت سفن

رشالكان والبابا لمحاربته فاحتل أميرها (أندره دوريا) ثغرى كورون وبتراس فى موره .

وطلب فرد يناند ملك النمسا الصلح فأبى السلطان إلا المهادنة مؤقتا حتى إذا سلمت إليه مدينة (جران) جعلت المهادنة صلحا ثم بعد ذلك عقدت معاهدة الصلح فى ٢٢ يونيو سنة ١٥٣٣ م على ألا يرد العثمانيون شيئا مما أخذوه من المجر وأن ما تتفق النمسا عليه مع المجر لايعتد به إلا اذا صدق عليه السلطان وانحاز فى عهده شريف بك حان إلى مملكة العجم فبعث إليها جيشا ففتح تبريز فى أول المحرم سنة ٩٤١ ﻫ وأبقى حامية ووافاها السلطان فخضع له مظفرخان وكثير من أمراء الفرس ثم احتل بغداد بعد فرار حاكمها وعاد بعد ذلك إلى الإستانة فدخلها فى ١٤ رجب سنة ٩٤٢ ﻫ

وفى شعبان سنة ٩٤٢ ﻫ أبرمت معاهدة بين الدولة العلية وبين فرنسا بمنح النزلاء الفرنسيين بعض الامتيازات وهذه المعاهدة هى التى كانت سببا لتداخل الفرنسيين ودول أوربا فى شؤون الدولة العلية ولاسيما فى العهد الأخير وتوسل أهالى تونس بالسلطان ليخلصهم من مظالم ملوك بنى حفص حكامهم فأصدر أمره لخير الدين باشا بالتوجه إلى تونس فى سنة ١٥٣٥ فتوجه إليها فاحتلها وعزل سلطانها المسمى مولاى حسن آخر سلالة بنى حفص وولى مكانه أخاه حسن الرشيد وبعد عودة خير الدين باشا أنفذه السلطان لغزو البنادقة فى ألف سفينة ففتح جزائر بحر الروم ومنها جزيرة كريد وأراد السلطان الاستيلاء على إيطاليا فأغار عليها شرقا بينما كان خير الدين باشا يهاجمها جنوبا وملك فرنسا غربا ولكن لم يتم هذا المشروع لتهادن فرنسا بعد ذلك مع شارلكان وفى سنة ١٥٤٠ م مات زابولى ملك المجر فحاصر النمساويون (بودا) فلما بلغ السلطان ذلك قصد بنفسه بلاد المجر فبمجرد وصوله رفع النمساويون الحصار عنها واحتلها

الانكشارية ثم دخلها السلطان وجعل المجر ولاية عثمانية وبعد انقضاء الهدنة بين فرنسو وشارلكان استنجد فرنسو بالسلطان سليمان فتردد أولا فى قبول ذلك ثم رضى به لإلحاح السفير عليه فزحف بجنوده على المجر من جهة وأنفذ خير الدين باشا بسفنه الحربية إلى مرسيليا من جهة أخرى بعد أن غزا فى طريقه جزيرة صقلية وسار منها مع السفن الفرنسية إلى ثغر نيس ففتحها فى جمادى الأولى سنة ٩٥٠ هـ ثم رفض فرنسو معاهدة العثمانيين له وأبرم مع شارلكان معاهدة كريسي سنة ١٥٤٤ م فعاد خير الدين باشا وأدركته الوفاة سنة ٩٥٣ هـ وبعد حروب طويلة ومفاوضات شتى بين الدولة والنمسا قد تم الصلح بينهما بشرط أن تدفع النمسا جزية سنوية للدولة العلية وتبقى المجر لابن زابولى بوصاية أمه وتحت رعاية الدولة العثمانية وفى سنة ١٥٣٧ م استغاث بالسلطان سليمان بعض أمراء الهند وطلبوا منه أن ينصرهم على البرتغاليين الذين احتلوا ثغورها فأجابهم وأمر والى مصر بتجهيز الجنود والسفن من السويس لفتح عدن واليمن فجهزت وفتحت عدن ومسقط وأخذت حصون البرتغاليين وأبرمت معاهدة سنة ١٥٥٣ م بين الدولة العلية وبين هنرى الثانى ملك فرنسا ابن فرنسو الأول لغزو قرسقه فسارت سفن الدولتين إليها وفتحتها وحصلت منازعة بين العمارتين فعادت سفن العثمانيين للاستانة وأرسل السلطان مائتى سفينة حربية لفتح مالطة فاستمر حصارها أربعة أشهر ثم فكوا حصارها

ولايته على مصر

كان الوالى عليها عند تولية خاير بك الذى كان واليا من قبل والده السلطان سليم وبقى بعده بسنتين كما تقدم ولما توفى أرسل بدله مصطفى باشا سنة ٩٢٦ هـ وبعد عشرة أشهر استبدله بأحمد باشا الذى خلع طاعته وأعلن استقلاله وضرب النقود باسمه وبالغ فى الفسق حتى قتل وأقيم بدله قاسم باشا فمكث تسعة أشهر

وأياما واستبدل بابراهيم باشا وكان محبا للخير والإصلاح إلا أنه لم يلبث إلامدة يسيرة واستبدل بسليمان باشا سنة ٩٣٣ ﻫ وبقى هـذا واليا عليها تسع سنين وأحد عشر شهرا

وفى سنة ٩٤١ ﻫ طلب الى الاستانة ليكون رئيسا لحملة أعدت لمقاتلة بلاد فارس والهند فأناب عنه مدة تغيبه خسرو باشا فمكث سنة وعشرة أشهر وعاد سليمان باشا ومكث سنة وخمسة أشهر ثم عهدت ولاية مصر الى داود سنة ٩٤٥ ﻫ فمكث احدى عشرة سنة وثمانية أشهر وتوفى بها سنة ٩٥٦ ﻫ وكان محبا للعلم والعلماء مغرما بجمع المؤلفات العربية فجمع مكتبة ثمينة وكانت مصر فى أيامه على أحسن مايرام ثم تولى بعده على باشا فمكث أربع سنين ونصف وكان مغرما بترميم المبانى العتيقة فرمم منها عدة مواضع بمصر ورشيد وفوة وفى سنة ٩٦١ ﻫ تولى محمد باشا لحكم ثلاثة سنين ثم عزل وقتل بعد ذلك بالاستانة سنة ٩٦٣ ﻫ ، وتولى بعده اسكندر باشا فمكث ثلاث سنين وأربعة أشهر وتولى بعده على باشا الخادم سنة ٩٦٨ ﻫ فمكث نحو سنة وأربعة أشهر ثم تولى بعده على باشا الصوفى مدة سنتين وثلاثة أشهر وكان متساهلا فى الأمور غير ملتفت فكثرت فى أيامه الاضطرابات والتعدى والسلب والنهب فاستبدل بمحمود باشا فى شوال سنة ٩٧٣ ﻫ وهو آخر ولاة السلطان على مصر وكان جبارا عنيدا كثير الظلم فكرهه الناس ثم اضطروا لقتله بعد ذلك كما سيأتى .

وفى مدته قد أشتد على السلطان مرضه فتوفى فى ٢٠ صفر سنة ٩٧٤ﻫ .

الحادى عشر السلطان سليم الثانى

(٩٧٤ — ٩٨٢ ﻫ)

ولى الملك بعد أبيه ولكنه لم تكن متوفرة فيه الصفات التى تؤهله لتوسيع نطاق مملكته أو حفظها من التشتت الذى كان يخشى عليها منه فى زمنه لولا أن

الله قد قيض لها وزيرا محمد باشا الصقلى الذى اجتهد فى عقد معاهدة مع النمسا أن تدفع الجزية المقررة فى المعاهدات السابقة وتعترف بتبعية ترنسلفانيا والافلاق والبغدان للدولة وأن تبقى الروابط القديمة على حالها وصارت بولونيا تحت حماية الدولة وزادت الامتيازات القنصلية لفرنسا فأرسلت البعثات الدينية الى الولايات التى بها مسيحيون لتربية أولادهم ونشأتهم على محبتها وكان ذلك من أهم أسباب ضعف الدولة بعد ذلك وأبى السلطان أن يوزع الهدايا التى كانت توزع على الجنود فنشأ من ذلك تمردهم وتحقيرهم لضباطهم وتساهلهم فى اتباع الأوامر وعدم إخلاصهم فى الخدمة فاضطر لاجابة مطالبهم حتى استقاموا وأخلصوا وأخضع بلاد اليمن وأخرج منها البرتغاليين وفتح جزيرة قبرص (وهى جزيرة صغيرة مهمة بالنسبة لموقعها الجغرافى بالقرب من سواحل الشام ومصر واحتلالها ضرورى لمن يريد بقاء هاتين الولايتين فى حوزته) التى كانت تابعة للبنادقة فى ربيع الأول سنة ٩٧٩ هـ وبقيت تابعة للدولة حتى احتلتها الانجليز سنة ١٨٧٨ م وغزت البحرية العثمانية جزيرة وزنطه (إحدى جزائر الروم الموجودة غرب اليونان ولا تبعد عن ساحل مورة إلا بنحو عشرين كيلو متر وهى جيدة الهواء كثيرة الفواكه) واحتلت مدينتى دلسنيو وأنتبارى (هما بلدتان باقليم الجبل الأسود والثانية منهما على البحر الأدريانيكى وأضيفتا إلى إمارة الجبل الأسود بمقتضى معاهدة برلين الشهيرة) فاتحد البنادقة والاسبانيول وألبانيا على محاربة العثمانيين بحرا وكان عدد سفنهم ٢٣١ سفينة فقابلتها السفن العثمانية التى لم تزد عن ٢٠٠ سفينة بالقرب من ليبانتة فدافعت دفاعا عظيما وكان ذلك فى ١٧ جمادى الأول سنة ٩٧٩ هـ وانجلت الواقعة عن انهزام العثمانيين وقتل منهم نحو عشرين ألف فى مقابلة عشرة آلاف من غيرهم ومع ذلك فان هذه الواقعة الشديدة لم تقعد العثمانيين وتضعف قوتهم بل انهم جهزوا ٢٥٠ سفينة خشيت جمهورية البنادقة سطوتها

وقوتها فاضطرت للصلح الذى انتهى بتنازلها عن قبرص ودفعها غرامة حربيه
فى سنة ١٥٧٤م عصى حاكم البغدان فحورب وضرب عنقه ورأى السلطان تمردا
من أصحاب تونس بتعويلهم على الاسبانيول فأرسل اليهم سفنه البحرية فلم يغن
الاسبانيول عنهم شيئا ودخلت تلك البلاد فى سلك الولايات العثمانية كدخول
الجزائر وطرابلس

ولاته على مصر

كان الوالى على مصر عند توليته محمود باشا الذى كان واليا من قبل أبيه
وقتل لجوره وظلمه سنة ٩٨٥ ﻫ فلما بلغه ذلك ولى سنان باشا فبقى تسعة أشهر
وفى شوال سنة ٩٧٦ ﻫ ذهب إلى محاربة بلاد اليمن واستخلف على مصر اسكندر
باشا الجركسى ثم عاد اليها بعد سنتين وأربعة أشهر فوجدها على أحسن حال
وأتم مثال وبقى بها إلى ذى الحجة سنة ٩٨٠ ﻫ وخلفه حسين باشا فمكث نحو
سنة وتسعة أشهر وكان لين الجانب فكثرت السرقات فى أيامه وفى مدة ولايته
على مصر كانت وفاة السلطان سليم الثانى وكان ذلك فى ٢٧ شعبان سنة ٩٨٢ ﻫ
وله من العمر ٥٢ سنة وكان صالحا دينا كثير الخير إلا أنه لم يكن على جانب
عظيم من السياسة كما تقدم

الثانى عشر السلطان مراد خان الثالث

(٩٨٢ — ١٠٠٢ ﻫ)

تولى بعد وفاة أبيه وكان من الصلاح بمكان عظيم ولذلك أول عمل بدأ به
أنه أصدر أمره الكريم بمنع شرب الخمر الذى أفرط فيه الجنود فثار عليه
الانكشارية فأخضعهم وفى عهده جددت الامتيازات القنصلية والتجارية لفرنسا
والبنادقة ونالت ملكة الانجليز إيزابلا امتياز رفع سفنها العلم البريطانى حيث

كانت كل السفن ترفع فى المياه العثمانية العلم الفرنسى بمقتضى المعاهدات التى أبرمت مع السلطان سليمان الثانى وبعد توليته بسنتين أمر عامله على الجزائر بإعانة أمير فاس على عمه الثائر عليه والبرتغاليين الذين أتوا لنصر عمه فحاربهم وظهر عليهم وانتمى صاحب مراكش للدولة لما عرف فضلها وفى مدته حصلت حروب طويلة مع العجم انتهت بفتح بلاد الشركس وتنازلها عنها وعن أقاليم شروان ولورستان وأذربيجان وتبريز وقام جيش الانكشارية باحداث فتنة فشق ملك بولونيا عصا الطاعة على الدولة وحارب المجر والافلاق جيوشها وردهم أمير الافلاق إلى ماوراء نهر الطونة واستولى على مدينة نيوكوبولى فرأى السلطان أن يشغل الانكشارية بمحاربة النمسا عقابا لها على أخذها بناصر الاقوام الذين شقوا عصا الطاعة على الدولة

ولاته على مصر

لما تولى عزل عن مصر حسين باشا الذى كان واليا عليها من قبل أبيه للين الجانب وعدم القدرة على قمع اللصوص والمفسدين وولى مكانه مسيح باشا الخادم فهابه الناس وعم الأمن لما رأوه من شدته وسهره على الأمن العام وقتله كثيرا من اللصوص ومن آثاره المدرسة المسيحية بباب القرافة ومكث خمس سنين ونصفا وتولى بعده حسن باشا الخادم سنة ٩٨٨ ﻫ وبقى بها سنتين وعشرة أشهر وهو الذى ألبس فى أيامه اليهود الطراطير الحمر والمسيحيين البرانيط السود بعد ما كان قد ألبس اليهود العمائم الصفر والمسيحيين العمائم الزرق . وخلع سنة ٩٩١ ﻫ وولى مكانه ابراهيم باشا فاستقال سنة ٩٩٢ ﻫ فولى سنان باشا الدفتردار فمكث ستة أشهر وأياما وخلفه عويس باشا فمكث خمس سنين وخمسة أشهر ومات فولى أحمد باشا حافظ الخادم فى رمضان سنة ٩٩٩ ﻫ وكان حميد السيرة صاحب شفقة ورأفة محبا للعلم والعلماء وحكم بمصر أربع سنين وفى مدته كانت

وفاة السلطان مراد خان الثالث رحمه الله فى جمادى الأولى سنة ١٠٠٣ ﻫ وله من العمر خمسون سنة ودفن تجاه أيا صوفيا

الثالث عشر السلطان محمد خان الثالث

(من سنة ١٠٠٣ إلى سنة ١٠١٢)

لما تولى ترك شؤون الدولة لوزرائه فطمع فيها الطامعون وقام أمير الأفلاق وفتح عدة حصون وقلاع وهزمت جيوشه الجيوش العثمانية واستولى النمساويون على قلعة استرغون فعظمت الخطوب على الدولة فهب السلطان من نومه وتيقظ من غفلته وقبض على مقاليد الأمور بيده وخرج بنفسه الشريفة يحارب أعداءه ففتح قلعة (أرلو) التى عجز السلطان سليمان عن فتحها فى مدته وفرق جند المجر والنمسا ولم يستقر لهم قرار بل ولوا الأدبار ولجئوا إلى الفرار وكان ذلك فى ٢٦ أكتوبر سنة ١٥٢٦ م

وفى سنة ١٦٠٠ م فتح العثمانيون قلعة (كانيشا) الحصينة بالنمسا وهزموا جنود الأفلاق شر هزيمة

وفى سنة ١٦٠٤ م نقض الشاه عباس عهده واسترد الولايات التى كان قد اعترف للدولة بها وحدثت فتنة فى الأناضول سببها أن إحدى الفرق المرتزقة كانت قد ولت الأدبار فى الوقعة التى حضرها السلطان بنفسه فنفيت إلى آسيا وسميت (فرارى) تحقيراً لها فادعى رئيسها قره (يازجى) أن النبى عليه الصلاة والسلام وعده فى عالم الرؤيا بأخذ آسيا من العثمانيين وبذلك استمال البسطاء وتبعه جنده ومن على شاكلته فهم محاربا فدخل عنتاب ولم يلبث أن قبض عليه وعين بعد ذلك واليا لاماسيا عسى أن يشغله ذلك عن العصيان فجحد هذه النعمة وأوقد نار الفتنة ثانيا هو وأخوه (والى حسن) الذى كان واليا على بغداد فهاجمته الجنود العثمانية وأذاقتهم كأس العذاب فقتل (قره يازجى)

ولكنها لم تتمكن من والى حسن بل انه خاطر بنفسه ودافع مدافعة الأبطال حتى قتل قائد الجيوش على سوار طوقات وهزم ولاة ديار بكر ودمشق وحلب فرأت الدولة أن تصالحه وتكتفى شره وتنتفع بشجاعته فجعلته واليا على ولاية بوسنة فرضى بذلك وتحول اليها وحارب الافرنج هو وقومه حتى أبادهم

ولاته على مصر

لما جلس على سرير ملكه عزل حافظ باشا الخادم الذى كان واليا عليها من قبل أبيه واستبدله بقودر باشا فمكث سنة واستبدله بالسيد محمد باشا سنة ١٠٠٤ﻫ فاعتنى بالجامع الأزهر فرمم مبانيه وجعل فيه لفقراء الطلبة عدسا مطبوخا يوميا وجدد أيضا المشهد الحسينى وفى مدته حصلت ثورة عسكرية قتل فيها كثير وفى ١٧ ذى الحجة سنة ١٠٠٧ﻫ تولى ولاية مصر محمد باشا خضر فمكث ثلاث سنين واستبدل بالوزير على باشا السلحدار وفى مدته حصل بمصر قحط شديد وكثرت الوفيات وعم الخراب فازداد الرعب حتى أمر بدفن الأموات سرا ليقل الفزع والجزع وترك القاهرة واستخلف عليها بيرم بك فتوفى فانتخب الناس الأمير عثمان بك فبقى إلى أن توفى السلطان رحمه الله فى ١٢ رجب سنة ١٠١٢ ﻫ وله من العمر سبع وثلاثون سنة .

الرابع عشر السلطان أحمد خان الأول

(١٠١٢ — ١٠٢٦ ﻫ)

ولى الملك بعد وفاة أبيه وهو صغير فى الرابعة عشر وكان شجاعا مهيبا إلا أنه ولى الملك وكان واهى الأركان ضعيف البنيان فطمع فيه الطامعون شرقا وغربا ولولا أن الله بمنه وكرمه قد قيض له الوزير الجليل مراد باشا قريوجى فأهدأ الثورات وأطفأ نار الفتن وقطع أمل الطامعين وأتم حرب النمسا وفتح قلعة استرغون التى كانوا قد استردوها ثم نزلت إمارات الأردن والأفلاق

والبغدان على حكمه ففاتحته النمسا فى عقد الصلح فتم فى قرية سيتافوروك سنة ١٦٠٦ م وازدادت به الدولة بلادا ثم أرسل السلطان جيشا لمحاربة العجم فدارت الدائرة عليه فعقد صلح بين الفريقين على أن ترد الدولة العلية لشاه العجم ثلاث ولايات وتأخذ عنها خراجا سنويا ثم نقض الشاه عهده فحورب وهزم .

ولاته على مصر

لما وَلِى وَلِىّ على مصر ابراهيم باشا فلم يمكث إلا أربعة أشهر وثار عليه الجند فقتلوه فتولى مكانه مصطفى أفندى عزمى زاده فمكث شهرين وأياما واستبدل بالوزير محمد باشا الكرجى الملقب بالخادم وعند وصوله وردت الأوامر بالقبض على الثائرين فقبض على نحو مائتين من زعماء الفتنة وقتلهم وبعد سبعة أشهر استبدل بالوزير حسن باشا الدفتردار فمكث سنة ونصفا ثم عزل وأعقبه الوزير محمد باشا فى شهر صفر سنة ١٠١٦ ﻫ وشرع فى السنة الثانية من حكمه فى إبطال الضرائب غير العادلة التى كانت على القطر فعارضه الجند فى ذلك وأكثروا العدوان فجمع الصناجق وسار لردع الثائرين فطلبوا الأمان فأمنهم بشرط أن يسلموا له الرؤساء فقبلوا وسلموهم له فقتلوا وهدأ الوقت وعم الأمن فأخذ فى تنظيم البلاد وخفض المكوس والضرائب واجتهد فى إحياء الموات من الأرض ولذلك لما رجع إلى الإستانة نال مالم ينله أحد قبله من الولاة من حسن الرعاية وعظيم العناية ثم خلفه محمد باشا الصوفى فمكث نحو ثلاث سنين ونصف وولى احمد باشا الدفتدار ومكث نحو ثلاث سنين ثم توفى السلطان رحمه الله فى ٢٣ ذى القعدة سنة ١٠٢٦ ﻫ وهو وال .

الخامس عشر السلطان مصطفى خان الأول

(١٠٢٦ — ١٠٢٧ هـ)

ولى الملك بعد أخيه بوصية منه فى أواخر ذى القعدة سنة ١٠٢٦ هـ وكان زاهدا كثير العبادة غير ملتفت لأمر الملك لقضائه جميع أيامه بالحرم السلطانى وحبسه به قبل توليته فكان لا يعرف من أمره شيئا وفى مدة حكمه كادت تشب نار الحرب بين الدولة وفرنسا وسبب ذلك أن كاتب السفارة الفرنسية ساعد أحد أشراف بولونيا المسجونين بالإستانة على الفرار فسجن هو والمترجم والسفير وقامت فتن كثيرة وبعد ثلاثة أشهر من ولايته خلع باتفاق المفتى وأغا السراى والانكشارية وكان خلعه فى غرة ربيع الأول سنة ١٠٢٧ هـ. وتولى بعده ابن أخيه وكان قد استبدل بمصر أحمد باشا بمصطفى باشا السلحدار فى ١٣ صفر سنة ١٠٢٧ هـ.

السادس عشر السلطان عثمان خان الثانى

(١٠٢٧ — ١٠٣١ هـ)

ولى الملك بعد عمه فى أول ربيع الأول سنة ١٠٢٧ وهو ابن أحمد الأول وكان خبيرا بضروب السياسة جديرا بالملك ولذلك لما جلس على سرير ملكه أمر بإطلاق سفير دولة فرنسا وكاتبه والمترجم له حسما للفتن والنزاع ومجاملة للملوك وحارب العجم وهزمهم فى أول مرة واسترد منهم الولايات التى كانوا قد انتزعوها من الدولة ثم أعاد ملك الأردن على محاربة النمسا وتداخلت بولونيا فى شؤون البغدان فاعتبر السلطان هذا التدخل من أهم الأسباب لمحاربتها لجعلها فاصلا بين أملاكه وبين أملاك الروسيا فهاجمها العثمانيون ولكن طلب الانكشارية الكف عن القتال بينما كان البولونيون قد طلبوا الصلح فعقدت شروطه فى أكتوبر سنة ١٦٢٠ م وأراد السلطان الانتقام من الانكشارية

لإحجامهم عن الحرب فعلموا بذلك فعصوه وعزلوه ثم قتلوه فى ٩ رجب سنة ١٠٣١ هـ وله من العمر (١٨) سنة وأرخ وفاته بعض الأدباء بقوله :

مات سلطان البرايا   فهو فى الأخرى سعيد
قال لى الهاتف أرخ   إن عثمان شهيد

وأعادوا مكانه السلطان مصطفى الأول وصارت الدولة بأيديهم يولون من من أرادوا ويعزلون من شاءوا وكانت نتيجة ذلك إثارة الفتن ضد الدولة وضعفها ففى أثناء حصول تلك الحوادث ووصولها إلى الولاة استقلت طرابلس (وأرضروم) وسيواس وبقيت الدولة فى اضطراب (١٨) شهرا ولم تهدأ نار الفتنة إلا بتعيين على باشا صدرا أعظم الذى أشار بعزل السلطان مصطفى الأول فعزل فى ١٥ ذى القعدة سنة ١٠٣٢ هـ وبقى معزولا إلى أن توفى سنة ١٠٤٩ هـ وبعزله ولى مكانه السلطان مراد خان الرابع.

ولاة السلطان عثمان خان الثانى على مصر
وبيان من وليها مدة السلطان مصطفى بن محمد الثانية

لما ولى الملك قد بلغه الأضطراب الحاصل بمصر بسبب مصطفى باشا واليها فعزله وولى عليها جعفر باشا فاشتد فى زمنه الوباء ومات بسببه كثير من الناس ثم عزل جعفر باشا بعد أن حكم نحو نصف سنة وولى مكانه مصطفى باشا فى رمضان سنة ١٠٢٨ هـ وعزل فى رمضان سنة ١٠٢٩ هـ ثم ولى مكانه حسين باشا وفى مدته فاض النيل حتى كاد يغرق البلاد ويهلك العباد ثم عزل حسين باشا بعد أن حكم سنة وسبعة أشهر وولى بعده محمد باشا البستانى واستدعى بعد ذلك حسين باشا الى الاستانة وقبل وصوله اليها كان قد تم خلع السلطان عثمان خان الثانى ورجع الملك الى السلطان مصطفى الأول كما سبق وكان السلطان عثمان قد أرسل الى مصر قبل خلعه محمد باشا البستانى فلم يبق إلا شهرين وخمسة عشر يوما ثم

عزل وولى مكانه ابراهيم باشا السلحدار وبقى سنة ثم عزل وسافر الى الاستانة بحرا بخلاف العادة التى كانت متبعة من سفر الولاة المعزولين برا وولى بدله مصطفى باشا واستلم مهام الأعمال فى ٢٢ رمضان سنة ١٠٣٢ وفى مدته كان خلع السلطان مصطفى الأول

السابع عشر السلطان مراد خان الرابع

(١٠٣٢ — ١٠٤٩ ه)

ولى الملك رابع عشر ذى القعدة سنة ١٠٣٢ ه وكان شجاعا مقداما ثابت الجأش قوى الساعد مع حداثة سنه، فقام بتدبير الملك أحسن قيام وقمع المتمردين من الطغاة والعساكر الذين كانوا يثيرون الفتنة وقمع ثورة أباظة باشا وأعاد له ولايته بعد خضوعه ثم حارب العجم وهزمهم وفتح مدينة اريوان ثم حاصر بغداد بعد ذلك حصارا طويلا ولكن الانكشارية تذمروا من طول الحصار فاضطره ذلك الى فك الحصار عنها ورجوعه للموصل وديار بكر وفى زمنه توفى شاه العجم عباس وخلفه ابنه الملقب (مرزا شاه الفتى) فعاد أمله فى العجم فحاصر الصدر الأعظم خسرو باشا بغداد ثانيا إلا أن الجنود لم تمتثل لأوامره فتقهقر الى حلب ثم عزل إثر ذلك خسرو باشا من الصدارة وأفهم الجند أن ذلك ناتج عن مدافعته عنهم فثار الجند وطلبوا من السلطان عودته فلم يحفل بهم وأوعز بقتل خسرو باشا فقتل وعين بدله فى الصدارة بيرم محمد باشا فاستقامت الأمور وهدأت الفتنة ثم سار السلطان بنفسه إلى العجم ليسترجع كل ماكان قد فتحه السلطان سليمان الأول ففتح كثيرا من بلادهم ثم عاد الى الاستانة فبلغه عصيانهم وتغلبهم على الجيوش العثمانية فسار اليهم ثانيا بجيش عرمرم فحاصر بغداد فى الثامن من رجب سنة ١٠٤٨ ه وكان رحمه الله يشتغل بنفسه الشريفة فى أعمال الحصار مع الجنود تنشيطا لهم ولم يزل مجدا فى فتحها حتى فتحها بعد حرب عوان استمرت

نحو (٤٨) ساعة وحينئذ التجأ الشاه لطلب الصلح واستمرت المفاوضات عشرة أشهر على أن ترد إريوان للفرس وتكون بغدان للدولة وتم ذلك فى ٢١ جمادى الأولى سنة ١٠٤٩ هـ ثم توفى السلطان مراد الرابع ولم يعقب وكانت وفاته فى ١٩ شوال سنة ١٠٤٩ هـ ولم يتجاوز من العمر (٣١) ربيعا وله مآثر كثيرة منها أنه جدد باب الكعبة الشريفة وأمر بفرش الحرم الشريف بالحصر ومنع شرب الدخان وأبطل محال القهوة فى جميع ممالكه

ولاته على مصر

لما ولى أمر الملك عزل مصطفى باشا الذى كان واليا عليها بعد أن وليها ثلاثة أشهر وذلك فى ١٥ ذى الحجة سنة ١٠٤٩ هـ، وولى مكانه على باشا إلا أن الجند عارضوا فى ذلك لعدم إعطائهم ما كان يدفع لهم من العطاء عند تولية كل وال جديد فقهروه على الرجوع إلى الإستانة فاضطرت الدولة إلى إرسال مندوب عثمانى لمصر فحضر والبس مصطفى باشا الذى كان قد عزل الخلعة المرسلة إليه من السلطان وتلا عليهم (الفرمان) الوارد من السلطنة بتثبيته فى منصبه فرضى الجميع بذلك وهدأ الوقت وزالت الاضطرابات وبقى الأمر على ذلك حتى جاء ربيع الأول سنة ١٠٣٥ هـ فظهر فى مصر وباء شديد قد عم جميع أنحائها فى مدة وجيزة حتى كان شعبان من تلك السنة فأخذ يتناقص حتى تلاشى فى شهر رمضان منها وصار مصطفى باشا يأخذ مال من توفى بهذا الوباء فكثرت الشكايات وبلغ ذلك الخبر السلطان فغضب عليه وعزله وولى بيرم باشا وأمره أن يكلف مصطفى باشا بأن يدفع للناس ما أخذه ويرسله إلى الإستانة ليلاقى جزاء ما كسبت يداه فلما حضر بلغه ذلك فباع كل مايمتلك ودفع للناس ما أخذه منهم وقدم إلى الاستانة سنة ١٠٣٧ هـ فحكم عليه بالإعدام فذهب ضحية طمعه وظلمه ولم ينفعه

شىء مما أخذه وكان مافعل به عبرة للظالمين ، وبقى بيرم باشا بمصر مدة أظهر فيها من العدل والكفاءة ماخلد له جميل الذكر وبعد ذلك رجع إلى الإستانة وعين فى الوزارة المرة الثالثة وولى بدله محمد باشا وكان عادلا حازم الرأى محبا للعزلة والاعتكاف بقى بمصر نحو سنتين كان فيهما مثال العدل والشهامة وفى أثنائها أرسل فرقة من رجاله إلى اليمن لإخضاع القبائل المتمردة بأمر السلطان ورمم الكعبة وحفظها مما أصابها من تيار الماء الذى مر بمكة فى شعبان سنة ١٠٣٩ ﻫ ثم استدعى فى سنة ١٠٤٠ إلى الإستانة ودخل فى الوزارة السلطانية مكافأة له على عدله وإخلاصه وولى الوزير موسى باشا فساءت سيرته وكثرت مظالمه وامتدت أطماعه لما فى أيدى الناس فعزل وولى خليل باشا فحضر فى ربيع الأول سنة ١٠٤١ ﻫ وبعد مدة يسيرة بلغه أن عصابة من اللصوص نهبت مكة تحت رياسة أحد الأشراف فأرسل إليهم الأمير قاسم بك بجيش من قبله فقهرهم ورجع سنة ١٠٤٢ ﻫ ثم استقال فى السنة المذكورة خليل باشا فولى الوزير أحمد باشا الكرجى وكلفته الدولة بإرسال (٤٠٠٠) جندى لمساعدة العثمانيين على دروز لبنان مع (٥٠٠٠) قنطار من الخبز ومثلها من البارود ثم طلب منه أيضا نحو ذلك للمساعدة فى حرب الفرس فاعتذر إلى السلطان بأن مصر لايمكنها القيام بذلك فأرسل إليه (١٢٠٠٠) قنطار من النحاس لجعلها نقودا ويرسل بدلها ثلثمائة ألف محبوب فأجهد نفسه فى صنع ذلك ولكنه عجز عن إنجازه فى المدة المعينة فاستقر رأى النواب والقضاء أن يوزع هذا النحاس على الأهالى حسب حالتهم ويؤخذ بنسبته نقود فكان ذلك حملا ثقيلا عليهم وبعد قليل استدعى إلى الإستانة فسار إليها وولى بعــــده الوزير حسين باشا فمكث نحو سنتين وكان شديدا سفاكا للدماء فقتل كثيرا من الناس وبعد ذلك عزله وتولى محمد باشا ابن بنت السلطان سليم الثانى ولم يكن ينقص عن سلفه

شيئا فى الظلم والعسف والجبروت بل زاد عنه فى أنه أختلس أموالا كثيرة من التركات والتهم الأموال التى كانت توزع صدقات على الأرامل والأيتام وفى مدته توفى السلطان مراد خان الرابع .

الثامن عشر السلطان ابراهيم خان الأول

(١٠٤٩ — ١٠٥٨ هـ)

ولى الملك بعد وفاة السلطان مراد خان الرابع سنة ١٠٤٩ هـ وهو ابن السلطان أحمد الأول فكان ملكا مهيبا حسن المنظر والمخبر كريما ميمون الطالع فى جميع مغازيه فهابته الملوك وانحسمت الفتن وأهم ماحصل فى زمنه أنه فتح جزيرة كريد وكانت للبنادقة سنة ١٦٤٥ م وظهرت أساطيله على أساطيل البنادقه وعصت الجنود بالاستانة وسبب ذلك أن السلطان أراد الفتك بالانكشارية ليلة زفاف ابنته على ابن الصدر الأعظم لتداخلهم فى شؤون المملكة فاتفقوا على عزله وتولية ابنه محمد الرابع وتم لهم ذلك فى ١٨ رجب سنة ١٠٥٨ هـ وقامت الجنود الفرسان تطلب إعادة السلطان فخاف رؤساء الحزب الذين عزلوه أن يتم له الأمر فينتقم منهم فأسرعوا بخنقه وله من العمر ٣٤ سنة .

ولاته على مصر

لما ولى استبدل محمد باشا الذى كان واليا على مصر بمصطفى باشا البستانى فأخذ له كاتبا يدعى أحمد أفندى وفوض إليه الأمور وكان ظالما فاستبد فاضطربت الأحوال حتى ألجأت مصطفى باشا إلى الاستقالة وخلفه مقصود باشا وفى مدته حصل وباء شديد سنة ١٠٥٢ هـ وكان مبدأ ظهوره ببولاق ثم انتقل إلى القاهرة ثم سرى فى جميع أنحاء القطر واستمر إلى أواخر صفر سنة ١٠٥٣ هـ وكثرت الاضطرابات بمصر ولم تنته إلا بعزله فعزل فى أواخر ذى الحجة من السنة المذكورة وولى شعبان بك الدفتدار مؤقتا حتى يحضر الوالى الجديد من الاستانه

فولى أيوب باشا وحضر وكان حازم الرأى محبا للعدل ناشرا لواء الأمن فاستقامت الأمور فى أيامه وبقى الحال على هذا المنوال نحو سنتين ثم استقال وولى الوزير محمد باشا ولم يكن مثل سالفه فعادت الاضطرابات لما كانت عليه أولا وفى مدته توفى السلطان ابراهيم خان الأول .

التاسع عشر السلطان محمد خان الرابع

(١٠٥٨ — ١٠٩٩هـ)

ولى الملك يوم خلع أبيه فى ١٨ رجب سنة ١٠٥٨ هـ وهو حديث السن لم يتجاوز السابعة من عمره ولذلك قدعاد الاضطراب وزاد الفشل حتى اضطر حسين باشا لرفع الحصار عن قنديا وانهزمت السفن الحربية العثمانية أمام مدينة فوسيا القريبة من أزمير وثار بآسية الصغرى (قاطرجى أوعلى) و(كورجى بنى) وزحفا بأشياعهما على الاستانة وتغلبت مراكب البنادقه على سفن الدولة عند مضيق الدردنيل واحتلت تندوس ولمنوس واعترضت السفن الحاملة للمأكولات برسم الاستانة حتى غلت فيها أصناف الأغذية وظلت هكذا حتى تولى الصدارة سنة ١٠٦٧ هـ الوزير محمد باشا كوبريلى فانه أرغم أنوف الانكشارية وشنق بطريك الأروام لتداخله فى الفتنة واسترد من البنادقة مااحتلوه من الثغور والجزائر وكانت الحرب قائمة بين السويد وبولونيا فطلبت الأولى من الدولة مساعدتها على الثانية فى مقابلة الاعتراف بحمايتها عليها فامتنعت إلا أن أمير ترنسلفانيا أجاب طالب السويد مع أمير الأفلاق والبغدان فعزلته الدولة فتمرد فساقت إليه الجنود وطردته وعينت آخر مكانه وما تم لها ذلك حتى ثار أمير الأفلاق واضطهد المسلمين فقهره الوزير محمد باشا وعزله وعين أمير البغدان مكانه ثم احتل والى بودا العثمانى مدينة (جروس واردن) النمسوية فاعتبرت

النمسا هذا الحادث إعلانا للحرب عليها أما فرنسا فضعفت نفوذها حيث طرد اليسوعيون من الاستانة بمساعى انجلترا وهولنده والبروتستانيين واستأثر اليونان بخدمة بيت المقدس بعد أن كانت للكاثوليك وسببه اشتغال فرنسا بمحاربة النمسا ومساعدتها البنادقة سرا على الدفاع عن كريد وفى سنة ١٠٨٢ هـ توفى الوزير محمد باشا فخلفه ابنه احمد فتتبع خطوات أبيه فى إعادة مجد الدولة حيث أخذ بنفسه قلعة (نوهزل) النمسوية وكانت منيعة واهتزت أوربا لهذا الخبر والتمس ملك النمسا بواسطة البابا اسكندر السابع مساعدة ملك فرنسا فساعده بستة آلاف انضم اليهم ثلاثون ألفا من الألمانيين فانتصر الوزير كوبريلى عليهم فى ٨ محرم سنة ١٠٧٥ هـ إلا أنه لم يتقدم إلى الأمام وسميت هذه الواقعة بواقعة سان جوتار وبعدها بأيام أبرمت معاهدة تجعل ترنسلفانيا تحت سيادة الدولة العلية وتقسم المجر بحيث يكون للنمسا ثلاث ولايات منها وللدولة أربع مع بقاء الحصون المفتوحة فى قبضتها وفى أثناء ذلك حاولت فرنسا إعادة الصلات الودادية بينها وبين الدولة فلم تفلح حيث رفض الصدر تجديد امتيازات فرنسا ومرور بضائعها برسم الهند من مصر ومنح جمهورية جنوة امتيازات كانجلترا ولهذا ساعد الفرنسيون قنديا حتى فتحها الصدر الأعظم بنفسه فى ٢٩ ربيع الأول سنة ١٠٨٠ هـ بعد أن استمر الحصار والقتال عامين وأمضى مع البندقية معاهدة تعترف فيها بامتلاك الدولة للجزيرة ماعدا قرى سودا وقرى بوزا وسبينا لونجا

وفى سنة ١٦٧٠ م أرسل ملك فرنسا سفيرا آخر لاعادة الصلات يعززه أسطول قصد به أرهاب الدولة فرجع من مهمته كما عاد الأول وأراد لويس الرابع عشر لذلك محاربتها ولكن وزيره كولبرا استعمل دهاءه فى تسكينه وتوصل باللطف واللين إلى تجديد المعاهدات القديمة ومنها حق حماية بيت المقدس

وفى رمضان سنة ١٠٨٧ توفى الصدر الأعظم كوبريلى أحمد فخلفه قره

مصطفى زوج أخته الذى حاصر فينا سنة ١٨٦٣ م واستولى على قلاعها الأمامية ودك أسوارها وكان البابا قد استنجد بملوك النصرانية فلما كاد يتم الفتح جاء سوبيسكى ملك بولونيا وغيره فهجموا على العثمانيين فى ٢٠ رمضان سنة ١٠٩٤ هـ وهزموهم فبعث السلطان بمن أتى برأس قره مصطفى وبعد هذه الواقعة تحالفت النمسا وبولونيا والبندقية ورهبانية مالطة والبابا والروسيا على محاربة الدولة محاربة دينية ولذا سموا هذا التحالف بالمقدس فزحفت جيوش سوبيسكى على البغدان وسارت أساطيل البنادقة والبابا والرهبنة إلى سواحل اليونان فاحتل البنادقة موانيها حتى كورنثه وأثينا وأخذ النمسويون مدينة بست وحاصروا بودا وكادوا يأخذونها لولا مدافعة حاميتها ثم احتلوا نوهزل وغيرها ولما تعاقب الفشل عزل الصدر الأعظم ابراهيم باشا وعين مكانه السرعسكر سليمان الذى بادر بامداد حامية بودا التى يحاصرها تسعون ألف نمسوى ولكن الدوق دى لورين قائد هذا الجيش دخلها عنوة فى ١٣ شوال سنة ١٠٩٧ هـ وقتل حاكمها عبده باشا وكان بهذا الاستيلاء ضياعها حتى الآن . وفى ٣ شوال سنة ١٠٩٨ هـ التقى الصدر وجيشه المؤلف من ٦٠ ألف مقاتل و ٧٠ مدفعا بجنود الأعداء فانهزم وغنم هؤلاء ما كان معه من أسلحة وذخائر ولما وصلت أنباء هذا الفشل إلى الاستانة هاج الناس والعساكر وطلبوا من السلطان أن يقتل الصدر الأعظم فقتله إلا أنهم لم تخمد فتنتهم إلا بعزله وتم لهم ذلك فى ٢ محرم سنة ١٠٩٩ هـ وتوفى سنة ١١٠٤ هـ بالغا من العمر (٥٣) عاما

ولاته على مصر

فى أول سلطنه عزل محمد باشا بعد أن حكم سنتين ونصفا كان مثال الفشل والفوضى وولى مكانه أحمد باشا وبقى سنتين لم يستطع فيهما تسكين الاضطرابات والقلاقل فاضطر السلطان إلى عزله وولى الوزير عبد الرحمن

باشا وبقى بها إلى غرة شوال سنة ١٠٦٢ ﻫ ثم عزل وولى الوزير محمد باشا خضر فى ٨ محرم سنة ١٠٦٣ ﻫ وهكذا صاروا يتولون فى زمنه الواحد بعد الآخر حتى انتهت مدته ولم يعد هذا التغيير الكثير والعزل المتوالى على مصر بشىء من الفوائد فضلا عن الضرر فان الوالى من هؤلاء الولاة ما كان يجعل نصب عينيه إلا أن يحصل شيئا لنفسه قبل عزله وكانت هذه حالة غير مرضية وربما كانت أعظم أسباب الاضطرابات والقلاقل .

العشرون السلطان سليمان خان الثانى

(١٠٩٩ — ١١٠٢ ﻫ)

تولى بعد عزل أخيه فى شهر المحرم سنة ١٠٩٩ ﻫ فقام بأعباء السلطنة حق القيام حتى رفع لها بعد الانحطاط رايات وأعلاما وسكنت الأحوال وهدأت الفتن وانتظم نظام العساكر الانكشارية ثم استرد من النمسا وبين جميع البلاد التى كانوا قد أخذوها مثل مدائن نيش وودين وسمندرية وبلغراد وقذف بهم إلى الضفة الأخرى من الطونه وهزم جيش النمسا من بلاد الأردن وانتصر عامله سليم كراى خان على الروس وثوار الصرب الذين كانوا قد حاولوا فتح بلادهم وعاد المجد والسؤدد للدولة العلية وباتت بلادها آمنة مطمئنة تهابها الأعداء ثم توفى رحمه الله فى ٢٦ رمضان سنة ١١٠٢ ﻫ بالغا من العمر (٥٠) سنة ولم يعقب .

ولاته على مصر

لما جلس على سرير ملكه ولى على مصر حسن باشا السلحدار وفى أواخر سنة ١٠٩٩ ﻫ حصل بمصر بين إبراهيم بك بن ذى الفقار وبين عرب الحجاز حروب خلف جبل الجيوشى قتل فيها كثير من العرب فوقفوا بذلك فى طريق الحج فى تلك السنة وقتلوا كثير من الحجاج وقتلوا خليل كتخدا أمير الحج

فأرسل إليه خمسة سناجق بعسكرهم فلما وصلوا إلى العقبة ولى العرب الأدبار ثم عزل حسن باشا وتولى غيطاس بك ثم احمد باشا وفى ٢١ جمادى الآخرة سنة ١١٠٢ هـ مات ودفن بالقاهرة بعد أن ولى سنة ونصفا ومن مآثره ترميم جامع المؤيد بعد أن كان قد آل إلى السقوط ثم أذن السلطان بولاية على كتخدا باشا مؤقتا فتصرف ثلاثة أشهر حتى تولى على مصر على باشا وحضر فى ١٢ رمضان سنة ١١٠٢ هـ وفى ٢٦ منه توفى السلطان سليمان خان الثانى كما سبق .

الحادى والعشرون السلطان أحمد خان الثانى

(١١٠٢ — ١١٠٦ هـ)

ولى بعد أخيه سنة ١١٠٢ هـ فاستعاد حرب النمسا فكانت الحرب بينهما سجالا وحاول البنادقة استرجاع كريد فلم يستطيعوا وغنمت الدولة منهم ثغر قرابوسة ومات فى زمنه الصدر الأعظم (مصطفى باشا بن كوبريلى) أثناء قتال النمسا فكان موته خسارة على الدولة لعدم كفاءة من تولى بعده (عربه‌جى باشا) فتقوى البنادقة واستنجدوا بأساطيل البابا وبأهالى مالطة واحتلوا جزيرة صافز وأهم ماحصل بمصر فى وقته أنه فى سنة ١١٠٦ هـ لم يف النيل وهبط بسرعة فلم يرو كثيرا من الأراضى فاشتد الغلاء وكثر الفناء ولم يغير على باشا واليها ثم توفى السلطان رحمه الله فى الثانى والعشرين من جمادى الثانية سنة ١١٠٦ هـ وكانت أعماله مرضية .

الثانى والعشرون السلطان مصطفى خان الثانى

(١١٠٦ — ١١١٥ هـ)

هو ابن السلطان محمد الرابع جلس على سرير الملك بعد وفاة سابقه سنة ١١٠٦ هـ وكان رحمه الله حازم الرأى شديد البأس فهابته الأعداء وخضعت

له الجبابرة وبعد جلوسه على سرير ملكه بثلاثة أيام جند الجنود وخرج بنفسه محاربا بولونيا فهزمها وانتصر عليها عدة مرات ثم حارب الروس واضطرهم لرفع الحصار عن مدينة (آزاق) (من بلاد القرم على البحر الأسود) ثم أخذها بعد ذلك بطرس الأكبر وهو الذى أسس مدينة (بطرسبرج) وجعلها عاصمة الروس واسترد السلطان جزيرة صاقز من البنادقة وهزمهم شر هزيمة وانتهت الحرب بين الدولة العلية والنمسا والروسيا وبولونيا والبنادقة بمعاهدة (كارلوفتش) فى ٢٢ رجب ١١١٠ هـ والموافق ٢٦ يناير ١٦٩٩ م . فتخلت الدوله بمقتضى هذه المعاهدة عن المجر وترنسلفانيا للنمسا وآزاق للروسيا وبودوليا وأوكردين لبولونيا والمورة وأقليم دلماسيا للبندقية ومن هذا الوقت ظهرت سياسة المتعصب ضد الدولة لاقتسام أملاكها ثم استقال الصدر الأعظم فى شهر ربيع الأول سنة ١١١٤ هـ فعين مكانه دال طيان مصطفى باشا فلم ترق فى نظره معاهدة كارلوفتش وكان شجاعا ميالا للحرب فأراد نقض هذه المعاهدة فلم يرض السلطان فاستقال فأقاله فى شهر رمضان من تلك السنة وعين بدلا عنه فى الصدارة (رامى محمد باشا) فاقتفى أثر كوبريلى حسين فى التنظيم والتنسيق وبينما هم كذلك إذ ثارت الانكشارية وطلبوا عزل السلطان فبعث فرقة من الجنود لارجاعهم عن غيهم فانضمت اليهم وانتهى الأمر بعزله فى ٢ ربيع الآخر سنة ١١١٥ هـ وتوفى فى الثانى والعشرين من شعبان من السنة المذكورة وله من العمر أربعون سنة

ولاته على مصر

عزل على باشا الذى كان واليا عليها وورد الأمر بذلك فى ١٨ محرم سنة ١١٠٨ هـ بعد أن حكم بها أربع سنين وثلاثة أشهر وولى اسماعيل باشا وفى مدته كثر الفناء حتى عجز الناس عن حمل كثير من الأموات فما كانت تخلو

طريق منهم حتى اضطر الناس لوضع الثلاثة والأربعة فى نعش واحد ووفق الله هذا الوالى كغيره من أهل الخير لتكفين ألوف من الموتى وكثر الغلاء واشتد البلاء وبقى الأمر كذلك نحو تسعة أشهر ثم زال الشر وارتفع الضر . وفى ٢١ ربيع الأول ١١٠٩ هـ خلع الجند اسماعيل باشا بعد أن ولى سنتين وأقيم مصطفى بك قائم مقام مؤقتا حتى يحضر غيره وفى رجب من هذه السنة حضر حسين باشا واليا على مصر وطلع القلعة فى موكب حافل وبقى إلى ربيع الثانى سنة ١١١١ هـ وفيه قد عزل وتولى بدله قره محمد باشا وفى زمنه فشا أمر الفضة المغشوشة وقل وجود العملة الديوانية وإن وجدت اشتراها اليهود وقصوها وتلاعبوا بالعملة فأجتمع فريق من الناس ودخلوا الأزهر وشكوا أمرهم إلى العلماء وألزموهم بالركوب إلى الديوان فأجابوا طلبهم ورفعوا عن ذلك تقريرا إلى الوالى فأمر بعقد جمعية فى بيت حسن أغا بابطال الفضة المقصوصة واستعمال الجيد وأدار دار الضرب لضرب النقود الفضية والنحاسية بها وبقى بمصر ناشرا لواء العدل حتى خلع السلطان مصطفى خان الثانى .

الثالث والعشرون السلطان أحمد خان الثالث

(١١١٥ — ١١٤٣ هـ)

جلس بعد أخيه ١١١٥ هـ ولم يظهر للانكشارية سوءا بل أغدق عليهم النعم وصرح بقتل المفتى ولما تمكن فى عرشه انتقم منهم فقتل زعماءهم وعزل الصدر (نشانجى أحمد باشا) الذى كان وافقهم انتخبوه وعين بدله (داماد حسن باشا) فتمكنوا بعد ذلك من عزله وأعطيت الصدارة إلى (بلطه جى محمد باشا) فلما تم أمره حارب الروس بمائتى ألف جندى وحاصر القيصر بطرس الأكبر وخليلته كترينا التى رشته بما كان معها من الجواهر والحلى فرفع الحصار عنهما وأمضى القيصر معاهدة فلكزن التى تقضى عليه باخلاء مدينة آزلق فلم ترق هـــذه المعاهدة فى نظر

السلطان وعلم خيانة الصدر الأعظم فاستبعده إلى جزيرة لمنوس وعين بدله يوسف باشا فعقد مع الروس معاهدة تقضى بعدم الحرب (٢٥) سنة ولكن لم تمض مدة أشهر حتى شبت نار الحرب فتداخلت هولندة وانجلترة فى إطفائها وأبرمت معاهدة أدرنه القاضية بتنازل الروسيا عن جميع مالها من البلاد على البحر الأسود ولما ولى الصدر الأعظم على باشا داماد استرد مورا من البنادقة وأخذ جميع قراهم فى كريد فاستنجدوا بالنمسا فابلغت الباب العالى بكونه إذا لم يرد لها ما أخذه منها أعتبر رفضه إعلانا للحرب ففضلت الدولة الحرب فدارت رحاها بينهما وبعد حوادث تم الصلح بين الفريقين على أخذ النمسا مافتحته مع جزء من الصرب والأفلاق وأن تبقى شواطىء دلماسيا للبنادقة وتسمى هذه المعاهدة معاهدة پساروفتس وفى شوال سنة ١١٣٦ هـ عقدت معاهدة بين الدولة والروسيا تقضى بقسمة بلاد العجم التى طلب ملكها (طهماسب) بعد ذلك من الدولة إعادة ما أخذته من بلاده فلم تجبه فزحف عليها فرغب السلطان فى الصلح فقام الانكشارية عليه وعزلوه فى ١٥ ربيع الأول سنة ١١٤٣ هـ وبقى معزولا حتى توفى سنة ١١٤٩ هـ وفى عهده أسست دار الطباعة فى الاستانة بعد إقرار المفتى واصداره الفتوى بالطبع مشترطا عدم طبع القرآن الشريف خوفا مما عساه أن يقع فيه من التحريف ثم تولى بعد عزله ابن أخيه السلطان محمود خان الأول.

ولايته على مصر

لما استقر على سرير ملكه أخذ فى تغيير العمال فعزل محمد باشا عن مصر بعد أن وليها خمس سنين وورد أمر عزله فى شهر رجب سنة ١١١٦ هـ وكان محمود السيرة كما سبق التنبيه عليه ومن مآثره أنه أنشأ فى (قراميدان) جامعا ومأجلا للفقراء الأروام وأنشأ تجاهه مطبخا ودارا لضيافة الفقراء وفى أعلاها مكتبا لقراءة الفقراء من الأطفال إلى غير ذلك من الآثار التى تدل على علو

همته وشريف عواطفه وولى بعده محمد باشا وبقى بمصر لليوم السادس من شهر رجب سنة ١١١٨ﻫ ثم عزل وولى مكانه على باشا وفى أوائل رجب سنة ١١١٩ﻫ ورد أمر عزله وجعل ابراهيم بك قائم مقام بدله مؤقتا حتى حضر حسين باشا فى ١٣ شعبان من هذه السنة وقام بأمر مصر وفى ١٩ رمضان سنة ١١٢١ عزل وولى ابراهيم باشا القبودان وأرسل إلى حسين باشا كتابا بالنيابة عنه لحين حضوره فبقى إلى أن حضر فى ١٥ ذى الحجة من هذه السنة ، وفى ١٥ رجب سنة ١١٢٢ ﻫ عزل وولى الوزير خليل باشا وأقيم أيوب بك لحين حضوره وحضر يوم الثلاثاء العاشر من شهر شعبان من هذه السنة وفى مدته حصلت فتنة بمصر سنة ١١٢٣ ﻫ بين العسكر أقفلت فيها أسواق القاهرة وحوانيتها وأخذت المدافع تضرب ليلا ونهارا حتى هدمت كثيرا من المبانى وأهلكت كثيرا من الأرواح وسفك دم كثير من الأمراء منهم أحمد باشا الشهير بافرنج الذى اشتهرت به هذه الواقعة وعزل خليل باشا الذى أوقد نار الفتنة وولى والى باشا فحضر وطلع القلعة فى أواخر شهر رجب من هذه السنة

وفى سنة ١١٢٥ ﻫ حصل بمصر طاعون ابتدأ من القاهرة وانتشر فى أنحاء القطر وكان ابتداؤه غرة ربيع الأول منها وأخذ فى التناقص فى أواخر جمادى الآخرة وفى هذه السنة عزل والى باشا وولى مكانه عابدين باشا ولم يلبث أن عزله وولى مكانه على باشا الأزميرى ثم عزل سنة ١١٣٣ ﻫ فولى مكانه رجب باشا فقبض على على باشا وحبسه ثم خنقه وأرسل رأسه الى الباب العالى ثم عزل رجب باشا بعد ثلاثة أشهر وعشرة أيام ونزل من القلعة محقرا وحضر بعده محمد باشا البستانى فلم يمكث إلا شهرا واحدا وعزله العسكر فولى بدله عبد الله باشا الكبورلى وكان ميالا للفضل والأدب ولذلك مدحه كثير من شعراء مصر وله ديوان شعر مرتب على حروف المعجم يدل على فضله وأدبه

وأرخ مجيئه بعض الشعراء بقوله :

ولما جاء مصرا أرخوه   لقد سعدت بعبد الله مصر

وفى مدته خلع السلطان أحمد الثالث

الرابع والعشرون السلطان محمود خان الأول

(١١٤٣ — ١١٦٨ ﻫ)

هو ابن السلطان مصطفى الثانى كان محبا للسلم ناشراً لواء المعارف أتم حرب العجم بما أعاد الحدود القديمة بين الدولتين ثم حارب الروسيا والنمسا وانتصر عليهما وعقد معهما معاهدة بلغراد التى ردت للدولة العلية جهات أورسوه والأفلاق المنسوبة وقضت على الروس بهدم قلعة آزوف وعدم تسيير سفن حربية أو تجارية فى البحر الأسود وبحر آزوف وبأن ترد للدولة ما أخذته من بلادها وبقيت الحرب فى مدته واضعة أوزارها تسع سنين وكانت أيامه أيام يمن واقبال وعز واجلال ثم توفى السلطان فى السابع والعشرين من صفر سنة ١١٦٨ وله من العمر ستون سنة

ولاته على مصر

عزل عبد الله باشا فى أواخر سنة ١١٤٤ ﻫ وولى محمد باشا السلحدار وبقى إلى سنة ١١٤٦ ﻫ ثم عزل وولى الوزير عثمان باشا الحلبي وبقى سنة وخمسة أشهر ثم عزل سنة ١١٤٨ ﻫ وتولى بدله الوزير بكير باشا وبقى الى سنة ١١٤٥ ﻫ وفيها حصلت بمصر فتنة قتل فيها جماعة من الأمراء منهم محمد بك غيطاس وعلى بك وصالح بك وعثمان كتخدا مستحفظان ويوسف كتخدا وقامت الجند على الباشا وعزلوه وحضر الأمير مصطفى أغا بأمر من الدولة لضبط تركات المقتول ثم أتى أمر آخر بتوليته على مصر فوليها وبقى بها واليا إلى سنة ١١٥٢ ﻫ ثم تولى بعده سليمان باشا الشامى الشهير بابن المعظم فمكث إلى جمادى الأولى سنة ١١٥٣ ﻫ

وعزل وولى مكانه على باشا حكيم أوغلى (وهى توليته الأولى بمصر) فمكث إلى جمادى الأولى سنة ١١٥٤ ﻫ وتولى مكانه الوزير يحيي باشا فمكث إلى أن عزل فى شهر رجب سنة ١١٥٦ ﻫ فتولى بعده محمد باشا اليدكشى فاستمر فى ولاية مصر الى أن عزل سنة ١١٥٨ وتولى بعده محمد باشا راغب فمكث واليا على مصر سنتين وستة أشهر وعزله العسكر سنة ١١٦١ ﻫ لفتنة وقعت قتل فيها خليل بك أمير الحج وعلى بك الدمياطى وهرب فيها الى الصعيد ابراهيم بك غيطاس مع طائفة من السناجق وعمر بك بن على بك مع طائفة أخرى إلى الحجاز ثم تولى الوزير أحمد باشا المعروف بكوروزير فدخل مصر غرة المحرم سنة ١١٦٢ ﻫ وبقى بها واليا إلى شوال سنة ١١٦٣ ﻫ ثم عزل وولى الشريف عبد الله باشا فحضر فى رمضان سنة ١١٦٤ ومكث إلى ١١٦٦ ﻫ ثم عزل وأقيم مقامه الوزير محمد باشا أمين وحضر مريضا وتوفى بعد شهرين من حكمه فى ١٥ شوال من هذه السنة وتولى بعده الوزير مصطفى باشا وكان حضوره فى ١٣ ربيع الأول سنة ١١٦٧ ﻫ وفى مدته توفى السلطان محمود خان الأول سنة ١١٦٨ ﻫ كما سبق .

الخامس والعشرون السلطان عثمان خان الثالث

(١١٦٨ — ١١٧١ ﻫ)

جلس على سرير ملكه بعد وفاة أخيه بيومين سنة ١١٦٨ ﻫ وهو ابن السلطان مصطفى خان الثانى وكان متيقظا عادلا يطوف متنكرا ليعرف أحوال الناس ويقف على كل أمر يهمه الوقوف عليه اقتداء بعمر رضى الله عنه ولما ولى عين نشانجى على باشا رئيسا للصدارة فأكثر من المظالم وبينما السلطان يطوف متجسسا إذ سمع ذم الناس وتحدثهم بكثير من مظالمه فأمر بقتله ووضع رأسه فى إناء من الفضة أمام باب القصر وعين مكانه مصطفى باشا ولم تمض مدة حتى

استبدله براغب باشا صاحب المعارف الكثيرة والمؤلفات الشهيرة وبينما السلطان قائم على قدم وساق فى كل مايعود على رعيته بحسن الحال وسعادة الاستقبال إذ دعاه داع المنون فأجابه فى السادس عشر من شهر صفر سنة ١١٧١ ﻫ بالغا من العمر ستين سنة .

ولاته على مصر

أبقى مصطفى باشا واليا عليها إلى شهر ربيع الأول سنة ١١٦٩ ﻫ ثم عزله وولى على باشا حكيم أوغلى فحضر إلى مصر وبقى واليا إلى أن عزل سنه ١١٨١ ﻫ وفيها توفى السلطان عثمان خان الثالث .

السادس والعشرون السلطان مصطفى خان الثالث

(١١٧١ — ١١٨٧ ﻫ)

هو ابن السلطان أحمد الثالث جلس على سرير الملك سنة ١١٧١ ﻫ وكان عاقلا مدبرا محبا للاصلاح وكان وزيره الأعظم راغب باشا العالم الفاضل صاحب سفينة الراغب فاجتهد فى إصلاح الشؤون فأسس مستشفيات للحجر على الوارد من الحجز مدة الوباء وأنشأ مكتبة جليلة وسهل الطرق لتسهيل المواصلات إلى الممالك العثمانية ترويجا للتجارة وبقى باذلا جهده إلى أن توفى فى ١٤ رمضان سنة ١١٧٦ ﻫ وبعد موته نشبت الحروب بين الدولة والروسيا فاشتغل السلطان بهذه الحروب فأغفل إرسال الولاة إلى مصر وولى أمرها للمماليك بشرط أن يدفعوا خراجا للدولة فأحدث هذا الأمر اضطرابات وقلاقل وكثرت الفتن والمخاصمات بينهم فاختلطت الأمور وعم الفساد ولم تمض مدة من الزمن حتى سلط الله بعض هؤلاء الطاغين على بعض وانتقم الله لمن شاء بما شاء إلى أن ظهر بينهم رجل كان على جانب عظيم من العدل والشجاعة والفضل يسمى (على بك الكبير) فطهر مصر من هؤلاء الطاغين وقطع دابر الذين ظلموا والحمد لله رب

العالمين وهدأت البلاد وارتاحت العباد ولكن لم تمض مدة إلا وقد وشى به أعداؤه
للدولة بأنه يريد الانضمام للروسيين فأرسل السلطان بقتله ولم يلتفت لحزمه وفضله
فلما علم ذلك اضطر لأن يعلن استقلاله محافظة على حياته وقد ساعدت الظروف
على ذلك حيث أن الدولة كانت مشغولة بحرب الروسيا فاستقل سنة ١١٣٠ هـ
وحابى الأهالى بتخفيف الضرائب ومنع الأذى عنهم فأحبوه وانقادوا له ورضوا
بحكمه فخطب له وضربت الدراهم باسمه ثم أرسل مملوكه محمد أبا الذهب وجرّده
بجيش عرمرم إلى مكة لمحاربة الشريف بن سعيد فظفر به وعزله وولى مكانه
الشريف عبد الله بن حسين وأراد فتح الشام فارسل إليها محمد بك أبا الذهب
بجيش جرار فاستولى على الديار الشامية أيضا بعد قتال شديد وجهد جهيد ثم
أمره بعد ذلك أن يستولى على ماجاوره من البلاد فامتنع هو وجنوده لشدة
مالحقهم من التعب وكثرة ماحل بهم من العناء والنصب فحصل شقاق بينه وبين
على بك كانت غايته وقوع الحرب بينهما جهة الصالحية فحلت الهزيمة على جنود
على بك حيث انضم إلى مملوكه اثنان من أعاظم قواده وهما ابراهيم بك ومراد
بك وانكشفت هذه الهزيمة عن قتل كثير وعن جرح على بك الكبير فى
وجهه جرحا أسقطه عن جواده فحملوه إلى خيام محمد بك فخرج إليه وتلقاه
بالتكريم والتعظيم وقبل يده وأظهر له الأسف الشديد وأجلسه بخيمته ثم
توجه به إلى مصر وأنزله فى منزله وقام بخدمته إلا أن الجرح كان بليغا والأجل
كان قريبا فمات بعد سبعة أيام وكان ذلك سنة ١١٨٧ هـ وكان رحمه الله من
الشجاعة والعدل بمكان مع فعل الخيرات وكثرة المبرات ومن آثاره مسجد
سيدى احمد البدوى وقبته رحمه الله والشوارع وما كان بها من الحوانيت
بطنطا ووقف له أوقافا كثيرة ورتب عدة من الفقهاء والمدرسين وطلبة العلم
الشريف وجدد قبة الامام الشافعى رضى الله عنه وغير ذلك من الآثار الحميدة

والخيرات العديدة وبموته عادت مصر إلى ماكانت عليه من تبعية الدولة العلية فأخذت ترسل إليها الولاة من قبلها على الطريقة الأولى إلا أن كثرة تغيير الولاة جعل أغلبهم لايحرص إلا على مافيه الفائدة لأنفسهم فبقى الاضطراب يزداد والخطب يتعاظم يوما بعد يوم إلى أن أفضى ذلك إلى دخول الجيش الفرنسى كما سيجىء ثم توفى السلطان مصطفى فى ثامن ذى القعدة سنة ١١٨٧هـ وتولى بعده السلطان عبد الحميد خان الأول .

السابع والعشرون السلطان عبد الحميد خان الأول

(١١٨٧ — ١٢٠٢هـ)

هو ابن السلطان احمد الثالث لما تولى لم تمض مدة له حتى اجتاز جيش الروسيا نهر الطونه قاصدا وأرنه وقهر الجيش العثمانى الذى أنفذ إليه من شوملا بالقرب من قوزليجق ثم قصد عسكر الصدر الأعظم الذى طلب الصلح فأبرمت معاهدة ٢١ يوليو سنة ١٧٧٤ م بمدينة قينارجة وسميت بها تشتمل على (٢٨) مادة تتضمن اعتراف الدولة باستقلال القرم وبسارابيا وإعطاء القيصر لقب بادى شاه فى المعاهدات والمكاتبات الرسمية ومنح حرية الملاحة فى البحرين الأسود والأبيض المتوسط ودفع الدولة غرامة حربية قدرها (١٥٠٠٠) كيس ولما تم للقرم الاستقلال سعت الدولة الروسية فى الاستيلاء عليها فاوقدت فيها نار الفتن حتى تأهبت للحروب الأهلية فاحتلتها بسبعين ألف جندى ولم تلتفت لمعاهدة قينارجة فأرادت الدولة محاربتها فنصحتها فرنسا بالعدول عن ذلك فامتنعت واعترفت بضم القرم للروسيا ولم تثبط همم الروس بل حصنوا سباستبول وأنشئوا دونتمة بحرية قوية وبثوا الجواسيس لإثارة خواطر المسيحيين على الدولة وفى سنة ١٧٨٧ م طافت الامبراطورة كاترين بلاد القرم فأقام لها القائد الروسى أقواس نصر كتب عليها طريق بيزنطه يعنى الاستانة فلما علمت الدولة

بذلك أرسلت الى الروسيا بلاغا رسميا تطالب به (مفروكورداتو) حاكم الافلاق الذى التجأ اليها والتنازل عن حماية الكرج وعزل القناصل المهيجين لعواطف الأهالى وقبول قناصل عثمانيين فى البحر الأسود وتفتيش المراكب الروسية التى تمر من الاستانة فرفض السفير ذلك فأعلنت الدولة العلية الحرب وكان القائد الروسى غير مستعد له فأشار على الامبراطورة باخلاء القرم فلم تصغ له وأمرته بالمسير حالا فسار ودخل بلدة أوزى فى ٢٠ ربيع الآخر سنة ١٢٠٣ﻫ وكانت النمسا أعلنت الحرب على الدولة لمساعدة الروسيا وقصد امبراطورها يوسف الثانى أخذ بلغراد فارتد منها خائبا إلى تموار متعقبا بالعثمانيين ثم توفى السلطان بعد هذه الحوادث فى ١٢ رجب سنة ١٢٠٣ بعد أن عمر ستا وستين سنة .

ولاته على مصر

لما عادت مصر إلى الدولة بعد وفاة على بك الكبير ولى عليها الوزير ابراهيم باشا عرب كيرلى سنة ١١٨٩ ﻫ فتوفى فى ليلة النصف من شعبان من هذه السنة فولى الوزير محمد باشا القرملى الكبير وتوفى فى ذى القعدة سنة ١١٩٢ ثم تولى بعده الوزير اسماعيل باشا فوصل مصر فى شهر المحرم سنة ١١٩٣ ﻫ وفى آخر شعبان منها أتى فرمان اليه بتوليته على جدة وتولية واليها ابراهيم باشا مصر ثم أتى فرمان آخر باقراره فى مرضعه حيث قد مات ابراهيم باشا فبقى فى منصبه إلى أن عزل فى الثالث من شهر رجب سنة ١١٩٤ ﻫ وبقى إلى أن عزل ليلة النصف من شعبان سنة ١١٩٦ ﻫ ورجع الى الاستانة لتولية الصدارة العظمى وتولى بعده الوزير الشريف على باشا النصاب وبقى الى أن عزل فى نصف شعبان سنة ١١٩٧ ﻫ وولى مكانه الوزير محمد باشا السلحدار وبقى الى أن عزل فى ذى الحجة سنة ١١٩٨ ﻫ فتولى بعده الوزير محمد باشا يكن ثم عزل فى

١٦ محرم سنة ١٢٠١ هـ وخلفه الوزير عابدين باشا وعزل فى شهر رجب سنة ١٢٠٣ هـ وفيه توفى السلطان وأعقبه السلطان سليم خان الثالث

الثامن والعشرون السلطان سليم خان الثالث

(١٢٠٣ — ١٢٢٣ هـ)

هو ابن السلطان مصطفى الثالث وفى مدته اتحدت الجيوش الروسية والنمسوية على العثمانيين فظهروا عليهم واستولت الروس على مدينة بندر واحتلوا جزءا عظيما من البغدان والأفلاق ودخل النمساويون بلغراد وفتحوا الصرب وبينما هم كذلك إذ توفى يوسف الثانى امبراطور النمسا وخلفه ليوبرلد الثانى فأبرم مع الدولة معاهدة (زشتوى) التى بمقتضاها رد اليها الصرب وبلجراد وسائر فتوحاتها وبعد هذا الصلح التفتت الدولة لاصلاح شؤونها الداخلية فأنشأت كثيرا من السفن الحربية على طراز جديد وصنعت مدافع ضخمة وحسنت مدرستى البحرية والطبجية وترجمت كثيرا من المؤلفات الشهير فى الفنون العسكرية وشرعت فى تنظيم فرق الجيش بعناية رجل انجليزى قد اعتنق الدين الاسلامى فسمى انجليز مصطفى وفى سنة ١٢١٣ هـ جهزت فرنسا فى طولون جيشا مؤلفا من ٣٦٠٠٠ مقاتل وعشرة آلاف بحرى تحت قيادة نابليون بونابرت فسار تقله ثلاثين سفينة حربية و٧٢ كوروفيد وأربعمائة نقالة إلى جهة غير معلومة فوصل مالطه فى ١٠ يونيه واحتلها ثم الاسكندرية فى ١٢ يوليو فدخلها وكان ما كان مما ستبينه وفى أثناء هذه الفتن واحتلال الفرنسيين مصر عصا على باشا وإلى يانيه وهو رومى الأصل ثم عدل عن ذلك وعينته الدولة واليا على بلادة أبيروس التى هى مسقط رأسه فساعدها على إخضاع وإلى أشقودره ودلوينو اللذين عصيا الدولة ولما احتل الفرنسيون مصر وأعلنت الدوله عليهم الحرب كان من أعماله أن احتل ثغر أوترانتو وفتح مدينة بروازه

بعد أن فاز على الجنود الفرنسية فى واقعة عنيفة ولما كوفىء برتبة الروملى التى تخول لصاحبها الحق فى قيادة الجيوش بعد الصدر الأعظم عهدت إليه هذه المهمة فى محاربة المقدونيين الذين ساروا بتغرير الروسيا فزحف عليهم فى ثمانين ألف مقاتل وأخضعهم ولكنه أغتر بهذا الظفر فتحصن فى ابيروس وصار كحاكم مستقل فيها وتوالت بعد ذلك الفتن وفاز أصحابها على الجنود مراراً فأراد السلطان تجربة فرقة المنظمة فأرسل منها فرقا لم تقو عصابات الثوار على الوقوف أمامها فسر السلطان بذلك وأمر الولاة بترتيب العساكر على النظام الجديد فثار الانكشارية باتفاق مع العلماء والطلبة فطلبوا من السلطان أبطال النظام الجديد فعدل السلطان عن هذا المشروع المفيد إرضاء لهم وتسكينا للفتنة التى كان تسبب عنها قيام الصرب تطالب بالاستقلال فعرض والى أشقودرة عليهم الاستقلال الادارى مقابلة دفعهم ٦٠٠٠٠٠ فلورينو لتوزيعه على العساكر الذين أعطيت لهم الاراضى الصربية التزاما فقبل زعيمهم ولكن الباب العالى أبى إلا اخضاعهم كرها مما جر لإنتشاب الحرب بينه وبين الروسيا .

وبعد خروج فرنسا من مصر أرسل بونابرت الجنرال سيستبانى لتجديد الروابط الودية مع الدولة فتمكن من عزل أيدى الأفلاق والبغدان اللذين هما من حزب الروسيا فأرسلت الروسيا جنودها لاحتلالها بدون إعلان حرب واتحدت انجلترا معها حيث أرسلت أسطولها إلى الدردنيل وطلبت من الدولة تسليم أسطولها والدردنيل لها والتنازل عن الأفلاق والبغدان للروسيا وطرد الجنرال سيستيانى من الاستانه وإعلان الحرب على فرنسا وإلا اضطرت إلى اجتياز الدردنيل وضرب الاستانه فلم تكترث بذلك التهديد وصرحت لها باجتياز الدردنيل فاجتازته فى ١٢ ذى الحجة سنة ١٢٢١ هـ ولم يكن فى غاية التصحين لحطم سفنا عثمانية فى جاليبولى ثم وقف خارج البسفور ولما علم

السلطان بذلك طلب من السفير الفرنسى مبارحة الاستانة فقابله السفير وأكد له صدور أمر نابليون إلى جيوشه فى سواحل بحر الأدرياتيك بالسفر لمساعدة الدولة فعند ذلك اطمأن خاطره ورفض طلبات انجلترا وكان العساكر والاهالى ونزلاء الفرنسيين يواصلون الليل بالنهار فى تشييد القلاع وتسليحها بالمدافع ويشرف السلطان بنفسه على أعمالهم مع استمرار تحصين الدردنيل فأسرع الأميران بالعودة إلى البحر المتوسط بالاسطول الانجليزى خوفا من حصاره بين البوغازين ووقوعه بين نارين حاميتين وكان ذلك فى ٢٠ ذى الحجة سنة ١٢٢١ هـ ويقال إنه تحطم وقتل من رجاله ستمائة وغرقت سفينتان من سفنه وأثناء اشتعال نار الحروب بين الروسيا والدولة حدثت ثورة فى الاستانة بتحريك مفتيها والقائم مقام الصدر ضد التنظيمات الجديدة وانبث الثائرون فى الجيش فى أرجاء المدينة لقتل معضدى هذا المشروع فقتلوهم وصفوا رءوسهم فى رحبة آى ميدان ولما بلغ السلطان هذا الخبر بادر بالغاء النظام الجديد ولكن خشى الثائرون أن يعود اليه ثانيا فنادوا بعزله فى ٢١ ربيع الآخر سنة ١٢٢٢ هـ وتوفى فى الرابع فى جمادى الأولى سنة ١٢٢٣ هـ وله من العمر ثمان وأربعون سنة .

حالة مصر فى زمنه وولاته عليها
واحتلال الفرنسيين مصر وخروجهم منها

لما توفى على بك الكبير سنة ١١٨٨ هـ كما قدمناه تولى بعده شياخة البلد محمد بك أبو الذهب وحارب أهل يافا حتى تغلب عليها بعد حصارها حصارا شديدا وأسرف فى القتل حتى قتل جميع الأسرى ولم يميز بين الظالم والمظلوم واستولى على عكا وأذعنت له باقى البلاد وكان قد أرسل إلى السلطنة يطلب تقريره واليا على مصر فأجيب إلى ذلك فامتلأ فرحا وحم بدنه فمات سنة ١١٨٩ هـ

وقيل انه وجد مخنوقا بخيمته وبعد موته رجعت جيوشه الى مصر وأحضروا جثته معهم ودفنوها فى مدرسته تجاه الأزهر المعروفة للآن وكان ابراهيم بك ومراد بك اللذان كانا مملوكين لمحمد أبى بك الذهب نازعهما فى السلطة اسماعيل بك ولكنهما فازا بها فحكما مصر نحو (٢٤) سنة وأفرطا فى الظلم والعدوان ونهبا أموال الأهالى ولم يكتفيا بذلك بل انهما صارا ينهبان أموال التجار الأوربيين وكثر تشكى الأهالى وقناصل الدول للسلطان سليم الثالث فلم يكترث بذلك ولم يلتفت اليه فعند ذلك كتب قنصل فرنسا (شارمجالون) الى باريس بما هو حاصل بمصر فأرسلت حكومة فرنسا جيشا تحت رآسة الجنرال (نابليون بونابرت) الى مصر فحضر إلى الاسكندرية فى شهر محرم سنة ١٢١٣ ﻫ وتملك الفرنسيون هذه المدينة بعد مقاومة قليلة ثم قصدوا مدينة القاهرة بجيش مؤلف من ٣٤٠٠٠ مقاتل فساروا على الشاطىء الأيسر من النيل حتى وصلوا أمام هــذه المدينة بعد خمسة عشر يوما فقابلهم مراد بك بجيوشه عند الرحمانية وتغلبوا عليه فرجع القهقرى فلحقه نابليون بجنوده عند قرية انبابه بقرب الجيزة فانهزم مراد بك وفر هاربا الى جهة الصعيد ودخل الفرنسيون مدينة القاهرة فجعل بونابرت على إدارتها ديوانا مؤلفا من عشرة أشخاص من أعيان البلد ثم خرج من القاهرة لتبديد جيوش ابراهيم بك فوصل الى الصالحية وتملك عليها وفر ابراهيم بك إلى بلاد الشام فعاد بونابرت حينئذ الى القاهرة وفى أثناء عودته بلغه خبر موقعة أبى قير التى حطمت فيها العمارة الانجليزية العمارة الفرنسية برمتها .

وكان من الفرنسيين الذين حضروا إلى مصر أشخاص يزعمون أن الرسل محمدا وعيسى وموسى عليهم الصلاة والسلام كانوا جماعة عقلاء وأن الشرائع المنسوبة لهم عبارة عن قوانين وضعوها بحذقهم وفطنتهم تناسب أزمانهم ولذلك

جعلوا فى مصر وقراها الكبيرة دواوين فيها رجال يديرونها بما يناسب عقولهم وتنطبق على حال البلاد ولكنهم من لطف الله جعلوا فيها جماعة من العلماء يراجعونهم فى بعض الأشياء التى لاتنطبق على الشرع الشريف والذى دعا الناس لإتباعهم عجزهم عن مقاومتهم هذا مع أن الفرنسيين عند قدومهم كتبوا كتبا وفرقوها فى البلاد وذكروا فيها أنهم ليسوا نصارى لأنهم يعتقدون وحدة الأله والنصارى تقول بالتثليث وأنهم يعظمون محمدا ﷺ ويحترمون القرآن الكريم وأنهم لم يأتوا إلا لطرد المماليك الظلمة الذين نهبوا العباد وأضروا بالبلاد وأنهم لايتعرضون للناس فى شىء مع أنهم لما دخلوا لم يقتصروا على نهب أموال المماليك والايقاع بهم بل أنهم قتلوا كثيرا من الناس لما قامت عليهم الأهالى بسبب طلبهم غرامة على البيوت وضربوا المدينة بالمدافع من القلعة وهتكوا بعض أعراض النساء وقتلوا من علماء مصر نحو (١٣) عالما ودخلوا بخيولهم الجامع الأزهر ومكثوا فيه يوما وليلة ونهبوا مافيه من أمتعة وكتب إلى غير ذلك من الأعمال الفظيعة والأفعال القبيحة وسكن نابليون بونابرت بيت محمد بك الألفى الذى كان بالأزبكية ثم علم أن الدولة العلية سعت فى استرجاع مصر من الفرنسيين وبعثت إلى أحمد باشا الجزار والى عكا أن يرسل جيشا لاحتلال العريش فجهز حينئذ بونابرت جيشا ليس للمدافعة عن مصر فقط بل لإحتلال الشام فافتتح بعض مدنها ولكنه لم يقو على فتح عكا لمنعتها ومساعدة الأسطول الإنجليزى من البحر فعاد إلى مصر بعدما لحق جيشه العذاب الأليم فلم يلبث بعد رجوعه إلى مصر إلا وقد بلغه قدوم العساكر العثمانية إلى أبى قير ونزولها إلى البر فأسرع لملاقاتها بجيشه فهزم جيش الترك غير أنه بعد هذا النصر طلب إلى فرنسا ليصادم أخطارا أحدقت بها فسار من مصر تاركا قيادة العساكر فيها للجنرال (كليبر) أعظم قواده حزما وعقلا وشهامة فاستمال

الأهالى بحزمه وحكمته ولكنه عرف عدم إمكان إستمرار الفرنسيين على إحتلال مصر فأخذ فى المخابرة مع الصدر الأعظم يوسف باشا الذى أرسلته الدولة لإخراج الفرنسيين من مصر واتفقا على أن الجيش الفرنسى ينجلى عن مصر فى مدة ثلاثة أشهر ويحمل إلى فرنسا على مراكب تركية غير أنه لم يتم هذا الأمر لعدم قبول نواب الحكومة الانجليزية له فعاد النزاع بين الطرفين وسار كليبر لملاقاة جيش الترك فقابله بين المطرية وسرياقوس فانهزم جيش الترك غير أن طائفة منه تقدمت إلى القاهرة فظن الأهالى أن جيش الفرنسيين قد هلك فقاموا على من بالمدينة قتلا ونهبا ثم رجع كليبر وحاصر المدينة وأرغم الاهالى على التسليم وضرب عليهم غرامات ثقيلة وبعد ذلك وثب على الجنرال كليبر رجل من مجاورى الشوام اسمه سليمان الحلبى وطعنه بخنجر فى صدره فمات وأخذت جثته ألى فرنسا وانتقلت رآسة الجيش بعده للجنرال (مينو) فعقد معاهدة بالإنجلاء عن مصر فخرجوا منها فى شهر ربيع الأول سنة ١٢١٦ هـ وحمل الجيش الفرنسى إلى فرنسا على مراكب انجليزية ثم انجلى الجيش الانجليزى أيضا ودخل الوزير يوسف باشا مصر فى الشهر المذكور فكانت مدة تصرفهم فى مصر ثلاث سنين وشهرا واحدا وقبل دخول يوسف باشا مصر بأربعة أيام دخل محمد باشا الغزى الذى كان مرشحا لولايتها فعزله عنها وولاها لمحمد باشا خسرو واستمر الوزير يوسف باشا يدير أمورها إلى شهر شوال من السنة نفسها ثم رجع إلا الآستانة وبقى محمد خسرو باشا بها واستمر إلى سنة ١٢١٨ هـ فثارت فتنة بينه وبين العساكر لتأخير أرزاقهم أدت إلى عزله وتولية طاهر باشا وهذه الفتنة كانت سببا لمبدأ ظهور محمد على باشا المولود (بقوله) بالروملى لأنه كان قد حضر إلى مصر مع العساكر التى جاءت مع الوزير يوسف باشا لإخراج الفرنسيين منها . وسيأتى الكلام عليه .

التاسع والعشرون السلطان مصطفى خان الرابع

(١٢٢٢ — ١٢٢٣ هـ)

هو ابن السلطان عبد الحميد الأول لما تولى أهمل الاعتناء بتنظيم العساكر على النظام الجديد خوفا من الاضطرابات والفتن وقوى أمر الانكشارية ولما وصل خبرهم إلى انكشارية الجيش المحارب للروس قتلوا قائدهم الصدر حلمى ابراهيم باشا وأقاموا مكانه جلبي مصطفى باشا فكثر الهرج فى الجيش ولولا اشتغال الجنود الروسية فى ألمانيا بمحاربة نابليون وخذلانها أمامهم للحق العثمانيين ضرر عظيم ثم تم الصلح بين فرنسا والروسيا على أن تتوسط فرنسا بين الروسيا والباب العالى وإذا لم يقبل توسطها اتحدتا معا على أخذ أملاكه فتأخذ فرنسا البوسنه وألبانيا وايبروس واليونان ومقدونيا وتأخذ الروسيا الافلاق والبغدان وبلغاريا وترسته وفى الثالث من جمادى الأولى أبلغت المعاهدة للروسيا وتركيا فقبلتاها وأمضتا عليها فى ١٩ جمادى الثانية ولكن الروسيا أخلت بالشروط حيث أنها لم تنجل عن الافلاق والبغدان ثم حدثت فتنة فى الدولة وهى أن مصطفى باشا البيرقدار حاكم رستجق ومن أنصار السلطان سليم الثالث دبر مكيدة لعزل السلطان مصطفى الرابع فلما وقف على سرها قتل سليما ورمى جثته إلى الثائرين فاشتعلت نيران الفتنة وزاد لهيبها فعزلوا السلطان ثم قتلوه بعد ذلك كما سنبينه .

الثلاثون السلطان محمود خان الثانى

(١٢٢٣ — ١٢٢٥ هـ)

هو ابن عبد الحميد الأول ولما تم له الأمر عهد بالصدارة إلى البيرقدار وكلفه تنظيم الانكشارية وتقليدهم الاسلحة الحديثة فلما شرع فى تنفيذ ذلك

ثاروا وشقوا عصا الطاعة فى فلبه فجهز لهم ١٢٠٠٠ مقاتل من جيوشه ولم يبق معه إلا أربعة آلاف فانتهز الانكشارية هذه الفرصة وأرادوا إرجاع السلطان مصطفى فاعترضهم البيرقدار ولما خاف من فوزهم عليه قتل السلطان مصطفى فأضرموا النار فى القصر الملوكى ليضطروا البيرقدار إلى الفرار فيصلون إلى غرضهم ولكنه ثبت حتى مات محروقا وفى ذلك الوقت كان قد أتى رامز باشا أمير البحر بثلاث سفن حربية عند ممر البوسفور وألقى القنابل على الانكشارية ثم نزل مع البحرية إلى البر فى مقاتلتهم وانضم اليه عبد الرحمن باشا فقهرت الانكشارية وسارت الجنود فى اليوم التالى تقذف عليهم نارا حامية فلما أيقنوا بالهلاك أضرموا النار فى المدينة فأذعن السلطان لمطالبهم وبعد هذه الفتنة عقد الباب العالى الصلح مع انجلترا فى ٢٤ ربيع الثانى سنة ١٢٢٤ ﻫ ثم استأنف محاربة الروس إلى أن أشهر نابليون عليهم الحرب فعقدوا معه معاهدة بوخارست فى ١٦ جمادى الأولى سنة ١٢٢٧ ﻫ على أن تبقى الافلاق والبغدان للدولة وكذلك الصرب ببعض امتيازات وبذلك تفرغت لمحاربة نابليون وقهرته بعد أن أحرق مدينة موسكو ولما بلغ خبر هذه المعاهدة إلى زعماء ثورة الصرب آثروا التفانى فى الدفاع عن استقلالهم فأخضعتهم الدولة قهرا وعينت ميلوش اوبريتوفتش منهم شيخا لاحدى القرى بما تظاهر به من الولاء فعكف على إثارة الخواطر حتى إذا أقبل عيد الفصح سنة ١٨١٥ م رفع لواء العصيان وظل القتال بينه وبين الجنود عامين أذعن بعدهما على أن تدير الصرب شؤونها الداخلية بنفسها فقبل الباب العالى وعين واليا عليها مرعشلى باشا وأمره بالرفق فى معاملة أهلها وفى عهد السلطان محمود ظهرت فتنة الوهابيين ببلاد العرب فوكل الى والى مصر محمد على باشا اخضاعها واسترداد مكة والمدينة منها فتم له ذلك فى ذى القعدة

سنة ١٢٣٣ هـ وفى خلال هذه الحوادث عقد اليونانيون النية على عصيان الدولة فاغتنموا فرصة اشتغالها بمحاربة على بك والى يانيا الذى كان اعتصم بجبال ايبروس واستبد فيها لاشعال نار الثورة ولما انتهت من فتنته التى انتهت بقتله فى ٥ فبراير سنة ١٨٢٢ م كلف خورشيد باشا باخضاع اليونان فتغلبوا عليه فى أغسطس فسم نفسه ومات وكان البحرية اليونانيون أحرقوا أسطولا عثمانيا فى سافز يوم ١٨ يونيو ومات ثلاثة آلاف من رجاله ولما رأى السلطان نزول هذه الشدائد ناط بمحمد على باشا والى مصر محاربة الثوار وجعله لذلك واليا على كريد ومورة ينبوعى الثورة فعبيت العساكر المصرية فى ١٩ ذى القعدة سنة ١٢٣٩ هـ إلى رودس تحت قيادة ابراهيم باشا الذى أمر الضابط سيف (سليمان الفرنسى) بحمايتها من تعديات الثوار واحتل كريد ثم قصد مورة فنزل بجنوده فى ميناء مودون وأمد مدينة كورون التى كان يحاصرها الثوار بالرجال والذخائر وفتح مدينة نافارين بعد حصار شديد فى ٢٨ رمضان سنة ١٢٤١ هـ ثم كلاماتافتريبوتسا فيسولونجى فى ١٤ رمضان سنة ١٢٤١ هـ وبعد هذا التاريخ بعشرة شهور فتح العثمانيون أتينا بالرغم عن دفاع اللورد لوشران الذى كان عينه اليونانيون قائدا عاما لاختلافهم على تعيين واحد منهم وأثناء الاستمرار على الفتح تداخلت الدول فاضطرت الروسيا الباب العالى على امضاء معاهدة آق كرمان فى ٢٨ صفر سنة ١٢٤١ هـ التى تخول لها حق الملاحة فى البحر الأسود ومرور سفنها من البوغازين بدون تفتيش وتحتم على الدولة ألا تولى ولا تعزل حاكما على الافلاق والبغدان إلا باقرار منها وأن تعترف باستقلال الصرب مع احتلال الجنود العثمانية قلعة بلغراد وثلاث قلاع أخرى وفى ١١ ذى الحجة سنة ١٢٤٢ هـ اتفقت فرنسا والروسيا وانجلترا على إلزام

الدولة بمنح اليونان الاستقلال الادارى مقابل دفع جزية معينة فلم تعبأ بهذا الاتفاق فاجتمعت أساطيل الدول الثلاث فى نافارين وكانت بها أيضا (الدونتمتان) التركية والمصرية ولسبب واه سلطت تلك الأساطيل عليها النار حتى أحرقت سفنها عن آخرها وفى هذه السنة بعث السلطان الى كافة ولاته يخبرهم بسوء نوايا الدول نحو الدولة والاسلام وحث الناس على القتال فاشهرت الروسيا الحرب على الدولة فى ١١ شوال سنة ١٢٤٣ ﻫ وحينئذ أخلى ابراهيم باشا بلاد مورة ماعدا مودون وكورون ونافارين فانه ترك فيها ١٢٠٠ جندى واحتلت الجنود الفرنسية الجهات التى انجلى عنها وفى ٨ جمادى الأولى سنة ١٢٤٤ﻫ عقد مؤتمر فى لندرة لتقرير أحوال اليونان ودعيت الدولة اليه فرفضت فأقر المؤتمر على استقلال مورة وجزائر سكلندة وأن يحكمها أمير مسيحى تحت حماية الدول فى مقابلة دفعه للباب العالى جزية سنوية قدرها ٥٠٠٠٠٠ قرش فرفض هذا القرار وكان السلطان من قبل يشتغل بتنظيم الجيش على الطراز الجديد فاعتصب الانكشارية فرفع السلطان العلم النبوى فى صبيحة التاسع من ذى القعدة سنة ١٢٤٠ ﻫ وقصد بجنوده الطبجية ساحة آت ميدان حيث كان الثائرون مجتمعين وصب على رءوسهم نارا حامية والتجأ من نجا منهم الى الثكنات التى دمرت وصدرت الأوامر إلى كافة الولايات بتعقبهم وقتلهم حيث وجدوا والغاء فرقهم ومحو فتنهم

ولما أعلنت الروسيا الحرب على الدولة احتل جيشها عاصمة البغدان ثم بخارست قاعدة الأفلاق وأخذ ماوالاهما إلى نهر الطونه ثم شهر القيصر حصار وارنه بنفسه وسار فى جيش عرمرم لحاصر (أو سكى) استامبول ولكن اضطره إلى رفع الحصار عنها القبودان محمد عزت باشا الذى أوصل المدد

إليها بحرا بالرغم عن مراقبة السفن الروسية وكان القيصر قد يئس من فتحها لولا خيانة القائد يوسف باشا الذى سلمها للروس فى غرة ربيع الثانى سنة ١٢٤٤ﻫ ثم أخذ الروس من جهة آسيا قلعة قارص واجتازوا فى أوربا نهر الطونه فاحتلوا أدرنه ودنوا من الاستانه فاضطرت الدولة لامضاء معاهدة أدرنه فى ٢٥ ربيع الأول وهى تخول للروس حق الملاحة فى البحرين الأبيض والأسود والمرور من البوغازين بدون تفتيش وتمنح الصرب الامتيازات التى بينت فى معاهدة آق كرمان وتلزم الدولة بالتنازل للروسيا عن مصب نهر الطونه ودفع تعويض لتجار الروس ودفع خمسة ملايين جنيها انجليزيا تعويضا حربيا على عشرة أقساط سنوية ينجلى الروس بسد القسط الأول منها عن أدرنه والقسط الأخير عن ولايتى الأفلاق والبغدان وأن يهاجر منها المسلمون بعد بيع مالهم من أملاك ثابته ومنقولة فى ثمانية عشر شهرا وبعد هذا صادق السلطان على معاهدة لوندره المبرمة فى نوفمبر سنة ١٨٢٨ م القاضية باستقلال اليونان ثم تفرغ للاصلاحات الداخلية فسلح الجنود بالسلاح الحديث وألغى طائفة البكتاشية لانتصارها للانكشارية وجعل الزى الأوربى الزى الرسمى للعسكرية والملكية وأنشأ وسام الافتخار وطاف ممالك أوربا للوقوف على أحوالها وفى سنة ١٨٣٠ م استولت فرنسا على الجزائر بحجة إن الباى حسين ضرب قنصلها بمروحة فى يده وكان قد تعدى الأدب فى مجلسه فنزل جيشها فى ١٣ يونيو بالقرب من ثغر الجزائر ثم دخلها بعد مقاومة شديدة وكان الباب العالى بعث إلى الباى حسين مندوبا بايعاز من انجلترا ليأمره باجابه مطالب فرنسا فلم يمكنه الفرنسيون من الوصول اليه كل كى يتم مقصدهم من الفتح وفى سنة ١٨٣١م سير محمد على باشا والى مصر جيشا بقيادة ابراهيم باشا لمحاربة والى سوريا عبد الله باشا الجزار الذى

أبى إرجاع من هاجر من المصريين إلى الشام ففتح غزه ويافاوالقدس ونابلس ثم حاصر عكابرا بينما كان الاسطول المصرى يحاصرها بحرا فلما علم الباب العالى بذلك أوعز إلى والى حلب أن يسير لمحاربته، فلم يمهله ابراهيم باشا حتى يحضر بل قصده وانتصر عليه بالقرب من حمص ثم عاد إلى عكا ودخلها عنوة فى ٢٧ الحجة سنة ١٢٤٧ ﻫ وبعث بالجزار أسيرا إلى مصر وعندئذ جهزت الدولة ستين ألف مقاتل وساروا إلى الشام فانتصر المصريون على مقدمتهم ودخلوا حلب فى ١٨ صفر سنة ١٢٤٨ ﻫ فتحصن قائدهم حسين باشا ببقية الجيش فى مضايق طوروس فلحقه فيها المصريون وانتصروا عليه فى غرة ربيع الأول فأنفذ السلطان جيشا ثانيا بقيادة رشيد باشا فانتصروا أيضا عليه ولما تواترت هذه الإنتصارات خشيت الدول أن يكون مطمح أنظار محمد على باشا الخلافة فأنزلت الروسا ١٥٠٠٠ جندى على الأناضول لحماية الاستانة ونصحت فرنسا وانكلترا السلطان بسرعة الاتفاق مع محمد على باشا فقبل الباب العالى وانجلت المخابرات عن إبرام معاهدة كوتاهيا فى ٥ مايو سنة ١٨٣٣م القاضية بأخلاء المصريين الأناضول إلى ماوراء جبال طرروس واعطاء محمد على باشا مصر مدة حياته وولايات عكا وطرابلس وحلب ودمشق وولاية كريدواعطاء ابنه ابراهيم باشا ولاية أطنه . وفى ٨ يونيو عقدت الدولة معاهدة هجومية دفاعية مع الروسيا ضد المصريين وسميت معاهدة (خونكار اسكلة سى) وقد عقدت هاتان المعاهدتان مع اعتقاد الفريقين بأن لابد من الحرب ثانيا ولذا جاهر محمد على باشا برغبته فى أن تكون له ولأولاده من بعده ولاية مصر والشام فرفض الباب العالى وأوعز الى السر عسكر حافظ باشا بالتقدم إلى الشام فالتقى بالمصريين فى نصيبين فى الحادى عشر من ربيع الثانى سنة ١٢٥٥ﻫ فتقهقر العثمانيون تاركين

١٦٦ مدفعا و٢٠ ألف بندقية ولم يصل خبر هذه الواقعة إلى السلطان محمود لوفاته فى ١٩ ربيع الثانى سنة ١٢٥٥ هـ.

الحادى والثلاثون السلطان عبد المجيد خان

(١٢٥٥ — ١٢٧٧)

تولى الأمر بعد أبيه سنة ١٢٥٥ هـ وكانت الأحوال مضطربة بسبب انتصارات محمد على باشا وتسليم أحمد باشا قبودان الدونتمة العثمانية كافة مرا كبها له فى الأسكندرية فى الثانى من جمادى الأولى سنة ١٢٥٥ هـ فخشيت الدول أن تحارب الروسيا الجيش المصرى بمقتضى معاهدة خونكارا سكله سى فعرضت وساطتها على الباب العالى بينه وبين محمد على باشا وتفاوض الوزراء والسفراء فقال سفير النمسا وانكلترا بارجاع الشام الى الدولة وخالفهما فى رأيهما سفير فرنسا والروسيا وانحاز سفير البروسيا الى الأول وتقرر بالأغلبية ثم اختلفت الدول فى آرائها بشأن مصر ازاء تركيا فكانت تذهب فرنسا الى وجوب بقاء فتوحات مصر تابعة لها وانجلترا الى اعادة هذه الفتوحات للباب العالى ماعدا النصف الجنوبى من الشام والروسيا الى وجوب احتلالها ماجاور الاستانة صونا لها من إغارة المصريين عليها وهكذا كل دولة ذهبت مذهبا حتى انهن لما دعين إلى الاجتماع فى لندرة لحسم هذا الخلاف لم يتفقن على شىء ورأى تيرس وزير فرنسا بعد ذلك فى مارس سنة ١٨٤٠ م أن تعزز مطالب محمد على باشا بالقوة فلما علم اللورد بالمرستون بنيته أسرع بعقد محالفة مع الروسيا وبروسيا والنمسا فى ١٥ يوليو سنة ١٨٤٠ م مقتضاها إلزام محمد على باشا برد فتوحاته للدولة مع استبقاء جنوبى الشام ماعدا عكا وإعطاء سفن الروسيا والنمسا وانجلترا حق الدخول فى البسفور لحفظ الإستانة من إغارة

الجنود المصرية وقد أبلغت هذه المعاهدة إلى محمد علي باشا فأوعز إلى سليمان باشا (الفرنساوي) بتحصين ثغور الشام وبعث بالامدادات إليه عن طريق البحر فوردت الأوامر إلى الاسطول الانجليزي بمحاصرة هذه الثغور وأخذ السفن المصرية أينما وجدت وإعلان الاهالي بما اتفقت الدول الأربع عليه ثم تقابل قناصل هذه الدول بمحمد علي باشا وعرضوا عليه أن تكون مصر له ولورثته وعكا له مدة حياته وأمهلوه عشرة أيام للاجابة وأفهموه أن فرنسا لاتستطيع نجدته فلما انقضت المهلة ولم يجب أخبروه بأنه صار لاحق له إلا في مصر ثم أمهلوه عشرة أيام أخرى للاجابة فلما انقضت ولم يجب قرر الصدر الأعظم أخذ مصر والشام منه وهنا استعد المصريون للقاء أسطول الدولة المتحدة بعد يأسهم من نجدة فرنسا وفي ١١ سبتمبر سنة ١٨٤٠م أطلق هذا الأسطول قذائفه على بيروت حتى أحرق معظمها وفعل مثل ذلك بالثغور الأخرى وأنزل الجنود إلى البر فلم ير محمد علي باشا بدا من الأذعان لمطالبها ولذا أمر جيشه بالعودة إلى مصر في ديسمبر سنة ١٨٤٠م ورد الدونتمة العثمانية مقابلة اعتراف الباب العالي ببقاء مصر له ولذريته فرمان في تاريخه ٢١ القعدة سنة ١٢٥٦ وأهم ماجاء فيه من الشروط أن يحدد جيش مصر بثمانية عشر ألف مقاتل وقت السلم وألا تنشأ سفن حربية إلا بأذن سلطاني وبعد حسم المسألة المصرية على هذا المثال سعت فرنسا وانكلترا في الغاء معاهدة خونكار اسكله سي التي تخول للسفن الروسية حق المرور من بوغازي البوسفور والدردنيل فأجمعت الدول ومن ضمنها الروسيا في معاهدة ٣ يوليو سنة ١٨٤١م على الايكون لاحداهن هذا الحق وفي سنة ١٨٤٨م طمحت الأفلاق والبغدان للاستقلال فثارتا على أميريهما وأقامتا حكومة مؤقتة فأنفذت الدولة جنودها

لاخضاعهما وفعلت الروسيا كذلك واحتلت البغدان فاحتج الباب العالى على هذا الاحتلال ثم دارت المفاوضات التى انجلت عن وفاق (بلطه ليمان) الذى حفظ للدولة حق تعيين أمراء الولايتين وقضى بأن يحتلهما جيش تركى روسى مدة سبع سنوات ريثما يستتب الأمن فيهما هذا وقد كانت حراسة الأماكن المقدسة بأيدى الأرثوذكس فطالبت فرنسا بهذا الحق للكاثوليك فأجابها الباب العالى إلى هذا الطلب ولما كانت الروسيا ارثوذكسية المذهب فقد أوفدت البرنس منتشيكوف إلى دار الخلافة للمخابرة فى هذا الشأن ووقف أمام رجال الدولة موقفا يدل على أنه يريد أن ينتحل أى سبب لاحترام نار الحرب لذا بعثت فرنسا مراكبها الحربية إلى مياه اليونان فى شهر ابريل سنة ١٨٥٣ م وانتظرت المراكب الانجليزية فى مالطة ولما رفض الباب العالى طلبات منتشيكوف بعث إليه بلاغا بذلك فى ٥ مايو سنة ١٨٥٣ م فبارح الاستانة مهددا الدولة باحتلال الأفلاق والبغدان وقد حصل ذلك بالفعل فاجتاز الروس نهر البروث الفاصل بين الدولتين فى ٢ يوليو سنة ١٨٥٣ م واحتلوهما ثم أراد امبراطور النمسا حقن الدماء فاقترح عقد مؤتمر فى فينا للتوفيق بين الدولتين فعقد ولكنه انفض بدون جدوى حتى أن الدول اعتقدت سوء مقاصد الروس فحرضوا الباب العالى على مطالبتها بإخلاء الولايتين السابقتين فارسل لها بلاغا رسميا فى ٤ أكتوبر سنة ١٨٥٣ م بأن تخليهما فى مدة خمسة عشر يوما وإلا دارت رحا الحرب واحتلهما بالقوة فلم تلتفت إليه فاجتاز عمر باشا النهر المتقدم وانتصر على الجيش الروسى نصرا مبينا وفاز العثمانيون من جهة آسيا وفى آخر نوفمبر من السنة المذكورة فاجأت المراكب الروسية الاسطول العثمانى فى سينوب فدمرته وخالفت معاهدتها التى تقضى عليها بعدم إتيان أى عداء فى البحر الأسود فاتفقت فرنسا وانجلترا مع الدولة بالإستانة فى ١٤ مارس سنة

١٨٥٤ م على محاربة الروسيا وتعهدت الأولى بأرسال خمسين ألف جندى والثانية بأرسال خمسة وعشرين ألفا وكانت الدارعة فوريوس الانجليزية قد ذهبت إلى أودسا لأخذ القنصل والرعايا الانجليز رافعة علم السلم فأطلقت عليها قلاعها القذائف النارية فضربتها السفن الحربية الانجليزية والفرنسية حتى دمروها ثم أخذتا فى ضرب الثغور الروسية فأعلن القيصر الحرب فى شهر ابريل سنة ١٨٥٤ وكان فى سلستره خمسة عشر ألفا من الجنود العثمانية تحت قيادة عمر باشا وفيهم كثير من الصربيين فحاصرهم الجنرال بسكفتش بنحو ستين ألفا فلم يفلح واضطر لرفع الحصار عنهم وطارده العثمانيون وأرادوا احتلال البغدان والأفلاق من بعده ولكن كانت الجيوش النمسوية قد سبقتهم لاحتلالهما ثم اتفق قواد الدول المتحالفة على نقل ميدان القتال إلى أراضى روسيا فنقلوه اليها وفى ٢٠ سبتمبر قهر الفرنسيون الروسيين الذين فروا إلى سباستبول وفى ٢٨ منه دخل المتحالفون فى ميناء بلا كلافا وفى ١٠ اكتوبر ابتدءوا فى إطلاق النار على سباستبول التى كان الروسيون تمكنوا من تحصينها وبعد جملة وقائع توفى فى أثنائها القيصر نيقولا والقائدان الفرنسى والإنجليزى عقد مؤتمر بفينا فى شهر فبراير سنة ١٨٥٥م لايقاف تيار الحرب بشروط تتعلق بحماية مسيحى الدولة والمرور من البوغازين وتحديد القوة البحرية للروسيا فى البحر الأسود بعشرة سفن فقبلتها الروسيا بعد سقوط قلعة سباستبول فى التاسع من شهر سبتمبر سنة ١٨٥٥ وفى ٥ فبراير سنة ١٨٥٦م عقد مؤتمر باريس الذى تقرر فيه مبدأ حفظ كيان الممالك العثمانية المحروسة وما هدأت الأحوال قليلا فى أوربا حتى أثار ذوو الغايات الفتن بين المارونيين والدروز وكثر القتل والسلب فى أنحاء الشام فوصل الوزير فؤاد باشا إلى بيروت ثم قصد منها دمشق فى خمسة آلاف جندى وقبض على زعماء الفتنة وأعدمهم ولكن الدول اتفقت أثناء ذلك مع فرنسا على إرسال ستة آلاف

مقاتل لمساعدة الجيش العثمانى فوصل هذا الجيش إلى بيروت فى العاشر من شهر أغسطس ثم انتهى الأمر بانجلائه فى الخامس من شهر يونيه سنة ١٨٦١م وباعطاء جبل لبنان حكومة مستقلة تحت سيادة الباب العالى ومنح تعويض لمن أحرقت دورهم من المسيحيين ثم توفى السلطان عبدالمجيد فى سابع عشر ذى الحجة سنة ١٢٧٧ هـ وله من العمر أربعون سنة.

الثانى والثلاثون السلطان عبدالعزيز خان

(١٢٧٧ — ١٢٩٣ هـ)

هو أخو السلطان عبد المجيد السابق تولى بعد وفاة أخيه فى شهر ذى الحجة سنة ١٢٧٧هـ وقبل توليته كان نيقولا أمير الجبل الأسود قام لمساعدة ثورة الهرسك فهاجمته الجنود العثمانية فى كل جهة والتقت بداخل بلاده واضطرته للامضاء على شروط فى ٣١ أغسطس سنة ١٨٦٢م منها ألا يقيم والده فى الجبل وأن تبنى الدولة قلاعا على الطريق الموصلة من اشقودره إلى الهرسك ولكن الدول عارضت فى تنفيذها فعدلت عنها وكانت معاهدة باريس تقضى أن تكون الصرب مستقلة تحت سيادة الباب العالى وأن تكون الجنود العثمانية فى ستة من قلاعها منها قلعة بلغراد وألا يسكن المسلمون خارجا عنها فاتفق حدوث فتنة عقب قتل أحد الأهالى جنديا عثمانيا فأطلق القائد القنابل من الحصون على المدينة أربع ساعات متوالية بعد أن آوى اليها المسلمون فنتج عن ذلك تداخل الدول وقرروا جلاء العثمانيين عن قلعتين وبقاؤهم فى قلاع بلغراد وسمندرية واجبار المسلمين على بيع مايملكون والمهاجرة من البلاد فى مقابلة تعويض مالى يدفع لهم وفى أثناء ذلك ثار الكريديون بدسائس يونانية فأرسلت الدولة لقمعهم جيشا ساعده خديو مصر الأسبق بفرقة مصرية كان لها الفوز فى عدة وقائع ثم

أرسلت مندوبا لحسم المشاكل بالحسنى فلم يفلح فأرسلت القائد الشهير عمر باشا بطل القرم لتمحهم وانتهى الأمر بعقد مؤتمر باريس كانت نتيجته اصدار السلطان أمرا في ١٩ سبتمبر سنة ١٨٦٩م بمنح الجزيرة جملة امتيازات منها اسقاط سنتين من الرسوم المتأخرة عليهم واعفاؤهم من الخدمة العسكرية وفي الرابع عشر من شهر شوال سنة ١٢٧٩ ﻫ حضر السلطان إلى مصر فزار الاسكندرية والقاهرة ثم بارحها في التاسع عشر من شهر صفر قاصدا باريس بدعوة من الامبراطور نابليون لحضور معرضها العام وفي سنة ١٢٨٢ ﻫ حصرت وراثة الخديوية المصرية في ذرية المرحوم اسماعيل باشا الأسبق ثم صدر فرمان بتاريخ ١٣ ربيع آخر سنة ١٢٩٠ ﻫ بامتيازات مخصوصة بمصر وكيفية التوارث في الخديوية . وقد كان من فكر السلطان عبد العزيز محالفة الروسيا على أن تختص بجميع بلاد الشرق التي يغلب فيها العنصر المسيحي وتختص الدولة بالبلاد التي يغلب فيها المسلمون فلم يرق هذا في نظر أوربا وأوغروا عليه الصدور وأثارو عليه الفتن في الاستانة حتى أفتى شيخ الاسلام بعزله وحاصروا قصره برا وبحرا وأخذوه إلى قصر (طوب قبو) وكان ذلك في ٦ جمادى الأولى سنة ١٢٩٣ ﻫ وقد أختلفوا في أسباب وفاته فقيل فقيل أنه انتحر وقيل أنه قتل وبويع بعده السلطان مراد .

الثالث والثلاثون السلطان مراد خان

هو ابن السلطان عبد المجيد بويع له في السابع من جمادى الأولى سنة ١٢٩٣ ﻫ وكان محبا للسلم مهذب الأخلاق ولكنه عقب ولايته بأسبوع ظهرت عليه علامات الاضطراب العصبي فاستدعى له طبيب نمسوي اختصاصي بهذا المرض فأقر بعد البحث الدقيق والاختبار الطويل باستحالة برئه فاجتمع الوزراء في العاشر من شعبان وقررا البيعة لأخيه السلطان عبد الحميد خان الثاني .

الرابع والثلاثون السلطان عبد الحميد خان الثانى

(١٢٩٣ — ١٣٢٧ هـ)

جلس على سرير الملك سنة ١٢٩٣ هـ بعد عزل السلطان مراد وزينت له المدينة ثلاثة أيام اليوم الثامن عشر من شعبان منها تقلد السيف فى جامع أبى أيوب الانصارى على ماجرت به عادتهم وقام بأعباء الأمر حق القيام بهمة ونشاط وأصدر فرمانا بما فى نيته من الاصلاحات ثم أرسل جنودا إلى حدود الصرب والجبل الأسود وبوسنه وهرسك لاطفاء نار الثورة فانتصرت وهزمت العصاة شر هزيمة فتوسطت الدول فى المهادنة حتى توضع شروط الصلح وفى أثناء هذه المدة استقال الصدر الأعظم محمد رشدى باشا فعين بدله مدحت باشا وأصدر السلطان القانون الأساسى وجعل مجلسا للشورى قاصدا بذلك عمارة البلاد وراحة العباد وبعد مضى شهرين لمدحت باشا نفى بدسيسة روسية وخلفه فى الصدارة أدهم باشا وأرجىء عقد مجلس الشورى لأجل غير مسمى ووضع السفراء شروطا للصلح مع الولايات الثائرة بدون أن يشركوا معهم مندوبا عثمانيا فلم تحفل بها الدولة ورفضت بتاتا فبعث الروسيا جنودها للحدود التى بينهما وحشدت جنودا أخرى إلى حدود الأناضول وكتبت لسائر الدول التى اشتركت فى مؤتمر الاستانة أن تكاف الدولة العلية باسترجاع جنودها من مواقف القتال وترك الأهبة الحربية والقاء السلاح وتحسين أحوال الولايات الثائرة ففعلت الدول فلم يعبأ بهم وأعلنت الحرب وكان للدولة اسطولان فى البحر الأسود فاستوليا على كثير من القلاع والموانى وقطعا الطريق على سفن الروس وكان لها أسطول ثالث فى نهر الطونه فضيق عليه الأعداء بوضع النسافات فى جميع طرقه وكان لها أسطول رابع فى البحر الأبيض المتوسط

لحماية الجيش المصرى الذى كان قد أرسل لمساعدتها فكان يقيم بالجزر والشوطى. التى يخشى من ثورة أهلها هذا ما كان من أمرها فى البحر وأما وقعاتها فى البر فكانت كلها مكللة بالظفر مقرونة بالنصر فإنها قد حشدت جنودها تحت قيادة أحمد مختار باشا الذى جعلته قائدا عاما للجنود فى (ارضروم) وجعلت المشير عبد الكريم باشا قائدا عاما فى الروملى والمشير درويش باشا قائدا عاما فى باطوم وعثمان باشا قائدا فى (ودين)

وفى الخامس والعشرين من شهر ابريل سنة ١٨٧٧ م زحفت عساكر الروس الى الامام ودخلت الحدود العثمانية مستعينة بما كانت تمدها به رومانيا من الميرة والذخيرة سرا وفى ٢٧ يونيه من تلك السنة كانت جنود الأعداء قد جازت ولايتى البغدان والافلاق وعبرت نهر الطونة كل ذلك وعبدالكريم باشا لم يبد حراكا فعزل وتولى قيادة الجند (محمد على باشا الروسى) ثم سارت جنود الروس نحو البلقان واستولت على مضايقه وبعض أماكنه واحتل جانب منها مدينة (نيكوبولى) فلما رأى عثمان باشا ذلك اتخذ بلونه حصنا (وهى مركز فى ملتقى الطرق بين سواحل الطونه ومضايق جبال البلقان) فهاجمه الأعداء مرتين وكانوا أكثر عددا وأكمل عددا ومع ذلك فانهم عادوا خائبين وأمدت الدولة جيوشها بالجنود والذخائر فأضيف ذلك المدد إلى الجيش وقسم إلى ثلاثة أقسام أحدها قد بقى فى بلونه تحت قيادة عثمان باشا والثانى انتصر على جيش (باسكى زغرة) والثالث وهو الذى كان يقوده محمد على باشا الروسى هزم الأعداء شر هزيمة فى موقعة صارى نصوحا ـ فأصبح مركز الأعداء حرجا ووقعت الروس فى حيرة وعند ذلك بعثت رومانيا مائة ألف جندى لمساعدتهم فعبروا نهر الطونة وتقدم القيصر نفسه الى ساحة القتال فتقوت الروس وتقدمت عساكرهم

وتقهقرت الجنود العثمانية الى وارنه

وفى ٢٤ اكتوبر حوصرت وارنه حصارا شديدا وبقيت كذلك إلى أن اشتد الجوع على حاميتها وأشرفوا على الهلاك فأخرجهم عثمان باشا مضطرا مخاطرا بهم إما للنصر وإما للقبر وكان المحاصرون نحو ثلاثة أضعافهم فقهروهم وخرج عثمان باشا وسلم سيفه فرده اليه القيصر معجبا بشجاعته وأما الحوادث التى حصلت فى أثناء ذلك فى الأناضول فانها كانت من الأهمية بمكان كذلك فان الروسيا كانت قد استولت جنودها على مدينة أردهان وحاصرت قارص وصارت تهدد أرضروم واستولت على مدينة بايزيد وهزمت الجنود العثمانية أيضا فى موقعة (درام ضاغ) فاحتل مختار باشا مرتفعات زوين وهزم فيها الروس شر هزيمة واضطرهم لرفع الحصار عن قارص فرفعوه عنها صاغرين وتبعهم الغازى وجنوده فهزمهم شرهزيمة فاستغاثوا فجاءتهم النجدات فقاوموه ثانيا وتمكنوا من حصارها ولم يزالوا كذلك حتى استولوا عليها فالتجأ مختار باشا الى مدينة أرضروم وجمع شتات الجيش وأقام الحصون والمعاقل بسرعة عجيبة واستمر رابضا فى موضعه كالأسد الى نهاية الحرب وأظهر من البسالة وحسن التدبير ماخلد له ذكرا جميلا ولم تكتف الروس بذلك كله بل خافت أنها إذا انقطعت عن الحرب مدة الشتاء تقوى شوكة الدولة وتخمد بعض الثورات فقدموا جيوشهم الى الامام حتى جاوزوا جبال البلقان بين الثلوج المتراكمة ولم يزالوا كذلك حتى استولوا على صوفيا بعد قتال شديد وجهد جهيد وكان ذلك فى رابع شهر يناير سنة ١٨٧٨ وفى اليوم التاسع منه استولوا على شبقه ثم قاتلوا جيش سليمان باشا الذى أبلى بلاء حسنا ثلاثة أيام ولكنه لم يلبث أن تقهقر الى جبال رودوب ثم فتحوا أدرنة ودنوا من أبواب الاستانة فطلبت

الدولة هدنة للمباحثة فى الصلح فأجيبت وأبرمت معاهدة (سان استفانو) ووقعت عليها الدولتان ولكن الدول الأخرى حالوا دون تنفيذها لاسيما دولة انجلترا فاستبدلت بمعاهدة برلين الشهيرة التى أبرمت فى ١٣ يونيه من هذه السنة وهى مجحفة بحقوق الدولة إجحافا بينا ولم يمض على نفوذها شهر حتى حدثت فتنة جديدا التى أدت إلى عقد معاهدة هلية فى الخامس والعشرين من أكتوبر سنة ١٨٧٨ م وتحركت دولة اليونان وامارة الجبل الأسود يطلبان مامنحتهما معاهدة برلين فأجابتهم الدولة الى ذلك بعد مداولات كثيرة وعقب ذلك خرج الألبانيون على الدولة فأرسلت اليهم درويش باشا فتغلب عليهم ولكنهم لم يخضعوا تمام الخضوع .

وفى ٢٩ يونيه من سنة ١٨٨١ حكم على مدحت باشا بالقتل هو وثمانية من ذوى المناصب العالية بدعوى أنهم قاتلوا السلطان عبد العزيز ثم حولت هذه العقوبة الى النفى وفى سنتى ١٨٨١ . ١٨٨٢ احتج الباب العالى على احتلال فرنسا لتونس وانجلترا لمصر ومن ذلك الوقت أخذ السلطان يتودد لألمانيا للانتصار بها واستعان بضباطها على تجديد النظامات العسكرية وفى يوليو سنة ١٨٨١ حمل اسكندر باتمبرج الذى كان قد جعل أميرا على البلغار مجلس نواب الامارة المذكورة على منحه قوة تشريعية شبيهة بالمطلقة الى سبع سنوات وفى ١٨٨٩ فتح الخط الجديد الذى يصل الاستانة بالبلاد الأوربية ومنحت بعد ذلك امتيازات ميناء بيروت وبعض الخطوط الحديدية الأخرى المعروفة فى الولايات وفتح كثيرا من المدارس فى جميع الجهات واعتنى بأمر التعليم فى كل الولايات وفى سنة ١٨٩٠م حدثت المذابح الارمنية الاولى فى ولايات أرضروم وتبليس ووان وبايزيد وغيرها ثم جدد فنشأ عن ذلك أن الأرمن

المقيمين فى الاستانة اجتمعوا فى كنيستهم وسألوا بطريقهم أن يرفع شكواهم إلى جلالة السلطان بطلب عدة من الاصلاحات فأبى فضربوه وجرحوه فاستقال من منصبه ثم أن الباب العالى لم يلبث أن أجاب بعض مطالب الأرمن وفى ٩ اكتوبر سنة ١٨٩٥ عادت مذابح الأرض فى جميع الولايات الموجودين فيها فنتج عن ذلك عدة مشاكل انتهت بصدور أمر بالاصلاحات الجديدة التى قررها السفراء وفى سنة ١٨٩٦م اشتدت الثورات فى بلاد الأناضول والارمن وحوران ولم تزل المشاكل تتزايد باغراء المغرين وإفساد المفسدين ولم تقف الدول عند هذا الحد بل أنها أعطت تونس لفرنسا وألحقت إدارة الروملى الشرقية ببلغاريا وسلخت جزيرة كريد من أملاكها عقب الحرب التى حصلت بينها وبين اليونان سنة ١٨٩٧ وكان الفوز فيها لها ولا تزال تدس الدسائس فى البقية الباقية من أملاكها بقصد انتزاعها منها ومن أهم أعمال السلطان التى يسطرها له التاريخ بيد الشكر والامتنان السكة الحديدية الحجازية التى أنشأها وكان البدء فيها سنة ١٣١٧ هـ ولا يخفى مالهذه السكة من الفوائد الكثيرة والمنافع العديدة ولم يزل قائما على قدم الاجتهاد حتى خلع لعدم منحه رعاياه مجلسا نيابيا وجعلها أمة دستورية فقامت الجنود الدستورية المكونة للفيلقين الثانى والثالث تحت قيادة محمود شوكت باشا فحاصرت مدينة القسطنطينية برا وبحرا وذلك فى ١٣ إبريل سنة ١٩٠٩ ثم استولت بعد ذلك على الاستحكامات والقلاع الحربية ووضعت بعض ضباطها فى المدرعات العثمانية ولذا سلمت جنود الحرس السلطانى وبعد أيام أفتى شيخ الإسلام بخلع السلطان بحجة أنه حنث فى يمينه وبذر فى أموال الأمة إلى آخر ماجاء فى الفتوى .

وإن هذه الفتوى ليست صحيحة لأن الأمة قد أجمعت على أنه لا يجوز

خلع الخليفة إلا بالكفر والدليل على ذلك ماقاله صاحب الجوهرة المؤلفة فى التوحيد فيها .

وواجب نصب إمام عدل ‏ ‏ ‏ ‏ بالشرع فاعلم لا بحكم العقل
وأنه من ظلمه لايعزل ‏ ‏ ‏ ‏ من ملكه حتى الزمان يعذل
إلا بكفر فانبذن عهده ‏ ‏ ‏ ‏ والله يكفينا أذاه وحده

وقد وجبت طاعته بالكتاب والسنة وإنه وإن كان وجوبه وجوبا كفائيا إلا أنه من أهم الأمور ولذلك اشتغل الصحابة رضى الله عنهم بتأخير دفن النبى ﷺ ثلاثة أيام حتى اجتمع رأيهم على الخليفة وتعيينه فى الخلافة لأنه ورد أن النبى ﷺ توفى يوم الأثنين ودفن يوم الأربعاء لما تم أمر الخلافة والخليفة

أما وجوب طاعته فى الكتاب العزيز فقوله تعالى « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » وأما طاعته فى السنة فنها قوله ﷺ من أطاع أميرى فقد أطاعنى ومن عصى أميرى فقد عصانى ومنها قوله ﷺ من ولى عليكم فأطيعوه ولو كان عبدا حبشيا إلى غير ذلك من الأحاديث الدالة على مثل هذا المعنى وخصوصا أن خلع الخليفة وبال على الأمة لأنه يوجب تشتيت كلمتهم ويطمع فيهم كل طامع ويضعف كلمتها وقوتها فتصبح الأمة كالغنم بلا راع معرضة لاغتيال السباع والضباع والذئاب إلى غير ذلك مما لايمكن حصره ولايستقصى ذكره مما يحيق بالأمة من الدمار ولاحول ولاقوة إلا بالله .

عدوت على الخليفة دون حق ‏ ‏ ‏ ‏ بفتوى منك فى خلع الخليفة
فتحت بها على الإسلام شرا ‏ ‏ ‏ ‏ إذ ماصار معدوم الخليفة
وأغضبت النبى وتابعيه ‏ ‏ ‏ ‏ بمحوك للخلافة والخليفة
وكيف يكون حالك يوم حشر ‏ ‏ ‏ ‏ إذا ناداك ربك والخليفة
وقال لك النبى هدمت شرعى ‏ ‏ ‏ ‏ بمحوك للخلافة والخليفة

وهذا الذى ذكرته استطرادا إنما هو لبيان الخطأ الذى حصل فى خلع الخليفة وأداء لحق الخليفة وأن محله هو كتب التوحيد فمن أراد استيفاء الكلام فيه فعليه بحاشية الشيخ أحمد الصاوى على جوهرة التوحيد يجد فيها المقام مفصلا وأسأل الله أن يوفقنى الى السلامة من الخطأ والزلل فى القول والعمل .

وبعد خلعه تربع فى دست الملك أخوه مولانا السلطان الأعظم محمد الخامس حفظه الله وكان ما كان مما هو معلوم للخاص والعام فلا حاجة للاطالة به .

وغاية مانرجوه أن يمده الله بنصره ويعزز أمره بأمره إنه سميع مجيب .

مصر تحت رعاية الأسرة الخديوية

فى ظل الدولة العلية

المغفور له محمد على باشا الأكبر

ذلك الشهم الشهير والهمام الكبير هو رأس الأسرة الخديوية الكريمة وأصل مولده بمدينة (قوله) التابعة لولاية سلانيك بالروملى ولم يزل بها إلى أن أرسلت الدولة العلية جيشا إلى مصر تحت قيادة مصطفى باشا لإخراج الفرنسيين الذين نزلوا بها سنة ١٢١٣ ﻫ تحت قيادة (بونابرتو) وكان من ذلك الجيش الذى أرسلته الدولة ثلاثمائة جندى من قوله تحت قيادة على أغا بن حاكم قوله وحضر معه محمد على وكيلا على تلك الفرقة فسار الجيش إلى مصر ونزل بأبى قير وقامت الحرب على قدم وساق ولم تزل بين الفريقين إلى أن اتفقت الدولة مع الانجليز على إخراج الفرنسيين فأخرجوا من مصر سنة ١٢١٦ ﻫ ثم عاد الانجليز إلى بلادهم كذلك وعادت السلطة للدولة العلية فى البلاد المصرية وعينت خسرو باشا واليا عليها من قبلها وذلك فى جمادى الأولى سنة ١٢١٦ ﻫ فبقى محمد على مع خسرو باشا رئيسا على فرقة ورجع على أغا إلى قوله ولم يزل محمد على مشمرا عن ساعد الجد إلى أن صار رئيسا على فرقة كبيرة مؤلفة من أربعة آلاف جندى من الالبانيين (الارنؤد) وساسهم أحسن سياسة حتى ملك قلوبهم بحسن سياسته ثم حصلت فتنة أدت إلى قيام العساكر على خسرو باشا أهم أسبابها عدم صرفه مرتباتهم إليهم فاضطروه للخروج من مصر فتوجه إلى دمياط وتحصن بها وجعل يضرب عليها وعلى ماجاورها من البلاد الضرائب الفادحة ويكلف الناس مالا يطيقون ويذيقهم كأس الظلم والهوان فاتفق محمد على

وعثمان بك البرديسي على محاربته وتوجه إليه البرديسي وقهره وأتى به إلى القاهرة أسيرا وسجن بالقلعة وبقيت مصر بلا وال وكثر النهب والسلب في أنحاء البلاد ولما بلغ الخبر الدولة أرسلت علي باشا واليا فلم يفلح لأنه ظلم فقتل وفي ذلك الوقت كان قد استفحل أمر محمد علي باشا وجمع إليه القلوب والقوة وصار الكل واثقا فأشار عليهم بطلب خورشيد باشا الذي كان حاكما على الاسكندرية واليا على مصر فأجابوه بشرط أن يكون وكيلا له فأجاب وكتبوا للدولة فأقرت وورد الفرمان بذلك في الثاني والعشرين من محرم سنة ١٢١٩ﻫ ولم يكد يهدأ الوقت حتى ورد فرمان آخر بتولية محمد علي باشا على جدة فأظهر الامتثال والامتنان وأخذ يتأهب للسفر فاضطرب حال العسكر والأهالي لمفارقته وألح العلماء والأعيان عليه بعدم سفره لظلم خورشيد باشا وسوء معاملته للجميع.

وانتخبوه واليا عليهم وكتبوا للدولة يستصدرون أمرها بذلك فجاء الفرمان بتوليته في ربيع الأول سنة ١٢٢٠ ﻫ وسر الناس بذلك سرورا كثيرا لكن الانجليز طلبوا من الدولة عزله أو نقله إلى ولاية أخرى فأرسلت اليه فرمانا آخر بتوليته ولاية سلانيك فأجاب لكن العلماء والأعيان قد أبوا مبارحته مصر لعدله وحزمه وخوفا من إعادة حكم المماليك ثانيا وكتبوا كتابا آخر يسترحمون فيه السلطان ويستعطفونه لأجل بقائه وأرسلوه مع ابنه ابراهيم بك فحل محل القبول وحضر الفرمان النهائي بتثبيته في مصر في أواخر شوال سنة ١٢٢١ﻫ فاجتهد في ترقية حالة البلاد وعكف على ما فيه نفع البلاد ودخلت مصر به في دور تقدم جديد حيث إن الحروب المتوالية في الأزمان الغابرة والضرائب الفادحة والمظالم الكثيرة كانت قد أنهكت قواها وأضعفت شوكتها وشغلتها عن كل ما فيه صلاح لها وصارت محلا لمصائب الدهر من كل جانب حتى أن الأمراض الوبائية ما كانت تفارقها ساعة من نهار فكثر الفناء وعم الفساد

الاضطرابات كلها ما كانت تؤخره عن السهر على راحة البلاد وصنع كل مايوجب تقدمها ولما علم أن مصر فى ذلك العصر قد ضرب عليها الجهل أطنابه مع علمه أن سعادة الأمة مرتبطة بتربية أبنائها بذل قصارى جهده فى انشاء كثير من المدارس والمكاتب المنتظمة فى مصر والاسكندرية وجميع أنحاء القطر التى رأى فيها الاستعداد إلى ذلك حتى بلغت المدارس فى أيامه ثلاثا وستين مدرسة سوى المكاتب المنتظمة التى أنشأها وهذه المدارس منها إحدى عشرة عالية أو خصوصية وأثنتان تجهيزيتان وخمسون ابتدائية أما العالية والخصوصية فهى مدرسة الطب بأبى زعبل وكان رئيسها كلوت بك ومدرسة المهندسخانة ببولاق وكان رئيسها لامير بك ومدرسة الألسن ورئيسها رفاعة بك ومدرسة الزراعة بناحية نبروه ومدرسة الطب البيطرى ومدرسة الموسيقا ومدرسة المساحة ومدرسة البيادة بدمياط ومدرسة السوارى بالجيزة ومدرسة الطوبجية بطرة ومدرسة ورشة العمليات ببولاق وأما التجهيزيتان فكانت إحداهما بأبى زعبل وثانيتهما باسكندرية وأما الابتدائية فكان منها ثلاث مدارس بالقاهرة واثنتان بالاسكندرية وخمس وأربعون بالأقاليم وهذا العدد مأخوذ من التقرير الذى قدمه المرحوم مصطفى بك مختار مدير المدارس إلى المسيو مانجان وأما المكاتب التى أنشأها ونظمها فانها كثيرة يضيق المقام عن ذكرها ولم يكتف رحمه الله بتعليم الناشئين فى المدارس المصرية على نفقة الحكومة المحلية بل أنه بعث البعوث إلى أوربة ممن ظهرت عليهم علامات النجابة سواء كانوا من طلبة الأزهر أو من تلاميذ المدارس وألحقهم بأعلى معاهد التعليم وخصص كل فريق منهم بفن من الفنون كتقويم البلدان والتاريخ والآداب وعلوم التربية والعلوم الطبعية والرياضية والطب والزراعة والقوانين والحرب وفنون البحر وغير ذلك مما تحتاج إليه وبسط كفه للنفقة عليهم مع

شدة الاحتياج إلى بذل المال فى مصارف أخرى فنبغ فى زمنه رجال من أفضل الفضلاء وأنبل النبلاء .

وأنشأ محلا لضرب النقود ومصانع لعمل الأسلحة والمدافع ودارا للطبع ومحلا لعمل السفن وترميمها وقدم الصناعة والتجارة بالاكثار من السفن والمعامل لغزل ونسج الحرير والصوف والكتان والقطن ومعامل الطرابيش والجوخ ومعامل السكر ومعاصر الزيت إلى غير ذلك مما لا يكاد يحصى .

وقد اعتنى أيضا بتقدم الزراعة فادخل زراعة القطن والنيلة فى مصر وأصلح حالة الرى بحفر الترع وإقامة القناطر وإصلاح الجسور فأمر بحفر ترعة المحمودية ليصل الماء إلى مدينة الاسكندرية ويروى ما بينها وبين مدينة رشيد من البلاد والأراضى ويسهل المواصلات وأقام على فرعى النيل عند بدئهما القناطر المعروفة بالقناطر الخيرية ليحفظ الماء ويصرف عند الاحتياج إليه بطرق مضبوطة هندسية فعظمت نتيجتها وعمت فائدتها .

ورتب الجيوش وأدخل فيها النظام الأوربى وأنشأ الأساطيل البحرية وقوى الثغور المصرية حتى باتت مصر آمنة من طوارىء المعتدين وكيد الماكرين هذا فضلا عن العمارات الكثيرة التى أنشأها منها جامعه المشهور بالقلعة الذى جعل تربته فيه وتكايا بالحرمين الشريفين ورتب لها ما تحتاج إليه من النفقات وبقى مجدا فى الاعمال الخيرية والأمور المرضية إلى أن أدركه الكبر فتخلى عن الأعمال لابنه إبراهيم باشا سنة ١٢٦٤ ﻫ بعد أن حكم خمسا وأربعين سنة ثم توفى فى الثالث عشر من رمضان سنة ١٢٦٦ بالاسكندرية ونقل إلى مصر ودفن بتربته التى بمسجده بالقلعة بعد أن جاوز الثمانين وترك من الآثار ما يخلد له ذكرا جميلا على ممر الدهور وتعاقب العصور .

المغفور له إبراهيم باشا

بن محمد علي باشا

هو الثانى من الأسرة الخديوية الكريمة تولى بعد تنازل أبيه له سنة ١٢٦٤هـ وكان مولده بمدينة قوله سنة ١٢٠٤ هـ وبعد توليته سار إلى الاستانة ومنح فرمان التولية وعاد يصحبه اليمن والاقبال وكان من الشجاعة بمكان عظيم وجميع غزواته فى سورية وقرتيه وموره وغيرها تدل على ذلك وكان له إلمام بكثير من اللغات فكان يعرف الفارسية والعربية والتركية والفرنسية عالما بتاريخ البلاد الشرقية ولما ملك ساس البلاد وأراح العباد وعنى بتقدم الفلاحة فى مصر لأنها مادة حياتها ومنبع ثروتها إلا أنه لم تطل مدته بل اختطفته يد المنون بعد أن حكم نحو أحد عشر شهرا وجاوز السنين من العمر ودفن بالامام الشافعى بمدفن الأسرة الخديوية وتولى بعده ابن أخيه عباس باشا الأول .

المغفور له عباس باشا الأول

هو الثالث من الأسرة الخديوية وهو ابن طسون باشا ابن محمد على باشا تولى بعد موت عمه ابراهيم باشا سنة ١٢٦٥ هـ فسار كسير عمه بالحكمة والعدل والتبصر كما كان قد عود ذلك من صغره فعم الأمن ربوع البلاد وسهل طريق التجارة بالشروع فى إنشاء السكة الحديد بين مصر والاسكندرية ومد خطوط الأسلاك البرقية ومهد الطريق بين مصر والسويس واعتنى بتشييد المدارس الحربية بالعباسية وتشييد مساجد أهل البيت وبرازخهم ومساجد غيرهم من الأولياء والصالحين ومات فى أول حكمه جده المرحوم محمد على باشا وكانت وفاته فى ١٣ رمضان سنة ١٢٦٦ وكان رائق الفكر غير ميال للدجالين والمفسدين فنفاهم إلى السودان ونظم العساكر وسن قانون القرعة وكان شديد العزم

لاتأخذه فى الحق لومة لائم فكان يميل إلى الحق أينما كان ولو كان ذلك على نفسه أو على أكبر عظيم من عائلته وكان شديد الفراسة قوى الفكرة ولم يزل رحمه الله عاملا على مافيه الخير للبلاد حتى مات ببنها العسل ودفن بالقاهرة سنة ١٢٧٠ هـ بعد أن حكم خمس سنوات تقريبا وعمره اثنتان وأربعون سنة وهو والد المرحوم ابراهيم الهامى باشا والد والدة الجناب العالى الخديو وتولى بعده عمه سعيد باشا

المغفور له سعيد باشا

هو الرابع من هذه الأسرة الكريمة وهو محمد سعيد باشا بن محمد على باشا الأكبر تولى بعد موت ابن أخيه عباس باشا الأول سنة ١٢٧٠ هـ وكان قد تربى تربية مدرسية وتعلم كثيرا من اللغات وأحاط بكثير من العلوم الرياضية وغيرها فبدأ باصلاح الادارة وتنظيم شؤونها وكان من ذلك أنه قسم الخراج على الأطيان بطريقة عادلة واجتهد فيما يعود على البلاد بالنفع كتطهير ترعة المحمودية واتمام الخطوط الحديدية بين مصر والاسكندرية التى كان قد ابتدأ انشاؤها فى مدة سلفه وساعد على مشروع قناة السويس فأقيمت على آخرها من الشمال مدينة بور سعيد تخليداً لذكر اسمه وتذكرة لمحبته النافعة للبلاد وبذلك اتصلت أوربا بممالك الشرق الأقصى وبنى القلعة السعيدية عند القناطر الخيرية وكان له اعتناء خاص بتنظيم الجنود وكثرة الجيوش وله لوائح كلها تدل على شفقته ورحمته وكان قويا على الأقوياء له رحمة بالضعفاء مع الحزم والعقل وحسن التدبير ولم يزل قائما بالأمر خير قيام إلى ٢٧ رجب من سنة ١٢٧٩ هـ فأدركه الأجل فمات بالاسكندرية ودفن بها وكانت مدة حكمه ثمانى سنين وعمره اثنتان وأربعون سنة تقريبا وتولى بعده ابن أخيه خديو مصر الأسبق اسماعيل باشا .

المغفور له اسماعيل باشا

الخديو الأسبق

هو الخامس من هذه الأسرة الكريمة وهو اسماعيل باشا ابن ابراهيم باشا ابن محمد على باشا ولى الأمر فى ٢٨ رجب سنة ١٢٧٩ بعد وفاة عمه محمد سعيد باشا فوسع نطاق التجارة وأكثر من إنشاء الخطوط الحديدية والسلوك البرقية والتفت إلى إصلاح حالة الرى فأنشأ كثيرا من الترع وأوسع فبريقات عمل السكر التى أنشأها عمه سعيد باشا بالوجه القبلى وأكثر من المدارس على اختلاف أنواعها وأوجد المحاكم المختلطة وأنشأ دار التحف والآثار المصرية ودار الكتب وبنى مدينة الاسماعيلية وبنى بها قصورا مشيدة وبنى مرفأ الاسكندرية وأرصفتها وبنى منارات متعددة فى البحر الأبيض المتوسط إلى غير ذلك من الأعمال الجسيمة التى اضطرته للقرض من الخارج ولزيادة الضرائب فى الداخل ووطد الروابط بين مصر وأوربا وأبطل تجارة الرقيق وغزا الحبشة وفى سنة ١٢٨٣ ﻫ حصل على قانون الوراثة فى أولاده على عمود النسب بحيث تكون حكومة مصر محصورة فى أكبر أولاده ثم تنتقل لابن ابنه الأكبر وهكذا ونال من جلالة السلطان عبد العزيز لقب خديو وهو أول من نال ذلك اللقب الذى هو أرفع ألقاب وزراء الدولة العلية واستقل بالأحكام الإدارية وفى سنة ١٢٩٠ ﻫ حصل على فرمان آخر بتوسيع نطاق الامتيازات للخديوية المصرية وفى رجب ١٢٩٦ ﻫ قضت عليه بعض أعماله السياسية والمالية بالتنازل عن الحكم لأول أنجاله وأرشدهم محمد توفيق باشا وتوجه هو الى بلاد ايطاليا وأقام بها بمدينة نابلى مدة ثم انتقل إلى الاستانة وبقى بها إلى أن توفى سنة ١٣١٢ ﻫ وحضرت جثته إلى مصر ودفن بمدفنه بالرفاعى واحتفل بجنازته احتفالا رسميا لائقا به ومدة حكمه سبع عشرة سنة.

المغفور له محمد توفيق باشا

الخديو السابق

هو السادس من الأسرة الخديوية المصرية بعد والده يوم الخميس سابع شهر رجب سنة ١٢٩٦ هـ فحسم بحزمه جميع المصاعب وأخذت مصر تدخل فى دور جديد من التقدم ونشرت فيها ألوية العدل فى جميع الأرجاء ورفع كثيرا من الضرائب التى كانت قد أثقلت كاهل الأهالى وأنشأ المحاكم الأهلية وشكل مجالس المديريات ومجلس شورى القوانين والجمعية العمومية ووسع نطاق المعارف فانشأ المدرسة التوفيقية والمدرسة الخديوية وكثيرا غيرهما من المدارس والمكاتب واعتنى بتوسيع نطاق دار العلوم وجدد بناء مدرسة الطب ووسع نطاقها ونظم المستشفيات خصوصا القصر العينى وكان كثيرا مايزور المدارس ويوزع الجوائز على النابغين بيده الشريفة تنشيطا لهم وألغى السخرة التى كانت على فلاحى مصر واعتنى بتحسين حالة الرى وأرسل الوفود إلى أوربا لمشاهدة الاستكشافات والاختراعات العلمية وكان متمسكا بالدين القويم ميالا لصلة الرحم ومساعدة الفقراء وآماله متوجهة دائما إلى إقامة شعائر الدين فاهتم بعمارة كثير من المساجد والاضرحة وكان له محبة زائدة فى زيارة أهل البيت وبينما هو مجد فى كل مايعود على البلاد بالخير العميم إذ عصاه أحمد عرابى باشا ناظر الحربية بعدما انحاز إليه القسم الأكبر من قواد جيشه فهددته دولتا انجلترا وفرنسا وأمرتاه أن يكف عما هو عازم عليه فلم يسمع نصيحة نوابهما وأظهر استعداده لمقاومتهما فارسلتا سفنهما الحربية إلى ميناء الاسكندرية وهددتاه بالضرب فأخذ يحصن القلاع ويتجهز للدفاع وحينئذ هاج رعاع الناس ضد الأجانب فى مدينة الاسكندرية سنة ١٨٨٢ م وقتلوا منهم أناسا وتعاظم

الأمر وكثر الخوف عند الأجانب وصاروا يرحلون إلى أوربا ولما لم يرتدع عرابى باشا ولم يزل مصمما على العصيان والدفاع أطلق الأسطول الانجليزى قنابله على قلاع الاسكندرية فهدمها وهرب عرابى ومن معه بعد أن أحرقوا قسما كبيرا من المدينة وتحصنوا بكفر الدوار فانزل الانجليز قسما من الجنود استلموا المدينة وحضر فى الاسكندرية والسويس نحو عشرين الفا من العساكر الانجليزية تحت قيادة ولسلى وحيث رأى هذا القائد أن مهاجمة المصريين من جهة كفر الدوار خطرة نقل قوة العساكر إلى الاسماعيلية وحصلت بينهم وبين المصريين واقعة عظمى فى التل الكبير كانت غايتها انهزام المصريين ودخل الجيش الانجليزى مدينة القاهرة فى شوال سنة ١٢٩٩ هـ الموافق شهر سبتمبر سنة ١٨٨٢ م ، واستلموا القلعة وقبضوا على عرابى باشا ومن معه وحكموا على كل واحد منهم بما يستحقه واستمر الجيش الانجليزى بمصر إلى الآن ثم توفى بعد ذلك المرحوم محمد توفيق باشا مأسوفا عليه فى يوم الخميس الموافق ٧ جمادى الثانية سنة ١٣٠٩ هـ بمدينة حلوان ودفن بقرافة العفيفى ومدة حكمه ١٣ سنة إلا شهرا .

ومما قلته له من الشعر هاتان القصيدتان :

(١) قصيدة تهنئة بأحد العيدين ومطلعها تاريخه .

(٢) قصيدة تحية له وترحيب به عند زيارته المدرسة الخديوية .

قلت فى تهنئته :

عيـــد بعزة توفيق العزيز زها ... ونال فى عصره الزاهى أجل بها
عيد كساه الخديو بهجة فغدا ... على الزمان وأهليه يتيه بهــا
فدم وعش يا أباالعباس فى رغد ... فى كل عام مليكا ساميا فرها
ياخير من صام أو أدى فرائضه ... وما تساهل فى أوقاته وسها

ومذ علا عرشه السامى رقى درجا … إلى الرعايا فعين الرأفة انتبها
وعضد الحق حتى صار مجتهدا … مميزا بعد ما كان مشتبها
وللمعارف فيها صار مجتهدا … وبالترقى إلى أربابها ولها
حتى غدت مصر بالتوفيق فى رغد … وملكها فى جميع الخافقين زها
فدم وعش يامليك القطر فى رغد … ودمت فى كل عام ساميا فرها
ماعاد عيد الصفا بالأنس ثانية … وقد كساه الخديو بهجة وبها
إذ جئت باليمن والبشرى أؤرخه … عيد بعزة توفيق العزيز زها

وقلت فى تحيته عندما زار المدرسة الخديوية :

جدير بالمدارس أن تُهَنَّى … وترقى للعلا حسا ومعنى
فان عزيز مصر لها تجلى … فنالت كل ما كانت تمنى
وقد عم السرور فلست أدرى … مهنى الطالبين من المهنَّى
وأصبح بلبل الأفراح يشدو … وغرّد وانثنى تيها وغنّى
إذا افتخر الأنام بزائريهم … فانا بالمليك قد افتخرنا
همام فاضل شهم نبيل … قوى لم يدع فى الملك وهنا
له همم كبار لا تضاهى … إذا رمنا لها عدا عجزنا
وفى الاحسان ليس له مثيل … وفى التدبير فرد لا يثنى
له عقل تكون من ثبات … به المنان من عليه منا
إذا وزنت به كل البرايا … يفوق الكل رجحانا ووزنا
له بيت عريق فى المعالى … فمن ينزل بساحته اطمأنا
بلغنا بالزيارة كل قصد … ولو شئنا السماء علا بلغنا
وبتنا لا نعال بالأمانى … وصرنا عن حديث النفس أغنى
حضرت إلى المدارس فاستنارت … وفاقت بهجة الأقمار حسنا

وصرنا كالنجوم الزهر فيها | وأنت البـدر بل أعلى واسنى
ستغرس فى النفوس أجل غرس | ومن ثمراته الخيرات تجنى
فشكرا للمليك وأى شكر | يكون مترجما عما أستكنا
أدام الله سعدك فى صعود | ليلقى الكل إحسانا وحسنا
وتبتهج العـلوم وطالبوها | ويبلغ كل شخص ماتمنى

وتولى بعده ابنه أفندينا عباس باشا حلمى الثانى

سمو الخديو عباس باشا حلمى الثانى

وهو السابع من الأسرة الخديوية الكريمة وهو حفظه الله نجل المغفور له محمد توفيق باشا ابن اسماعيل باشا ابن محمد على باشا ولد فى أول جمادى الثانية سنة ١٢٩١ هـ ولم ينفطم سموه من الرضاع حتى لاحت عليه سمات النجابة والفلاح وظهرت عليه أمارات التقدم والنجاح وقد اعتنى والده المغفور له بشأن تربيته وتهذيبه فأنشأ له ولشقيقه صاحب الدولة (محمد على باشا) مدرسة مخصوصة بجوار قصر عابدين العامر وسماها المدرسة العلية وجمع معهما من هو فى سنهما من أبناء الوزراء والأمراء لتنشطيهما وتأكيد روابط المحبة بين الجميع واختار لهما أساتذة فضلاء وجهابذة نبلاء فبرعا فى الآداب والفنون وكثير من اللغات ولما أتما مابها من العلوم أرسلهما إلى أوربا سنة ١٨٨٥ م ومعهما أستاذان جليلان أحدهما لتعليم اللغة التركية والثانى لتعليم اللغة العربية إلى مدرسة (هاكيسوس) بالقرب من جنيف بسويسرة فلبثا بها إلى سنة ١٨٩٧ م ثم أرسلهما إلى (الترزيانوم) الكلية بمدينة ويانة عاصمة النمسا ليكملا معارفهما بأحسن مدرسة على أكفأ أساتذة الحكومة النمسوية فبرعا فى عدة لغات وجملة فنون ولم يقتصر سموهما على ذلك بل أنهما تلقيا فنون الحرب والسياسة وقد قارنا علمهما بالعمل حيث طافا فى أغلب أنحاء أوربا للاطلاع على كثير من

العوائد والأخلاق فقابلهما جميع الملوك بما يليق بمقامهما الكريم من أنواع التبجيل والتكريم ولقد كان من ضمن الممالك التى شاهدها ألمانيا وانكلترا والروسيا وإيطاليا وفرنسا فلقيا من الحفاوة والاكرام ما لم يسبق له مثال وكانا كلما نزلا بمملكة من هذه الممالك قابلهما ملوكها وأمراؤها وأرباب الحل والعقد فيها أجمل مقابلة وأعدوا لهما منازل الضيافة والاكرام ومما لقياه فى انكلترا أنهما نزلا فى قصر جلالة الملكة واستعرضت أمامهما الجيوش على اختلافها وفى الروسيا أنهما نزلا ضيفين كريمين فى قصر الملك واستعرض جلالته أمامهما فرقا كثيرة من جيوشه وقبل أن يبارحا أى مملكة كانت تهدى اليهما أعلى الوسامات وأفخر النياشين .

وفى سنة ١٨٨٩ م وفد إلى مصر ففرحت بقدومهما البلاد وأقاما مع المرحوم والدهما نحو شهرين بالأسكندرية ثم استأذناه فى السفر لزيارة المعرض الباريسى فأجابهما إلى ذلك فتوجها إلى فرنسا فلقيا هناك من التجلة والاحترام ما لا يدخل تحت حصر فإنهما قد قوبلا بمرسليا وباريز مقابلة فائقة وخصص لهما رئيس الجمهورية ضباطا من ضباطه العظام لملازمتهما أيام إقامتهما بباريز وأعد قصر (فونتن بله) وهو من أفخر القصور بها ودعاهما لتناول الطعام مع جنابه مرارا عديدة وأهدى سمو أفندينا بنايشان (اللجرن دونور من رتبة جران) وأهدى دولة أخاه نيشان (الكرافات دى كوماندير) واحتفل لهما رئيس الوزارة وناظر الخارجية احتفالا عظيما كل ذلك لما ظهر لهؤلاء الملوك من علامات النجابة وسمات الكمال على وجههما .

وعلى الجملة فان سمو الخديو قد ربى تربية راقية علميا وعمليا حتى صارت تربيته تضارع أعاظم ملوك أوربا وهو يحسن تكلما وكتابة خمس لغات العربية والتركية والانجليزية والألمانية والفرنسية ولم يزل مجدا فى العلم والعمل حتى

طير اليه البرق وفاة العزيز والده على غير سابقة انتظار وصدرت إرادة سلطانية من لدن مولانا السلطان عبد الحميد خان الثانى بتولية سمو الخديو (عباس باشا حلمى الثانى) على أريكة الخديوية المصرية فى الثامن من شهر يناير سنة ١٨٩٢ م فتقوى على الحزن وسافر هو وشقيقه من ترستا فى ٩ يناير سنة ١٨٩٢م فوصلا إلى الأسكندرية فى ١٦ رجب سنة ١٣٠٩ هـ وأقبل على مهام الأعمال التى وكل أمرها إلى سموه بقوة الشباب فى حكمة الشيوخ وبينما هو كذلك إذ حضر مندوب عثمانى من مشيرى الدولة وهو صاحب الدولة أحمد أيوب باشا حاملا الفرمان العلى الشأن واحتفل بتلاوته رسميا فى الرابع عشر من ابريل سنة ١٨٩٢ بقصر عابدين العامر على جمهور من عظماء الأمة وكبرائها وكنت ممن أكرمهم المولى بحضور ذلك الاحتفال الذى كان مثال العظمة والجلال ووردت لسموه التهانى تترى من جميع الجهات وابتهجت البلاد وفرحت العباد وها هى ترجمة الفرمان العلى الشأن .

الدستور الأكرم المعظم الخديو الأفخم المحترم نظام العالم وناظم مناظم الأمم مدبر أمور الجمهور بالفكر الثاقب متمم مهام الأنام بالرأى الصائب ممهد بنيان الدولة والإقبال مشيد أركان السعادة والاجلال مرتب مراتب الخلافة الكبرى ناموس السلطنة العظمى المحفوف بصنوف عواطف الملك الأعلى خديو مصر الحائز لرتبة الصدارة الجليلة فعلا الحامل نيشاننا الهمايونى المجيدى المرصع ولنيشاننا العثمانى الأول وزيرى سمير المعالى عباس حلمى باشا أدام الله إجلاله وضاعف بالتأييد اقتداره وإقباله .

أنه لدى وصول توقيعنا الهمايونى الرفيع يكون معلوما لكم أنه بناء على ماقضى به الله من انتقال (جنتمكان) محمد توفيق باشا خديو مصر إلى رحمته تعالى وإعلاما بجليل التفاتنا ونظر إلى حسن خدامتكم وصداقتكم واستقامتكم لذاتنا

الشاهانية ولمنافع دولتنا العلية ولما هو معلوم لدينا من أن لكم وقوفا ومعلومات تامة بخصوص الأحوال المصرية وأنكم كفء لإصلاحها واجهنا إلى عهدتكم الخديوية المصرية المحدودة بالحدود القديمة المبينة بالفرمان الشاهانى الصادر بتاريخ ٢ ربيع سنة سنة ١٢٥٧ م وذلك بمقتضى إرادتنا الشاهانية فى ٧ جمادى الثانية سنة ١٣٠٩ ولأنكم أكبر أولاد (جنتمكان) الخديو المتوفى وجهت إلى عهدتكم الخديوية المصرية توفيقا للقاعدة المقررة بالفرمان الشاهانى الصادر فى ١٢ محرم سنة ١٢٨٣ هـ القاضى بأن الخديوية المصرية تؤول إلى أكبر أولاد البكر فالبكر ولما كان تزايد عمران الخديوية المصرية وسعادتها وتأمين أهاليها ورفاهيتهم هى من المواد المهمة لدينا ومن أجل مرغوبنا ومطلوبنا كنا وجهنا فرمانا شاهانيا لتحقيق هذه الغاية الحميدة بتاريخ ١٩ شعبان سنة ١٢٩٦هـ إلى (جنتمكان) والدكم بتولية الخديوية المصرية وضمناه المواد الآتية :

إن جميع إيرادات الخديوية المصرية يكون تحصيلها واستيفاؤها باسمنا الشاهانى حيث إن أهالى مصر أيضا من تبعة دولتنا العلية وأن الخديوية المصرية ملزمة بإدارة أمور المملكة الملكية والمالية والعدلية بشرط ألا يقع فى حقهم أدنى ظلم ولا تعدى فى وقت من الأوقات فخديو مصر يكون مأذونا بوضع النظامات اللازمة الداخلية المتعلقة بهم وتأسيسها بصورة عادلة وأيضا يكون خديو مصر مأذونا بوضع النظامات اللازمة الداخلية المتعلقة بهم وتأسيسها بصورة عادلة وأيضا يكون خديو مصر مأذونا بعقد وتجديد المشارطات مع مأمورى الدول الأجنبية بخصوص الجمرك والتجارة وكافة أمور المملكة الداخلية لأجل ترقى الحرف والتجارة والصنائع واتساعها ولأجل تسوية المعاملات السائرة التى بين الحكومة والأجانب مع أمور ضابطة الأجانب بشرط عدم عدم وقوع خلل بمعاهدات دولتنا العلية (البوليتيقية) وفى حقوق متبوعية

مصر لها ولكن قبل إعلان الخديوية المشارطات التى تعقد مع الأجانب بهذه الصورة يصير تقديمها إلى بابنا العالى وأيضا يكون حائزا للتصرفات الكاملة فى أمور المالية لكنه لا يكون مأذونا بعقد قرض بوجه من الوجوه وإنما يكون مأذونا بعقد استقراض بالاتفاق مع المدائنين الحاضرين أو وكلائهم الذين يعينون رسميا وهذا الاستقراض يكون منحصرا فى تسوية أحوال المالية الحاضرة ومخصوصا بها وحيث أن الامتيازات التى أعطيت لمصر هى جزء من حقوق دولتنا العلية الطبيعية التى خصت بها الخديوية وأودعت لديها فلا يجوز لأى سبب أو وسيلة ترك هذه الامتيازات جميعها أو بعضها أو ترك قطعة أرض من الأراضى المصرية للغير مطلقا ويلزم تأدية مبلغ ٧٥٠٠٠٠ ليرة عثمانية الذى هو الويركو المقرر دفعه فى كل سنة فى أوانه وكذلك جميع النقود التى تضرب فى مصر تكون باسمنا الشاهانى ولا يجوز جمع عساكر زيادة عن ثمانية عشر ألفا لأن هذا القدر كاف لحفظ الأمن ببلاد مصر الداخلية فى وقت الصلح ولكن حيث أن قوة مصر البرية والبحرية مرتبة كذلك من أجل دولتنا يجوز أن يزاد مقدار العساكر البرية والبحرية والعلامات المميزة لرتب ضباطهم كرايات عساكرنا الشاهانية ونياشينهم ويباح لخديو مصر أن يعطى الضباط البرية والبحرية لغاية رتبة أميرالاى والملكية إلى الرتبة الثانية ولا يرخص لخديو مصر أن ينشىء سفنا مدرعة حربية إلا بعد الإذن وحصول رخصة صريحة قطعية إليه من دولتنا العلية ومن اللزوم المحافظة على كل الشروط السالفة الذكر وإجتناب وقوع حركة تخالفها وحيث صدرت إرادتنا السنية بإجراء المواد السابق ذكرها فقد أصدرنا أمرنا هذا الجليل القدر والموشح أعلاه بخطنا الهمايونى وأرسلناه لكم تحريرا فى ٢٧ شعبان المعظم سنة ١٠٠٩ من هجرة صاحب العزة والشرف .

ثم أخذ يبذل جهده فى كل مايعود على البلاد براحة البال وحسن الحال فكان من باكوره أعماله أنه نقص الرسوم القضائية وخفف عوائد المصلح وأمر بتغذية جميع المسجونين على مصاريف الحكومة وعدل الضرائب وفى جمادي الأولى سنة ١٣١٠ صدر أمر عال باستعمال لائحة جديدة لمستخدمى الحكومة المصرية واعتنى بتحسين حال الزراعة وإحياء الموات من الأرض وبدأ بذلك فى مزارعه الخصوصية ليكون قدوة حسنة لرعيته وفى أيامه بنى خزان اسوان وأقيمت جسور أسيوط واسنى وأنشئت ترع عديدة وخطوط حديدية كثيرة .

واهتم أيضا بأمر الصناعة فاستجلب الآلات والأدوات اللازمة لإنتشار الصناعة وتقدمها فى البلاد وصار يحث الأهالى على المحافظة فى صنائعهم القديمة التى كادت تنمحى آثارها مع تنشيطهم بشراء شيء من مصنوعاتهم ومنسوجاتهم واستعمال كل فيما يصلح له .

وفى مدته أنشئت بمصر محطة السكة الحديدية الحالية وجسر إنبابه الذى تمر عليه قطر الوجه القبلى وسارت بمصر والأسكندرية المركبات الكهربائية وأسس محلا جديدا للمتحف المصرى بجوار قصر النيل واسترجع السودان وقامت به حكومة منتظمة ووسع اختصاص مجلس الشورى ومجالس المديريات والجمعية العمومية وأوجد محاكم الاخطاط لراحة صغار الفلاحين ومزارعيهم واعتنى بتوسيع نطاق المعارف ففتحت فى عصره مدارس كثيرة ومئات من الكتاتيب النظامية والمدارس الصناعية ومدرسة التجارة ومدرسة القضاء الشرعى والطب البيطرى والبوليس والزراعة وحصل الاعتناء بالمدارس على اختلاف أنواعها حتى كثر المتعلمون وساعد الحكومة على ذلك أهل الخير من الأمة فأنشئوا جامعة مصرية وكثرت الجمعيات الخيرية لهذا الغرض الشريف

ثم زيد على الضريبة خمسة فى المائة لنشر التعليم فى جميع أنحاء القطر ولا يزال آخذا فى الرقى مع مستقبل الزمان .

ولحبه فى مساعدة الفقراء وعدم حرمانهم من التعليم قد أنشأ على نفقته الخاصة مدرستين لأبناء الفقراء والمزارعين إحداهما بالقبة والأخرى بجوار قصره الرفيع الذى بناه بين أبى قير والرمل بالأسكندرية وبنى بجواره مرفأ تأوى إليه السفن عند خوف غلبة الرياح عليها .

وقد اعتنى بتنظيم الأزهر الشريف والمعاهد الدينية إعتناء لم يسبق له مثيل وأحيا كثيرا من العلوم الدراسة فى تلك المعاهد .

وقد قدمت له قصائد كثيرة فى ذهابه وإيابه ومواسمه منها :

ماقدمته له لما تولى الخديوية تهنئة له بها وتعزية له بوفاة المرحوم والده وهى :

يامصر صبرا وهل يامصر مصطبر	وذلك الخطب لا يبقى ولا يذر
خطب عظيم أهم الناس قاطبة	وكيف من يعدم التوفيق يصطبر
توفيق مصر الذى فى يوم بارحها	قد استتب بها الأحزان والكدر
قد كان عونا وغوثا للبلاد كما	قد استتب بها الأحزان والكدر
دعنى فانى لو سطرت سيرته	فالقول عند استماع القول ينشطر
كساه مولاه من رضوانه حللا	والهم الأهل صبرا قدر ما أجروا
والله لولا يقين الكل ان له	شبلا تدين له العليـــا وتنتظر
عباس باشا الذى من بعد والده	يقفو مآثره فينا ويبتكر
ياسيدى يامليك القطر دمت لنا	حصنا تحصنك الآيات والسور
آباؤك الصيد قد جات مآثرهم	ومهدت بهم الآكام والوعر
فسر بها يامليك القطر معتصما	بالله فالملك أضحى اليوم يفتخر
إذ سرت سير فتى جلت مآثره	كما سرى النيران الشمس والقمر

إلى أن قلت :

وفى النفوس أمان طالما لهجت — بهـــا لحاول فى اسعافها القدر
لكن بحزمك يابن الأكرمين أبا — يتم كل صــلاح كان ينتظر

والثانية تهنئته بقدوم الفرمان إليه من الدولة العلية وكان أعداؤه قد أشاعوا أنه لم يحضر إليه وأن الملك سيولى غيره لأنه قد تأخر كثيرا فرددت عليهم قولهم هذا لما حضر الفرمان له من الدولة وقد جعلت فيها تاريخين لقدومه الأول هجرى والثانى ميلادى .

وهى :

وافى الخديو الرفيع الشأن فرمان — فأصبحت تزدهى مصر وتزدان
والبشر سار إلى الأقطار أجمعها — فالكل مبتهج والغر حيران
وقد أتى وجميع النـاس منتظر — إذ قد تأخر والتأخير هجران
وقد تكلم قوم لاخـلاق لهم — وليس من شأنهم فى أمره شان
فاهنأ به ياعزيز القطر من ملك — على الملوك له من وإحسان
وقد أتاك بأمر لامثيل له — بما يدوم له حمـــد وشكران
فهدّم الأمر ما قد كان دبّره — من المكايد أخدان وأقران
إذ أنت خير إمرىء جلت مآثره — جاه عظيم وإحسان وغفران
ومنـــذ أتم له المولى مقاصده — ولم يجاربه فى علياه إنسان
أرخت دولته بمن وميسرة — وافى الخديو الرفيع الشأن فرمان

ومنها ماقدمته له لما زار مدرسة القربية شكرا له على هذه الزيارة وكنت حينئذ أحد مدرسيها . وهى :

ألا حبذا يوم به افتخر الدهر — وعم الصفا فيـــه ولازمه البشر
وفاق عن الأيام حسنا ورفعة — وصار من الأيام يغبطه الدهر

تجلى به العباس فابتسمت لنا ثغور التهانى الغر وانتظم الدر
وزار خديوينا المدارس فازدهت وأدركنا بالخير فابتهج القطر

إلى أن قلت فى مدحه :

وما الطود إلا قطعة من ثيابه وما الغيث إلا فى ندى كفه قطر

إلى أن قلت عن لسان التلاميذ :

وها نحن شبان بدولة عزكم نربى وبالتعليم يرتفع القدر
وعنـــد تمام المدركات فكلنا نصير لمولى لايزال له النصر
فننفق أرواحا لخدمة قطرنا وفى خدمة الأوطان كم نفق العمر
ودام خديوينا مدى الدهر باقيا يساعده الاقبال والنصر والظفر
لنبلغ غايات الكمال بعزه وتسمو على كل البلاد به مصر

ومنها ماقدمته له لما عاد من اسلامبول من سفره وجعلت فيها تاريخا للعودة وجعلته مطلعها ونهايتها وهى :

عاد الخديوى ناجحا مسروراً فقلوبنا امتلأت بذاك سرورا
وبسيرك المحمود والسفر الذى أصلى قلوب المارقين سعـيرا
قويت ماحلت عراه يد العدا وهدمت ماشادوا وكان كثيرا
فتحت له الأبواب دون ممانع فى أى وقت لايشير مشيرا
وكذاك ألبسه الوسام مليكنا بيديه اجلالا وكان جـديرا
ومنذ أزدهى القطر السعيد بعوده مرفوع قدر ظافرا منصورا
وامتدت الآمال وأزداد الرجا والفوز بالمقصود صار يسيرا
أهـديته منى التهانى راجيا عودى بحسن قبولها مجبورا
وبمدحه السامى بديع قصائدى تنسى الفرزدق والبها وجريرا
وتجر ذيل العجب فى إبداعها وترد طرف الحاسدين حسيرا

عاد الخديو ناجحا مسرورا   وقدومه باليمن قد أرخته

ومنها القصيدة التى فيها الذم مدحا وهذا النوع من الشعر مما يتحدى به الشعراء وسبب نظمها وتقديمها له أن جماعة من أعدائه قد ترقبوا حضوره إلى مصر من الاسكندرية وقدموا له قصيدة هجاء حملوها من الهجاء من مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر من الناس وكان تقديمها له فى يوم الخميس الموافق ٤ نوفمبر سنة ١٨٩٧ م فلما رأيتها ومافيها من الذم قلت قد صدق القائل .

ولى الأحكام هذا إن عدل   ونصف الناس أعداء لمن

وكان فى ذلك الوقت على باشا مبارك ناظرا للمعارف العمومية ولما زرته بمنزله أخبرنى أن الخديو قد استاء كثيرا من قصيدة الهجاء. وكلفنى أن أنظم قصيدة مدح تكون مضادة لقصيدة الهجاء فاجابة لطلبه ولما للخديوى على من حقوق التولية قد قلبت الذم مدحا وزدت فى المدح كثيرا وسفهت عملهم وقدمت للخديوى تلك القصيدة فسر بها سرورا كثيرا وأمر بنشرها فى الوقائع المصرية وبعد نشرها فيها نشرتها جميع الجرائد المحلية فى ذلك الحين وطبعوا منها على انفرادها ألوفا وزعت بمصر والاسكندرية وجميع الأقاليم البحرية والقبلية . إلى غير هذه من القصائد التى قدمتها له فى جميع أعياده حفظا لحقوق التولية له .

وهاتان القصيدتان كتبتهما لأنه بضدها تتبين الأشياء

هذه هى قصيدة الهجو بتمامها

قدوم ولكن لا أقول سعيد   وملك وإن طال المدى سيبيد

بعدت وثغر الناس بالبشر باسم   وعدت وحزن فى الفؤاد شديد

تمر بنا لا طرف نحوك ناظر   ولا قلب من تلك القلوب ودود

عـــلام التهانى هل هناك مآثر فنفرح أو سعى لديك حميـــد
إذا لم يكن أمر ففيم مواكب وإن لم يكن نهى ففيم جنود
تذكرنا رؤياك أيام أنزلت علينا خطوب من جدودك سود
رمتنا بكم (مقدونيا) فاصابنا مصوب سهم للبلاء سـديد
فلمــا توليتم طغيتم وهكــذا إذا أصبح التركى وهو عميـــد
فكم سفكت منا دماء بريئة وكم ضمنت تلك الدماء لحود
وكم ضم بطن الأرض أشلاء جمة تمزق أحشاء لها وكبود
وكم صار شمل للعباد مشتتا وخرب قصر فى البلاد مشيد
وسيق عظيم القوم منا مكبلا له تحت أثقال القيود وئيد
فما قام منكم بالعـــدالة طارف ولا سار فيكم بالسداد تليـــد
كأنى بقصر الملك يصبح بائدا من الظلم والظلم المبين مبيد
ويندب فى أطلاله البوم ناعبا له عند ترديد الرثاء نشيد
(أعباس) ترجو أن تكون خليفة كما ود آباء ورام جـــدود
فياليت دنيانا تزول وليتنا نكون ببطن الأرض حين تسود
(أعباس) لاتحزن على الملك إنه تقضى فهذا الحزن ليس يفيد
(أعباس) صار الملك فى يد عادل يذب الردى عن حوضه ويذود
وقد كان جفن الدهر وسنان هاجدا وهاهو هب اليوم منه هجود
(بريطانيا) لازال أمرك نافذا وظلك فى أرجاء مصر مديد
ليصبح شمل الأمر وهو منظم ويصبح هذا الظلم وهو طريد
أيجرأ ذئب أن يدوس برجله عرينا وفى ذاك العرين أسود
فأنت احتللت القطر والقطر دارس فأضحى بفضل العدل وهو جديد
متى ما أرى الأعلام يخفق ظلها على أرض مصر إننى لسعيد

وهذه القصيدة التى قلبت الذم فيها مدحا مع زيادة المدح وهى :

قدوم على رغم الحسود سعيد ⁂ وملك على طول الزمان وطيد
بعدت وكل الناس للبعد كاره ⁂ وعدت وشوق للقاء شديد
تمر وطرف الكل نحوك ناظر ⁂ وكل الملا جمع إليك ودود
فكيف التنائي والهنا لك واجب ⁂ وسعيك فى كل الأمور حميد
إذا لم يكن فى القطر أمر يشينه ⁂ ولاشيء مما قد أذاع جحود
ونهيك مسموع وأمرك نافذ ⁂ ورأيك فى كل الأمور سديد
فدم يارعاك الله فى خير دولة ⁂ وياحبذا ركب لكم وجنود
تذكرنا رؤياك عدلا وعفة ⁂ وهيبة ملك بالوقار تزيد
منحنا بكم فالعدل قد مد ظله ⁂ على القطر والرأى السديد مفيد
فلما توليتم عدلتم وهكذا ⁂ فروع وآباء لكم وجدود
فما سفكت منا دماء بريئة ⁂ ولا ضمنت منا البرىء لحود
ولا ضم قاع البحر قتلى ولاحوى ⁂ سوى الماء يطفو فوقه ويزيد
ولاسيق منا فى الحديد مبرؤ ⁂ له تحت أثقال الحديد وئيد
وكم ضم شمل للعباد مشتت ⁂ وعُمِّرَ قصر فى البلاد مشيد
فحاشا رعاك الله مما يقوله ⁂ جهول باحوال الملوك بليد
فحلمك أعزى العز حتى لسانه ⁂ مع العى فى نظم القريض حديد
فان طاش مغرور وشقشق جاهل ⁂ وخرف معتوه وضل عنيد
فكل لسان العالمين مكذب ⁂ وكل وفود العارفين شهود
فكم سار منكم بالعدالة طارف ⁂ وكم قام منكم بالسداد تليد
وكل فقير قبل حكم محمد ⁂ غدا تحت ظل السعد وهو سعيد
توليتم ذا القطر والقطر دارس ⁂ فأضحى بفضل العدل وهو جديد

فتاريخكم يزهو بأجمل سيرة　　لها بين أخبار الملوك صعود
حنانيك إن الليث لايستفزه　　ذئاب عوت من حوله وقرود
وأى مليك لم يكن تحت ظله　　مع العدل خوان له وحقود
فدم قائما بالحزم كى تدرك المنى　　وتقطع أطماع العدا وتبيد
فبالحزم نار أضرمت فى قلوبهم　　وبالحزم يبدو حرها ويعيد
فأنت مليك القطر والقطر خاضع　　لأمرك فافعل ماتشا وتريد
فان تعف يامولاى فالعفو شيمة　　وإن عوقب الجانى فتلك حدود
فلا زال قصر الملك بالعدل عامرا　　وبالحزم يعلو شأنه ويزيد
يغرد فى أنحائه الطير دائما　　له عند ترديد الغناء نشيد
أعباس نرجو أن تدوم منعما　　مدى الدهر حتى لايكون حسود
أعباس هذا القطر أنت مليكه　　تذب الردى عن حوضه وتذود
فقد كان هذا الدهر وسنان دائما　　وهاهو هب اليوم منه هجود
أعباس مصر دام أمرك نافذا　　وظلك فى أرجاء مصر مديد
ليبقى صعود القطر يصعد دائما　　ويبقى عماد العدل وهو وطيد
وتحفظ مصر من شرور كثيرة　　ويخسأ فيها جاحد وكنود
فلا زلت يقظانا وفى ظل دولة　　لها بين أخبار الملوك بنود
أأحيا إلى أن يترك الزيغ كافر　　لأنعم أوطان له وطريد
ويذهب سعى الخائنين ومكرهم　　هباء وجمع المارقين يبيد
ويرجع مغرور ويندم خائن　　لأنعم مصر إننى لسعيد

ثم انقضت أيامه بما لها وعليها إن خيرا فخيرا وإن شرا فشرا

فيوم لنا ويوم علينا　　ويوم نساء ويوم نسر

والملك لله يؤتيه من يشاء وينزعه ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء

وبانقضاء مدته قد أصبحت مصر دولة مستقلة يتولاها من يتولاها من الملوك وأول من قام بالملك بعده هو السلطان حسين الأول

السلطان حسين الأول

وأول السلاطين حسين كامل الأول تولى سنة ١٣٣٣ هـ الموافقة سنة ١٩١٥م وكان سديد الرأى محبوبا فى الامة ممتازا بمكارم الاخلاق كريم السجايا فقام بالامر أحسن قيام وارتاحت العباد وعمرت البلاد وأخذت مصر فى زمنه نهضة لم تأخذها فى زمن غيره من سابقيه وكان ذا شفقة على الرعية

وقد هنأته بقصيدة بتوليه الملك وهى :

سلطاننا أحسين ياخير امرىء ملك البلاد ففاق للاقران
شرفت مصر وقد ملكت لملكها فانهض لرفعتها عن البلدان
وأعد لها تاريخها الماضى الذى حلت مآثره بكل مكان
إذ أنت أفضل مالك فى عصره ملك البلاد وماله من شان
ملك جليل فى السياسة مفرد بين البرية ماله من ثان
ورث السماحة والمروءة والندى من أسرة جبلت على الإحسان
وبحزم مثلك يرتجى كل امرىء ما كان مهضوما مدى الأزمان
وبمثل جودك يرتجى كل امرىء ما كان من منّ من المنان
يا نجل اسماعيل ما كان امرؤ أبدا يضارعه بأى زمان
دم للبلاد مساعدا ومؤيدا حتى تشيد خالد البنيان

وهو نجل المرحوم اسماعيل باشا الخديوى الأسبق ولد بمصر فى التاسع عشر من شهر صفر سنة ١٢٧٠ هـ وتربى فى مدارسها فتعلم اللغات ثم تمم دراسته فى أشهر مدارس باريس ثم استقدمه والده فالقى إليه أزمة كثير من الادارة

تولى التفاتيش البحرية فأدارها بالحزم والعدل ثم ولى نظارة المعارف فاهتم بشأنها وصار يعطى المكافآت للتلاميذ النابغين فبث فيها روح الجد والنشاط ثم ولى نظارة الحربية ثم نظارة الأشغال العمومية فأنشأ السكة الحديدية بين مصر وحلوان وجعل على المحروسة سورا يقيها من خطر الفيضان ثم تولى نظارة المالية فكان له فيها الأثر الجليل وكانت جميع أحواله وأطواره تدل على أنه من خيرة الرجال فهو الذى يصدق عليه قول القائل .

شخص يعد بألف ألف مثله ... وألوف شخص لاتعد بواحد

وهكذا كانت أيام سلطنته على البلاد كلها سخاء ورخاء وعدل وفضل فله الأثر الخالد والشرف التالد .

ولم يزل كذلك حتى مات سنة ١٣٣٥ هـ ١٩١٧ م وله من العمر ٦٥ سنة وقد رثيته بهذه القصيدة رحمه الله رحمة واسعة . وهى :

أحسين يارب المكارم كلها ... ياصاحب الملك العظيم الشان
بالامس كنت منعما وممتعا ... واليوم مندرج بذى الاكفان
أمر قضاه الله بين عباده ... فيه استوى عبد مع السلطان
أين الملوك وأين من ملكوا الدنا ... بين البرية من قديم زمان
الكل قد ماتوا وماتركوا سوى ... ماكان من خير ومن إحسان
ومذ البرية أعلنت بوفاتكم ... حزنت لها الدنيا بكل مكان
أما الكنانة فهى فى شر الاسى ... فى سائر الانحاء والبلدان
فالفضل يجتذب النفوس جميعها ... والمن يعقبه رضا المنان
والله أرجو أن تكون منعما ... مما فعلت له من الاحسان
ويخصك المولى بواسع رحمة ... وتبيت فى حلل من الرضوان

الثانى صاحب الجلالة فؤاد الأول

الثانى من الملوك صاحب الجلالة فؤاد الأول وهو مليكنا المحبوب تولى الملك سنة ١٩١٧ .

فقام بأعبائه خير قيام واعتنى بالعلم والعلماء فاهتم بالمعاهد الدينيه ونظر إليها نظرة خاصة لم تكن منتظرة من سواه فأوجد الجامعة وأحضر لها المدرسين الكفاة فى كل نوع من العلوم ووسع نطاق الملك فأوجد وزارات به لم تكن موجودة من قبله وهى وزارة الزراعة ووزارة المواصلات ونظر للموظفين أيضا فزاد رواتبهم وحسن حالتهم عما كانت عليه من قبل وبالجملة فان أعماله الجليلة لاتحصى ولا يمكن حصرها ولا تستقصى .

وإنى قد قدمت لجلالته جملة قصائد أولها قصيدة تهنئة لجلالته بالملك وهى:

جاء الصلاح مع السداد   والله بلغنا المراد
والدهر بعد تخبط   قد سار فى سبل الرشاد
وبشائر البشرى بدت   فى كل أنحاء البلاد
قد جاءت البشرى لنا   أن المليك لنا فؤاد
رب الجلالة والندى   عالى الذرا وأرى الزناد
من عم صيت كماله   وجلاله فى كل واد
من ذا يكون مثاله   للدين والدنيا يراد
من مثله فى عصره   للخير والحسنى مراد
من مثله للملك من   يلقى عليه الاعتماد
والجسم لايحيا لنا   إلا إذا سلم الفؤاد
الله يبقى عمـــره   دهرا طويلا للعباد

حتى تتم الصالحات وينمحى أثر الفساد

ومنها قصيدتان قد هنيت بهما جلالته بالعيد السعيد إحداهما :

عيد سعيد أتى مولاى فى رغد … رب الجلالة راعى مصر حاميها
فأصبحت مصر فى خير وفى فرح … والبشر عم لقاصيها ودانيها
من فاق كل ملوك الأرض فى كرم … كم من مكارم يبديها ويحييها
وكم فضائل لا يحصى لها عدد … جلت عن الحصر فى إحصاء محصيها
من ذا يجاريه فى الخيرات بفعلها … ومصر تاهت به عن غيره تيها
من ذا يجاريه فى تدبير مملكة … كم من خطوب يلافيها وينهيها
أرجو من الله أن يبقى لأمته … يولى الندى ويوالى من يواليها
ويشمل الله من ألطافه كرما … ولى عهد الى الخيرات يبديها
فالنجل يتبع فى الأوصاف والده … وربما فاق عن آبائه فيها
حتى يتم لمصر فوق ماطلبت … وترتقى فوق ماكانت أمانيها

والثانية وهى :

عيد سعيد أتى فاهنأ بطلعته … إن البرية قد وافت تهنينا
بخير من عمت الدنيا مكارمه … وخير بربه الأيام تأتينا
رب المكارم من عمت مكارمه … فالخير يشمل قاصينا ودانينا
رب المكارم من عمت مكارمه … فى كل ناحية من كل وادينا
من ذا يجاريه فى عدل وفى كرم … الناس تغبطنا من كونه فينا
فالرفق شيمته والجود ديدنه … وكم بخير من الخيرات يأتينا
وكل عام أرى مولاى فى رغد … والخير يشمل دانينا وقاصينا
ويجعل الله مولانا وعترته … محصنين بحصن الله تحصينا
حتى يتم لنا فى عصر دولته … من المنى فوق ما كانت أمانينا

ومنها قصيدة ترحيب وتهنئة بعودة جلالته إلى عاصمة ملكه من رحلته الميمونة وهى :

قدومك يارب الجلالة والعلا ... به الملك يعلو قدره ويزان
وعودك يارب المكارم كلها ... إلى الملك فى خير هنا وطان
فقد غبت عنا والعيون سواهر ... ليوم قدوم حال عنه زمان
كأنك روح والبرية جسمه ... وماعاش جسم ليس فيه جنان
فلا غروان وافت جميع وفودها ... متى جاءت البشرى وآن أوان
فقدسستنا بالعدل والفضل والتقى ... ودافعت عنا والجميل يصان
وكم سرت فى نفع البلاد وخيرها ... ودافعت حتى لايكون هوان
وأتعبت نفسا وهى فى وقت راحة ... لتدرك قصداً قل عنه طعان
ومن يغمد النفس النفيسة فى العنا ... ليظفر حتى لاتكون سنان
فذلك خير الناس للناس كلهم ... وخير مليك عز فيه زمان
وقد أيقنوا أن الكنانة ربها ... عظيم وكم مرت عليه شنان
وقد خصه المولى بكل فضيلة ... بها الدهر يعلو والمديح يزان
فمن مثله للطيبات موفق ... ومن مثله يلقى عليه ضمان
ومن مثله للدهر إن جاروا اعتدى ... ومن مثله يعزى إليه حنان
ومن مثله للمشكلات وحلها ... إذا حل أمر ليس فيه بيان
ومن مثله بالقول للحق ناصر ... لكل مكان قل فيه لسان
فدمت دوام البدر فى بيت سعده ... إلى الملك حتى يرتقى ويصان
وترحل محفوظا وترجع ظافرا ... لتكمل فينا راحة وأمان

وقلت شاكرا جلالته لما عدلت درجات الموظفين :

إليك لواء الحمد يرفعه الشكر ... وطيب مدحى فى المليك هو الذخر

على أنعم جلت وقد عمت الورى ... فلم ينهها عد ولم يحصها حصر
تفردت فى الإحسان للناس كلهم ... وكنت مثال الغيث يهمره البحر
وأكثرت فى الآلاء حتى تحيرت ... عقول الملا فيها فطاب لك الذكر
وساعدت فى مصر المعارف فارتقت ... وأدركتها بالخير فابتهجت مصر
وعاملت بالحسنى بنيها فأصبحوا ... وقد فارقوا عسرا وعمهم اليسر
وساعدت مولانا على الخير أهله ... وشكر ذوى الإحسان يوجبه الحر
ولو أننا صرنا مدى الدهر كله ... نكرر خير الشكر ما وسع العمر
لجودك يارب المكارم والندى ... تضىء به الدنيا ويفتخر الدهر
وكم بت طول الليل للدهر شاكيا ... وبار به سعرى وأخر فى الشعر
ولو أنى قد كنت للشعر تاركا ... وبار به شعرى وعاندنى الدهر
رجعت له لما تحققت فضله ... وفاء لحق لا يقوم به النثر
وأرجو من المولى بقاء مليكنا ... بخير واقبال يلازمه النصر
وتغبطه الدنيا بخير وزارة ... بها عمت الخيرات وانجبر الكسر

تهنئة بهية ومدحة سنية

لحضرة مولانا صاحب الجلالة فاروق الأول ملك مصر حفظه الله
بمناسبة عودته من رحلته فى أوربا وإقامة حفـــلة التتويج سنة ١٩٣٧

قدومك يارب الجلالة والعلا ... إلى الملك يعلى قدره ويزيد
ويمنحك المنان من فيض فضله ... وتملك ملكا ما إليه حدود
تذكرنا رؤياك عدلا وعفة ... وهيبة ملك بالوقار تزيد
فمذ كنت بالتوفيق مادمت قائماً ... ورأيك فى كل الأمور سديد
وكل لسان العارفين مصدق ... وكل وفـــود العالمين شهود
تدين لك الأيام فى كل حالة ... وتخدمك الهامات وهى سجود

مليك له بين الملوك مكانة وقدر عظيم ماعليه مزيد
مليك كأن الله أتقن صنعه لكى لجميع الطيبات يزيد
وتبق جميع الناس فى خير حالة كما كان آباء له وجـدود
فكل فقير فى زمان محمـد غداً فى ظلال العدل وهو سعيد
فذلك من يرجى إلى الخير كله ويبق له بالطيبات خـلود
فلا زلت محفوظاً وفى خير حالة وكل الورى حب لكم وودود
ولا زلت منصوراً وبالعدل قائماً ومن ينصر المنان فهو مجيـد
وجودك فينا نعمة أى نعمة بك الحق يسمو والضلال يبيد
وإن كنت بالتتويج للتاج زائناً فإنك سلطان وأنت وليد
كأنك بدر والأنام كواكب بيوم سعيد جاء فيه وفود
ويوم عظيم القدر مامر مثله بذا الدهر حتى لا يعيش حسود
ويصبح هذا القصر للكل موئلا يذب الأذى عن حوضهم ويذود
ولا زلت فى خير لذى الحق ناصراً مدى الدهر حتى لا يسود عنيد
ويصبح هذا الملك بالعدل زاهراً بهمة مولى قل منه وجـود

تحيـــة قدوم

لجلالة مولانا الملك فاروق الأول بمناسبة عودته من الصعيد إلى عاصمة ملكه

فى أوائل فبراير سنة ١٩٣٧

قدومك يارب الجلالة والعلا به شرحت للعالمين صـدور
وأصبحت البلدان فى خير بهجة وأحيا الليـالى مترف وفقير
فإنك يا مولى الجميع شملتهم بخير هبات والجميع شكور
وإن جميع الناس شرقاً ومغرباً لهم عند يوم للقـدوم حبور
فهذاك مسرور بعود مليكنا وهذا ببث المكرمات فخور

وذلك يحيي بالقراءة ليله ... وذاك بتوزيع الصلات يدور
فإنك يارب المكارم كلهـــا ... أتيت بخير ما إليه نظير
ودافعت عن حوض البلاد بهمة ... وللخلق من جور الزمان تجير
وقد علم الأكوان أن مليكنا ... عليم بأحوال الزمان خبـــير
مليك له جاه ومجد مؤثل ... وللحق بالحق العظيم نصير
له همة فوق السماكين منزلا ... متى حاول المطلوب فهو يسير
مليك كساه الله ثوب مهابة ... وأيده بالنصر فهـــو كبير
له فى سياسات الملوك مذاهب ... يقصر عنها قيصر وقصير
مليك كأن الله أبدع صنعه ... لكى لشئون العـــالمين يدير
ويلبس تاج الملك حتى بعزمه ... وهمته العليـا يهون عسير
وتعطى الأمانى للأنام بقصره ... وتقضى به للعـــالمين أمور
فلا زال منصور الجناب معززاً ... إلى الحق حتى لايكون عذور
وتبق مدى الأيام فى ظل عرشه ... فليس له بين الملوك نظير
مليك لكنه الحادثات مجرب ... جدير بحل المشكلات قدير
وقد شهدت كل البرية أنه ... حريص على نفع البلاد غيـور
ويرحل مسرورا ويرجع ظافراً ... فذلك مولى بالدعاء جدير
لتبلغ غايات الكمال بعزه ... ويبقى لنا خير يتم كثير

أ علاء الدين شوقي
www.lisanarb.com

الفهـــــرست